

وِل وَايرنل ديورَانت

عِصر الإيمان

تَ<sub>رَج</sub>َتَ مِحمِّدبَدرَات

الجزء الشَّالِيث مِينَ المَجَلَّدَالرَّا بع







# الكناب الثالث

الحضارة اليهــودية

15. - 140

#### الحوادث التاريخية في الكتاب الثالث مرتبة حسب تواريخها

الحجمع العلمي الهودي في سورا .

التنام .

بهودا هنسيا ۽

الأمورائم .

14. - 1

0 . . - 77.

1117 - 117.

114.

١١٨١ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٦ اليهود يطردون من فرنسا .

144

779

جمع التلمود . 44. هلل الثانى يحدد التقويم اليهودى . 404 السبورام . 70 - 0 .. الجادنتم في بابل . 1.5. - 43.1 وفاة ما شاء الله الفلكي . MIO إسحق إسرائيلي ، الفيلسوف . 900 - VOO سمديا جاؤن ، الفياسوف . 484 - 784 حسدای بن شبروط ، الوزیر . 94 - 910 مرسوم الزواج بواحدة يصدره الكوهن جرشم . ابن جبيرول الشاعر والفيلسوف . 1.4. - 1.41 شمويل بن نجدلا ، الوزير . 1.00 -. 1.44 شلومة بن يتزحاق (راشي) شارح التلموند . 11.0 - 1.8. يوسف بن نجدلا . 1.77 - 1.00 إبرهام بارحيا (العالم في الرياضيات) . 1177 - 1.70 موسی بن عزرا الشاعر ـ 1179 - 1.4. يهردا هليني ، الشاعر . 1184 - 1.47 إبراهام بن عزرا ، الشاعر . 1171 - 1194 مذابع الحرب الصليبية الأولى . 1.97 إبراهام بن داود ، الفيلسوف . 114. - 111. ابن ميمون . 17.8 - 1140 مذابح الحرب الصليبية الثانية . 1124 داڤيد الروق المسيح الكذاب . 117.

رحلات بنيامين التطيلي .

مشنة التوراة لابن ميمون .

دلالة الحائرين .	114.	
اشأة النبلّة .	114+	
المذابح في إنجلترا .	114.	
مجلس اللاتران الرابع يأمر بأن يكون اليهود شار: .	1710	
إحراق كتب ابن ميمون في مثبلييه .	1448	
إحراق التلمود في باريس .	1727	
اليهود يطردون من إنجلترا .	144.	
صفر زوهر لموسى الليوتى .	1740	

### الباب لخام عشر

### التلمـــود

### الفضيل الأول

#### النفي ١٣٥ - ٥٦٥

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ في خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزيه ويلهمه دينه الحاص ، وبعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية ، ويخرج من بينه شعراؤه ، وعلماؤه ، وأدباؤه ، وفلاسفته ، وينقل البذور الحصبة بين عالمين متعاديين .

ولم تكن فتنة پاركوزيبة Bar Cocheba ( ١٣٥ – ١٣٥ ) آخر الجهود التى بلطا البهود ليستعيدوا حريتهم التى قضى عليها يمپي وتيتس . Titus . فقد أعادوا الكرة الاستخلاصها في عهد أنطونينس بيوس Antoninus Pius ( ١٦١ – ١٣٥ ) وأخفقوا في محاولتهم وحرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقلسة إلا في يوم تلك الذكرى المؤلة ، ذكرى تدميرها ، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم . وكان سكان فلسطين التى خرب من مدافها في فتنة پاركوزيبة ٩٨٥ مدينة حي محيت من الوجود ، وقتل من أهلها الباقون إلى درجة من الفاقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبني لها أثر . ومع هذا فإنه لم يكد يمضي على فتنة پاركوزيبة جيل واحد حتى أنشي في طبرية هذا فإنه لم يكد يمضي على فتنة پاركوزيبة جيل واحد حتى أنشي في طبرية بيت الدين ، أي المجلس الهودي القومي — وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين بيت الدين ، أي المجلس الهودي القومي — وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

من العلماء الأحبار والمشترعين وافتتحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى في النفوس .

غبر أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة . ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى منالوجهة القانونية بين الدين البهودى وبين ساثر الأديان التي يدين بها غيرهم من رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد البهود وفرض عليهم فيودآ ومطالب جديدة ، وحرم على المسيحين أن يتصلوا مهم(١) . ونفي قسطنطين أحبارهم (٣٣٧) وجعل زواج الهودي من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام(٢) . وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم . وثار اليهود مرة أخرى في عام ٣٣٢ وأخمدت ثورتهم ودكت صبورى دكا ، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن ، وقتل آلاف من اليهود ، واستعبد آلافآخرون . وبلغت حال اليهودي الفلسطيني وقتئذ (٣٥٩) درجة من الانحطاط ، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجاعات اليهودية درجة من الصعوبة ، اضطر معهما حاحامهم هلل الثانى أن ينزل هماكان ليهود فلسطين من الحق فى أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم ، وأصلار لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولايزال هذا التقويم الذي أصدره هلل معمولاً به إلى اليوم لدى اليهود في جميع أنحاء العالم .

فلما ارتتى يوليان عرش الإمر اطورية أنقذ الهود إلى أجل قصر من هذا التعذيب. فقد خفض هذا الإمر اطور الضرائب المفروضة عليهم، وألغى القوانين التعذيب. فقد خفض هذا الإمر اطور الضرائب المفروضة عليهم، وأعرف بأن بهوه التي تجعلهم أقل منز لقمن غيرهم، وأطرى الصدقات العبر انية ، واعترف بأن بهوه و الفراية ، وسأل زعماء الهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية ، فلما أجابوه بأن شريعتهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا في هيكل أورشليم أمر أن

بعاد بناء الهيكل من مال الدولة<sup>(٣)</sup> . وأعيد فتح أورشاج للبهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمير اطورية ، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء ، وتبرعوا بحليهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل الجديد(٤) ، وفي وسعنا أن تتصور سرور القوم الذين ظلوا مائى عام يدغون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم ( ٣٦١ ) . ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهيب أحرق عدداً من العال القائمين بالعمل<sup>(ه)</sup> . غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد ــ فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى ــ و لعل سبها انفجار بعض الغازات الطبيعية - فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع . وفرح المسيحيون إذ بدا لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل ، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له يم ثم مات يوليَّان فجاءة ، فحبست عنهم أموال اللَّـولة ، وسنَّت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كاثت من قبل ، وحرم على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم ، فعادوا إلى قراهم ، وفقرهم ، . وصلواتهم . وكتب چيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول : إن أهل فلسطين اليهود « لا يزيدون على عنشر ما كانوا عليه من قبل ؟ (٦٠) . وفي عام ٤٢٥ ألغى ثيودوسيوس الثانى الحاخامية الفلسطينية ، وحلَّت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية ، وتخلت فلسطين بعد هبة قصيرة في عام ٦١٤ ، عن زعامة العالم الهودي .

فهل يلام البوذ بعد هذا إذا أملوا أن تكون حالم أحسن من كلف الحال في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها . فمهم من انتقل نحوالشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقووا المنصر البودى البابلي الذي لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذي حدث في عام ١٩٥ ق . م . وكانت وظائف الدولة محرمة على البهود في بلاد الفرس أيضاً ؟ والكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف ، ولذلك

لم يكن هذا القيد ثقيلا على البود أنفسهم (٧). وقد حاقت بالبود في تلك البلاد عدة اضطهادات ، ولكن الضرائب المفروضة عليم كانت أخف عبناً مها في غير تلك البلاد ، وكانت الحكومة في الأحوال العادية تتعاون معهم ، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أي زعيم الطائفة البودية ويجلونه . وكانت أرض العراق وقتئد خصبة تسقيها مياه النهرين ، ولذلك أضحى من فيها من البود زراعا أثرياء وتجاراً ناشطين ، ومهم طائفة من بينها عدد من جلة العلماء الذائعي الصيت أثرت من عصر الجعة (٨) . وتف اعف عدد الحالية البودية في بلاد الفرس يسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يبيح تعدد الأزواج . وكان البيود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التي يبيح تعدد الأزواج . وكان البيود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التي كانت تبيحها المسريعة الإسلامية . وكان الكوهنان الطيبان رب ونجان أثناء نجوالها يعلنان في كل مدينة يجلان بها عن رغبتهما في زوجات موقوتات ، نجوالها يعلنان في كل مدينة يجلان بها عن رغبتهما في زوجات موقوتات ، الإباحة (٩) . وفي نحر ديا همان تلك الملن للحياة الزوجية ويبعداهم على الحياة الإباحة (٩) . وفي نحر ديا أنحاء البلاد التي تشتت فيها البود .

وظل الهود في أثناء ذلك الوقت ينتشرون في جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط و فيهم من ذهب لينضم إلى الجاليات الهودية في بلاد الشام وآسية الصغرى ، ومهم من ذهب إلى القسطنطينية ، رغم عداء أباطرة الروم وبطارقهم ، ومهم من انجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا في سلام وحرية دينية مع بني جنسهم الساميين ، واحتلوا في تلك البلاد أقالم برمها مثل خير ، وكاد عددهم في يتوب (المدينة) يكون مساويا لعدد العرب أنف م ، واسهالوا إلى دينهم عدداً من الأهلين ، وهيتوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد الهودية . ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحيشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قبل أنهم بلغوا

ف عام ٣١٥ نصف سكان تلك البلاد (١٠٠) . وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية ، وكان ثراؤهم فى تلك المدينة السريعة التأثر والاهتياج مما زاد من حدة العداء الدينى .

وانتشرت جاليات بهودية في جميع مدائن أفريقية الشمالية ، وصقلية ، وسردينية . وكان عددهم كبيراً في إيطاليا ، وكان الأباطرة الوثنيون يحمونهم فى العادة من الأذى ، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك ، والرابوات يشددون عليهم النكبر في بعض الأحيان . وكان في أسيانيا جاليات بهودية قبل يوليوس قيصر ۽ ونمت تلك الحاليات دون أن يتعرض لها بأذى نحت حكم الأباطرة الوثنيين ، وأثروا في عهد القوط الغربيين الآريين ، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد الميئس بعد أن اعتنق الملُّكُ ريكارد (٦٨٥ – ٢٠١ ) عقائد مؤتمر نيقية . ولسنا نعرف أن الهود تعرضوا للاضطهاد في. غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع ( في على ٣٨٥ و٥٤١) بعد أن انتصر كاوفس Clovis المسيحي المتمسك بدينه على القوط الغربيين الآريين بجيل من الزمان . وأحرق مسيحيو أورليان كنيساً يهودياً حوالى عام ٥٦٠ ، وطلب الهود إلى جنَّر ام Qunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناءه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيو دريك في مثل هذه الحادثة من قبل . ولما رفض جنثرام هذا الطلب صــاح الأسقف جريجورى التورى Gregory of Tours : « ما أعظمك أمها المليك وما أعجب حكمتك إ و(١١) .

وكان اليهود فى البلاد التى انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الحطوب ، فكانوايعيدونيناء معابدهم فى صبروأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، ويكدحون ، ويتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويأملون ، ويزدادون ويتضاعفون . وكان يطلب إلى كل جالية فى بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية بضمهما في العادة الكنيس نفسه ، وكان يشارعلى العلماء ألا يعيشوا في بلد يخلو من هاتين المدرستين . وكانت لغة العبادة والتعليم هي اللغة العبرية ، أما لغة التخاطب اليومي العادي فكانت الأرامية في بلاد الشرق ، واليونانية في مصر وفي بلاد أوربا الشرقية ، أما في غير تلك البلاد فكان اليود يتخاطبون بلغة من يعيشون بيبهم من أما في غير تلك البلاد فكان اليود يتخاطبون بلغة من يعيشون بيبهم من الأهلين . وكان الدين هو الموضوع الذي يدور حوله التعليم اليودي ، أما الثقافة غير الدينية فكادت في ذلك الوقت أن سمل إهمالا تاماً . ذلك أن اليود المشتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيامهم جسمياً وروحياً إلا عن اليون شريعهم ، وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل مها . وكان التلمود وكان دين آبائهم يزداد قيمة لديهم كالم زاد الهجوم عليه ، وكان التلمود والكنيس الدعامتين والملجأين اللذين لاغني عنهما لشعب حائر تقوم حياته والكنيس الدعامتين والملجأين اللذين لاغني عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم رجاوه على الإيمان بالله .

## الفصل لثاني

#### منشئو التلمود

كان الكنة ورجال الدين المقيمون في المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطيني والتلمود البابلي . وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الحمسة ، بل درك له أيضاً شريعة شفرية تلقاها التلاميد عن المعلمين ووسموا فيها جيلا بعد جيل . وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية هي الأخرى من عند الله فهي لذلك واجبة الطاعة ؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م وورث رجال الدين تقاليد الفريسين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التي استمسك مها البهود وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لامجازآ هي كبانهم وقوام حياتهم . وإن القصة التي تروى تلك العملية الطويلة التي استغرقت ألف عام ، والتي تجمعت في خلالها الشريعة الشفوية ، واتخذت فها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا ؛ والقرون الثمانية التي تجمعت فها مُمار الجدل ، والأحكام ، والإيضاح فكانت هي الجارتين أو شروح الشنا ؛ وانضهام المشا إلى أقصر هاتين الجارتين ليتألف منهما التلمود الفلسطيني ، وإلى أطولها ليتألف مهما التلمسود البابلي – إن القصة التي تروى هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة في تاريخ العقل البشرى . وكما كان الكتاب المقدس أدب العبر انين

الأقدمين ودينهم ، كانت التوراة حياة يهود العصور الوسطى ودماءهم .

وذلك أن أحكام الشريعة الواردة فى الأسفار الخمسة أحكام مسطورة ، ولهذا فإنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشلم يعد أن فقدت حريتها ، ولا البهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج فلسطىن ، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها . ومن ثم كانت مهمة علماء السُّنهلوين قبل التشتت ، والأحبار بعده ، هي نفسر الشريعة الموسوية تفسراً مهتدى به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان. منه . وتوارث المعلمون جيلا بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم وآراء الأقلية. والأغلبية في موضوعاتها . على أن هذه الروايات الشفوية لم تدون ، ولعل سبب عدم تدويمًا أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها مرنة قابلة للتعديل ، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرعموا الأجيال التالية على استظهارها . فكان في وسع الأحبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة. إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها . وكان الأحبار فى السنة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنام Tennaim » أى « معلمي الشريعة » وإذكانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقدكانوا هم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل .

وكان أحبار فلسطين وأحبار اليهود «المشتين أرستقر اطية فذة لامثيل لها فى التاريخ. ذلك أن هؤلاء الأحبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على طائفة خاصة من الناس ، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات ، وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل فى الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا من ذوى الشهرة العالمية ، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التي نتحدث عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء وكان الأثرياء

يجعلوبهم في بعض الأحيان شركاء غير عاملين في مشروعاتهم المالية والتجارية ، أو يأوونهم في بيونهم ، أو يزوجونهم من بناتهم ، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم ، ومنهم من عدد قليل أفسدهم ماكان لهم من المنزلة الرفيعة بين أيناء دينهم ، ومنهم كانوا كسائر الحلق يغضبون ، ويغارون ، ويحقدون ، ويسرفون في النقد ، ويتكبرون . ومنهم من كان لابد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالم بحق رجل متواضع ، لأن الحكم يرى الجزء في ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم ، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم ، وبروون ألف قصة وقصة تذي عن حكمهم ومعجزاتهم . وقد ظل اليهود الديل يومنا هذا يجلون طلاب العلم والعلماء كما لا يجلهم شعب آخر في الديالم كله .

ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أصبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة ولذلك حاول هلل وعقبها Akiba ووإير Meir مرارآ عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والروؤ ، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جهرة الهود . وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب في نقل الشريعة هو القاعدة العامة ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصا مروعا ، وكان ثما زاد الطين بلة أن تشتت الهود قد نشر هذه القلة في أقطار فائية . وحرالي عام ١٨٩ تابع الحبر يهودا هنسيا العامة وأعاد ترتيب في قرية صبورة (\*) بفلسطين عمل عقيبا ومإير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكمها ، ثم دونها ، وزاد عليها إضافات من عنده ، فكانت هي و مشنا الحبر يهودا وانتشرت هذه بين الهود انتشارآ فكانت هي و مشنا الحبر يهودا وانتشرت هذه بين الهود انتشارآ

<sup>(</sup> ه ) قرية على بحيرة طبرية في فلسطين . ( المترجم )

<sup>(</sup>ه.) وثرى أقلية من العلماء أن يهودا لم يدون مشناه ، وأنها أخذت تنتقل شفوياً من مجيل إلى جبل حتى القرن الثامن الميلادى . ومن شاه معرفة رأى الأغابية فليرجع إلى =

أصبحت معه بعد زمن ما هي المشنا، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية .. والمشنا (أى التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هي الصورة النهائية. لطبعات مختلفة كثيرة وحواشي متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى الآن . ولكنها مع هذا خلاصة مدمجة محكمة ، وضعت لكي تحفظ عن ظاهر قلب بكثرة التكرار ؛ ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعثه في نفسه من الآمال. الحادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارى ملما بحياة اليهود وتاريخهم .

وقد قبلها بهود بابل وأوربا كما قبلها بهود فلسطين ، ولكن كل مدرسة فسرت أمثالها وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخوى ، وجمعت ستة أجيال (۲۲۰ – ۵۰۰ م) من أحبار الأمورائم (الشراح)، هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجهارا الفلسطينية والبابلية ، كما اشتركت من قبل ستة أجيال (۱۰ – ۲۲۰ م) من الأحبار التنام. في صياغة المشنا . وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا بهودا ما فعله التنام. بالعهد القديم : فتناقشوا في النص ، وحللوه ، وفسروه ، وعدلوه ، ووضحوه لكى يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان والمكان . ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين. شروطها وصاغتها في الصورة المعروفة بالجارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب شروطها وصاغتها في الصورة المعروفة بالجارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب آشي رئيس جامعة سورا حوالي ذلك الوقت في تقنين الجارا البابلية وظل يواصل العمل في ذلك التقنين جيلا من الزمان . وأتمه ربينا الثاني بار (ابن) شعويل ، وهو أيضا من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت ( ٤٩٩ ) .

Judaism عناب ج . ف . مور المسمى « اليهودية في القرون الأولى من الناريخ المسيحي اليهودية في القرون الأولى من الناريخ المسهوسيس in the First Centuries of the Christian Esra W. O. Oesterley عام ١٩٣٢ الحجلد الأول ص ١٥١ وكذلك كتاب و . ا . أوستر لي ١٩٣٢ المجلور و . ج . ه . بكس ، H. Box المسمى نظرة قصيرة في الأداب الدينية اليهودية في العمبور Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaisn.

وإذا ذكرنا أن الجارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة . وظل الأحبار السبورائم (المناطقة) مائة وخمسين سنة أخرى ( ٥٠٠ – ٦٥٠) يراجعون هذه الشروح الضخمة ، ويصقلون التلمود البابلي الصقل الأخبر .

بقى أن نقول إن لفظ المتاممور يعنى التعليم . ولم يكن الأمورائم يطلقون اللفظ إلا على المشنا . أما فى الاستعال الجديث فهو يشمل المشنا والجارا . . والمشنا فى التامود البابلي هي بعينها مشنا التلمود الفلسطيني ، ولا يختلف التلمودان إلا فى الحارا أو الشروح فهي فى التلمود البابلي أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطيني (\*) .

ولغة الجارا البابلية والجارا الفلسطينية هي الآرامية ،أما لغة المشنا فهي اللغة العبرية الجديدة تتخالها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة . وتمتاز المشنا

وسننتل في هذا الفصل فضلا عن ذلك من المدرش (التفسير) وهي خطب ألقاها – على حد قولهم – التنام أو الأمورائم ولكنها جمعت ودونت خلال الفترة المحصورة بين النرنين الرابع والثاني عثير ، وتشرح في أسلوب شعبى ممهل كتباً مختلفة من الكتب العبرية المقدسة . ومن هذه المدرشيمات (التفاسير) الكبرى تفسير جنثيز رباه (Rabbah السفر التكوين ، وويقرا رباه لسفر اللاويين وخمسة ملفاف ( مجلوتات Megilloth ) – تشرح إستير ، ونشيد الأنشاد ، والمراثى ، وسفر الجامعة : وتشرح المكيلتا Nschilta سفر الحمروج والسفر Sifra يشرح سفر اللاويين ، والسفرى Sifre يشرح سفرى الأعداد والتثنية ، وتحتوى البسيقتا على عظات ذات صلة بفقرات من الكتاب المقدس (۱۲) .

بالإيجاز، فهى تجبر عن القانون الواحد بقابل من السطور ، أما الجاريان فتتبسطان عن قصد وتعمد ، وتذكر ان مختلف آراء كبار الأحبار عن تصوص المشنا وتصفان الظروف التى قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات. ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هملكا) ، أما الجاريان فبعضهما هلكا – إعادة نص قانون أو بحثه – وبعضها همجدة (قصص). وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنهاكل ما ليس هلكا فى التلمود. وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص ، والأمثلة الإيضاحية . وأجزاء من السير ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والتنجيم ، والسحر ، والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشريعة ، وكثيراً ما تروج والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشريعة ، وكثيراً ما تروج الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جدل معقد متعب . ومثال ذلك ما يأتى :

بيباكان رب أى ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ تال له أحدهما : « احك لنا يا سيدى قصة لطيفة » ، وقال الآخر : « لا بل أرجوك أن تفسر لنا بدلا من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية » . . فلما بدأ القصة أغضب أحدهما ، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر . فلما فلما رأى ذلك ضرب لها هذا المثل : « إن مثلي معكما كمثل رجل زوج باثنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز ، فاقتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً ، واقتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى سدو عجوزاً ، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلع هنا الهنا .

### الفيرل لثالث

#### الشريعسة

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصور باختصار مخل كريه ، بعض مناحى هذا التلمود الضخم ، الذى تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبر انيين فى العصور الوسطى ، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل ، وأن معالجتنا إياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ .

#### الناحية الدينيسة

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعة مسطورة وشفوية، ومنحكمهم المأثورة في هذا المعنى قولهم: هإن در اسة المتوراة أجل قدراً من بناء الهيكل آلان . و ه إن من واجب الإنسان وهو منهمك في دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم: وكأنا في هذا اليوم قد تلقيناها من طورسيناء آلان ، وليست الدراسات الآخرى يعد ذلك واجبة ؛ فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراسها إلا في قلك للساعة التي ليست ليلا ولا نهار الالله . ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفي لهذه العبارة ، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمه موحى بالمعنى الحرفي لهذه العبارة ، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمه موحى بالمن عند الله — لتصور بصورة مجازية اقتران بهوه بإسرائيل عروسه المختارة (١٧٠) . وإذ كان انعدام الشريعة تعقيه حتما الفوضي الأخلاقية فإن

 <sup>(\*)</sup> ويفسر رجال الدين هذه العبارة بأنها وصف دمزى الاتحاد المسيح بالكنيسة
 زوجته المختارة .

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم و في صدر الله أو عقاه الشهر وكان إنزالها على موسى لا شيء غير، حادثاً من حوادث الزمان . والتلمود أو بعبارة أدق جزوه الذي يبحث في الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية ، وهو صياغة للقوانين التي أوحاها الله إلى موسى شفويا ثم علمها مؤسى لحلفائه ، ولهذا فإن ما فيها من الأوامر والنواهي واجبة الطاعة تستوى في هذا مع كل ما جاء في الكتاب المقبلس \*\*\* . ومن أحبار اليهود من يجعلون المشنا مرجعاً أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشبريعة معللة جاءت متأخرة عنها (١٨) . وكانت بعض قرارات الأحباز نتعارض تعارض عارضاً حريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة ، أو تفسرها تفسراً يبيح مخالفتها ١٩٠٠ . وكان يهود ألمانيا وفرنسا في العصور الوسطى يدر رسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

ومن المبادئ البديهية في التلمود ، كما أن من المبادئ البديهية في الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شيء . وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المتشككين أمثال البشع بن أيوبا العالم الذي اتخذه الكوهن ماير صديقا له ، ولكن يبدو أن أولئك المتشككين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تجهر بآرائها . والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر ؛ فهو يجب ويبغض وبغضب وبغضب ونصحك (٢٦) ويضحك (٢٦) . ويحس بوخز الضمير ،

<sup>(</sup>ه) قارن بذلك ما يعتقده الصيليون الأقدمون من أن حركة العالم وبقاءه إنما يعتمدان على القانوند الأخلاق ؛ وتشبيه هرقليطس حيود الكواكب السيارة بالملنوب ؛ و«أمكار» أفلاطون النموذحية الأصلية المقدمة . وأصل هذه انتفارية يرجع إلى الآية الثانية والعشرين من الأصحاح الشابع الأصحاح الشابع عشر من إنجيل لوقا ، والآية انثامنة عشرة من الأصحاح الحامس من إنجيل متى ) ؛ كذلك يعتقد المسلمون أن الترآن أيضاً أرلى .

<sup>(\*</sup>ه) لم يقر أي نجمع بهودي رسمي هذا الرأي التلمودي الخاص بالتلمود ؛ واليهودية المدينة بعد إصلاحها ترفضه .

ويلبس التمائم(٢١) ، ويجلس على عوش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم (٢٠). ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما ، ويقولون : ﴿ إِننَا نَسْتَعَبُّرُ لَهُ صَفَّاتٌ مِن خَلْقَهُ نَصْفُهُ بَهَا لَنْيُسُرُ بذلك فهمه »(٣٦) ؛ وإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم . وهم يضورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه كله ، تمده بالحياة ، تسمو عليه وتلازمه فى وقت واحد ، تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حالَّة فى كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه . والحضرة الإلهية الكونية المسهاة بالسُكينا ( السَّكَنَ ) تكون حقيقية بنوع خاص في الأشخاص المقدسين وفي الأماكن والأشياء المقدسة ، وفي ساعات الدرس والصلاة . لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد. وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى المهودية من تعدد الآلهة ، والمهود لا يفتئون يجهرون بوحدانية الله في حماسة قوية وينددون بشرك الوثنية وبما يبدو في الثالوث المسيحي من تثليث. وهم يجهرون بهذه الوحدانية في أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل : « اسمعي با إسرائبل ، الله إلهنا ، الله واحد ؛ ( شمع يسرائيل أدوناى إلوهينا أدوناي أحد ١٢٧٧ . وليس ثمة مكان بجواره في هيكله أو عبادته إلى مسيح، أو نبي ، أو قديس . وقد نهى أحبار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا في أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر ، ولكى يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعى هوه كانوا يذكرون بدلا منه افظ أدوناى أى الرب، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلا منه عبارات مثل: « الواحدالمقدس، «الواحدالرحيم، « السهاوات، « أبينا الذي في السهاء » . وفي اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجز ات وأنه بصنعها فعلا، وخاصة على أيدىكبار الأحبار؛ ولكن يجب ألا يظن أن لهذه

المعجز ات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة توانين إلا إرادة الله ،

وقد خلق كل شيء لغرض إلمي طيب : و فقد خلق الله القوقعة لمداواة الجرب، والزجاجة لمداواة لسعة الزنبور، والبعوضة لمداواة عضة الأفعى، والأفعى لعلاج الاحتقان (٢٨٠)، وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع ؛ وكل خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظريه لا تخفي عنه ، وكل عمل يعمله الإنسان أو فكرة تجول بخاطره في خلال يومه يمجد بها الذات الإلهية أو يغضبها . والناس كلهم أبناء آدم ، ولكن و الإنسان قد خلق أولا وله ذنب كذنب الحيوان (٢٩٠) و وكانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجووه القردة » (٢٠٠) . ويتكون الإنسان من جسم وروح ، فروحه من عند الله ، وجسمه من الأرض ، والروح تدفعه إلى الفضيلة ، والجسم يدفعه إلى الحطيثة . أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان ، ومن ذلك العدد الجم من الأرواح الحبيثة التي تكمن حوله في كل مكان (٢١٠) . بيد أن كل شرقد يكون في نهاية الأمر خيراً ؛ ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان أو تناسل . وتقول أحدى الفترات الظريفة ٥ تعال نعز الحير لآبائنا ، فإنهم لولم يأنموا لما جنا نحن إلى هذه الدنيا » (٢٠٠) .

والحطيئة من فطرة الإنسان ، ولكن ارتكامها ليس موروثاً ، وقد قبل أحبار اليهود عقيدة ستموط الإنسان ، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الحطيئة الأولى ولاالكفارة الإلهية . فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من الدنوب ، وإذا ما لتى من العتاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أنه يستحقه على ذنوبه ، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها ، أو قد يكون هذا الإفراط في المقاب نعمة كبرى ، توهله للخير العميم في الدار الآخرة . ومن أجل هذا يجبعلى الإنسان كما يقول عقيباً أن يبتهج لكبرة ما يصيبه من سوء (١٦٠) أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ، وغير الآثم بحق سوء (١٦٠) أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ، وغير الآثم بحق سوء (١٦٠) فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها . ويقص

علينا مدرسن قصة مؤثرة عن موت الكاثن مإير فيقول :

بينا كان الكوهن مإير يلتي موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذ مات ولداه المحبوبان فجاءة في منزله . فغطتهما أمهما بغطاء ، وأبت أن تندمهما في اليوم المقدس . ولما عاد الكوهن مإير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرهما في الكنيس بين المصلين ، فطلبت إليه أن يتلو الهبدلة (وهي دعاء يختم به السبت ) وقدمت له العشاء . ثم قالت له : لا لدى سوال أريد أن أسألك إياه . التمني أحد الأصدقاء في يوم من الأيام على جواهر أحفظها له ، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردها إليه ؟ » فأجابها الكوهن مإير « ذلك واجب عليك بلا ريب » ؛ فأمسكت زوجته عينذ بيده ، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه المغطاء . فأخذ الكوهن مإير ينتحب ولكن زوجته قالت له : لقد كانا وديعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدها أن يسترد وديعته » .

ولم يقل كتاب العبر انيين المقدس إلا الشيء القايل عن خلود الثواب والعقاب ، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأحبار الدينية . فقد صوروا النارعلي أنها جهنم Ge Hinnom أوشاول (\*) ، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب . ولا يدخلها من المختنين إلا أخبتهم (٣٠) ، وحتى الآنمون الذين يداومون على الإنم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين ، بل إن « كل من يلقون في النار يخرجون منها مرة أخدى إلا فئات ثلاثا: الزاني ، ومن يفضح غيره أمام الناس ، ومن يسب غيره » (٢٧). أما السهاء فقد كانوا يصورونها في صورة حديقة تحوى جميع المسرات الجسمية والروجية . فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من

<sup>(</sup> ي ) كان رادى هم كومة من الأقذار فى خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبنة . أما شإول فقد كانت فى رأيهم مكاناً مظلماً تحت الأرض عِدْهب إليه جميع الأموات .

الستة الآيام التي خلق فيها العالم ، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العداب في وليمة أعظم ما يسر أصحامها أن يروا وجهه . بيد أن بعض أحبار المهود يعبر فون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر(٢٨) .

وإذا ما فكر اليهود في النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد . وذلك أنهم وقد شتنوا في أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها في ظهم عقل ، وآخذوا يقوون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار ، فهو آبوهم ، وهو إله عادل ، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل . أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه ؟ وقد دفعتهم شدة يأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطر معه أحبارهم الذين سموا مهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بم عنها بضروب اللوم والتأنيب . وكانوا في ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذي نشأت فيه أمتهم ، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش في فلسطين يطهر من يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش في فلسطين يطهر من الذنوب الارب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش في فلسطين علهر من وأهم قسم في الصلوت اليومية وهو الشمونة عسرا (الفقرات المان عشرة). المنود عما عبىء ابن داود ، الملك المسيح الذي بجعل اليهود كما كانوا أهمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله في هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله في هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة

#### ٢ - الشعائر الدينية

لم يكن ما يمز اليهود من غير هم من الشعوب في عصر الإيمان الذي نتحدث عنه، والذي يحفظ عليهم وحديهم وهم مشتتون، هوعقيدتهم الدينية بل ماثرهم، لم يكن هو العقيدة التي لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتي قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً لم يكن في مقدور

شعب غير هذا الشعب المتكبر ؛ السراع التأثر ، أن يظهر من الوداعة والصبر ما تتطلبه إطاعته والعمل بها . لقد كانت المسيحية تنشد الوحدة عن طريق توحيد الشعائر . وفي توحيد العقيدة ، أما اليهودية فكانت تنشدها عن طريق توحيد الشعائر . وفي ذلك يقول أبا أريكا : « إن الشرائع لم توضع إلا لكي تودب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها »(١١) .

ولقد كانت الشعائر أولا وقبل كل شيء هي قانون العبادة . ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدات بالأضاحي الحيوانية القرابين والصلوات، ولكنهم لم يكونوا يجزون وضع صورة لله أو للآدميين في المعابد كما لم يكونوا يجبزون وضعها في الهيكل . ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقي الآلية المباحة في الهيكل محرمة في المعابد . وفي هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام ، فقد تكشف الدينان الساميّان عن تقوى قائمة وتكشف المسيحية عن فن مقبض قاتم كذلك .

وكانت الصلاة تجربة دينية عارسها البهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد عارسها فى كل ساعة . وكانت صلوات الصباح تنلى من قلقطير ات (علب صغيرة عجتوية على فقرات من الكتاب المقدس ) مثبتة على الجباه والأفرع ولم يكونوا يطعمون طعاما دون أن يتلوا دعاء قصيرا قبله و صلاة للشكر طويلة فى نهايته ، على أنهم لم يكونوا يكتفون بهذه الصلوات المنزلية ، ذلك أن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معاً فى القيام بأعمال واحدة ، وكان أحبار اليهود يحاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن و الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها فى الكنيس (٢٤٠) . وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو الشهونة عسرا » ، « والشمع يسر ائيل ، وتلاوة من أسفار موسى الحمسة ، ومن سيفر الأنبياء ، ومز امبر داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

المقدس، وعلى و قديس Kaddish (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات) ثم دعاء ختاى ، ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التي تقام في المعابد إلى يومنا هذا .

وأدق من هذه الشعائر وأكثرٍ منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة البدنية أو طقوس الطهاهرة . فقد كان أحبار المهود يرون أن الصحة البدنية تعن على سلامة الروح(٤٣) ، ولهذا كانوا يحرمون على بني ديبهم أن يعيشوا في مدينة ليس مها حَمَّام (٢٤) ، ويعينون للاستحام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية كقولهم: « إذا اغتسل الإنسان بماءساخنولم يغتسل بعده بماء بار دكان مثله كمثل الحديد الذي يحمى في تنتُّور ثم لايوضع بعدالذ في ماء بارده (من) ، فثل الحسم كشل الحديد يجبأن بُسق ويُقسَى . ويجبأن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحام (٢٩٦) . كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة ، وقبل تناول كل وجبة من الوجبات وبعد تناولها ، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة دينية . وكانت جثث الموتى ، والاتصال الجنسي ، والحيض ، والولادة ، والحشرات، والخنازير، والجلمام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه كلها حسب القواعد الدينية نجسة . ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدى فيه شعائر التطهير . وكانت المرأة تعد نجسة (أى لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً ، وثماثين يوماً إذا كانت المولودة أنثى (٤٧٠) . ويجب وفقاً لما ورد في الكتاب المقدس (في الآيات من ٩ إلى ١٤ من الأصحاح السابع عشر من سيفر التكوين ) أن تجرى عملية الختان للمولود الذَّكر في اليوم الثامن بعد مولده ، وكان هذا الختان يعد قرباناً لهوه وعهداً بينه وبن عباده ؛ ولكن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين ، والأحباش ، والفينيقين ، والسوريين ، والعرب ، يوحى بأنها كانت إجراء صحيا يحتمه الجو الذي يساعد على النضوج والاهتياج الجنسي البكرين ، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة

ويؤيد هذا الرأى ما يحتمه أحبار اليهود على بنى دينهم ألايبقوا لديهم عبداً أكثر من اثنى عشر شهراً دون ختان(٤٨) .

ولقد يخيل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب مبسط في الطب المنزلي أكثر مما هوكتاب في الشرائع الدينية ، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودى . ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الحامس بعد الميلاد كانوا كمعظم شعوب البحر المتوسط ينزلون عائدين إلى الحرافات والحيل الطبية التي تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة ؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبي والحرافي إلى التلمود . غير أننا مع هذا نجل في الجازا البابلية وصفا غاية الجودة للمرىء مو الحنجرة ، والقصبة الحوائية ، والرئتين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء الناسل . وقد وصفت فيه خراجات الرئتين ونليف الكبد ، والحررض الجبيني وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ ومما أثبته الأحبار أن البحبيني وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ ومما أثبته الأحبار أن اللباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى (٢٩٠) ، كما أثبتوا أن التقدمام (أى الاستهداف للنزف) داء وراثي يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب . لكن هذه الآراء قد اختلطت به رق سحرية لطرد الأرواح الحبيئة التي يحسونها سبباً في الأمراض .

ولقدكان أحبار اليهود ، مثلنا نحن جميعاً ، خبر اء في التغذية الصحية . وتبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان . فهذه في رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها(٥٠) لأن « الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماه القوة »(٥١) . وهم يمتدحون الحضر والفاكهة ما عدا البلح ويوصون بأكلها . أما اللحم فمن مواد الترف التي يجب ألايتناولها سوى المتطهرين (٢٠) . ويجب أن يذبح الحيوان بحيث تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس . ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين ، عليهمأن يفحصوا عن أحشائه الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين ، عليهمأن يفحصوا عن أحشائه

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض. ويحب آلا يجمع في الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التي يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر في المطبخ (٢٥٠). ولحم الحنزير عمر ممقوت ، ولا يصبح أكل البيض ، أو البصل ، أو الثوم إذا كان قد ترك باللبل منزوع القشر (٤٠٠). ويحب الامتناع عن تناول الطعام في غير أوقاته المحددة : « لا تنقر طول النهار كالدجاج »(٥٠٠). و « الذين يموتون من الإفراط في الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية »(٢٠). « والأكل أيل سن الأربعين نافع للصحة ، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها »(٧٠)، والاعتدال في الشرب خير من الامتناع عنه بتاتاً ، فكثيراً ما يكون الحمر والاعتدال في الشرب خير من الامتناع عنه بتاتاً ، فكثيراً ما يكون الحمر دواء نافعاً (٨٠) ، و « ليس ثمة سرور إلا به »(٢٠). وقد أراد أحبار البهود أن يسيروا في موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن « من يطل المكث النهاء الطبيعة (٣٠٠).

وكانوا يقاومون التنسك وينصحون بني دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم (٢١). وقد فرض عليهم الصبام في مواسم معينة وفي بعض الآيام المقدسة ، ولكن لعل الدين هنا قد انخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة . واقتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يحتفلوا بالأعياد ويقيموا الولائم من آن إلى آن ، رغم نغات الحزن والأسي اتى كانت تسمع منهم حتى في أفراحهم . « يجب على الإنسان أن يدخل السرور في العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهي السرور في العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهي كان عبئاً ثقيلا عليهم في أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودي التق كان عبئاً ثقيلا عليهم في أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودي التق أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع ، وألا يوقد النار في منزله ، وأن يقضى الساعات عاكفاً على الصلاة في الكنيس ، وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل الساعات عاكفاً على الصلاة في الكنيس ، وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

<sup>(</sup> ه ) أى كلها ذهب إلى المرحاض .

الوافي الممل عما يجوز عمله وما لا يجوز في السبت. ولكن فتاوى الأحمار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها. وكان ما فيها من الدقة يرمى إلى تلمس الأسباب المقنعة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله في يوم الراحة . يضاف إلى هذا أن اليهودى الصالح كان يجد سعادة خفية في المسك بشعائر السيت القديمة : فكان يبدوه بقداس قصير . كان وهو غوط بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التي يجلو فها دعوة الأصدقاء) ، يمسك بيده كأساً مماوءة بالحمر ، يتلو عليها بعض الأدعية ، ثم يشرب بعضها ويناول الكأس لضيوفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخيز ويتاركه ، ويناول الكأس لضيوفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخيز ويتاركه ، ويعطى بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة . ولا يجوز الصوم أو الحزن في السبت .

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح للبود الفرص للاحتفال بالذكريات المقدسة أو للراحة المحببة . فنها عيد الفصح البهودى الذي يبدأ في الرابع عشر من شهر نيسان ( إبربل ) ويستمر ثمانية أيام يحيي فيها ذكرى فرار البهود من مصر : وكانوا في الآيام الأولى من العهد الذي أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الحبز الفطير ، لأن البهود قد فروا ومعهم الحبين الذي يصنعون منه خيزهم دون أن يختمر . وكان هذا العيد يسمى في أيام التلمود عيد المرور ، لأن سهوه وهو يقضى على البكور من أبناء المصريين قد ه مر ٤ بالبيوت التي رش من فيها من البهود دم الحمل على قوائم أبواما (١٣٠٠) . وكان البهود يحتفلون في اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح ( السدري) ، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمعة عنده ، ويقوم معهم بمراسم تذكرهم بأيام موسى البئيسة ، ينقل في خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفي عيد عن طريق الأسئلة والأجوبة القيمة أسابع من عيد الفصح يحتفل البهود في عيد شيوعوت بحصاد القمح وتجلي الله لموسى على الجبل في سيناء . وفي اليوم الأول من شيوعوت بحصاد القمح وتجلي الله لموسى على الجبل في سيناء . وفي اليوم الأول من شيوعوت بحصاد القمح وتجلي الله لموسى على الجبل في سيناء . وفي اليوم الأول من شيوعوت بحصاد القمح وتجلي الله لموسى على الحبل في سيناء . وفي اليوم الأول من

تشرين ـــ وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية ــ وهو يتفق بوجه عام مع الاعتدال الحريثي يحتفل المهود بعيد رآس السنة ، ومهلال الشهر ، وينفخون في قرن الحمل (الشفار أي الصفارة ) إحياء للكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب، واستعجالا لذلك اليوم السعيد حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم . ومن مساء رّأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام. توبة وتكفير عن الذنوب ، وكان أتقياء البهود في هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون ، فإذا جاء اليوم العاشر المسمى يوم. هاكبريم (يوم الغفران ) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يحتذوا نعالاً أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، بلكانوا يقضون النهاركله في الكنيس يصلون ، ويعترفون بدنوبهم ، ويستغفرون لها هي وذنوب بني دينهم ، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبي نفسه . وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكوت أو عيد المظلات. وكان المفروض أن يقضى اليهود هذا العيد في أخصاص إحياء لذكري الحيام التي يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوما الى قضوها في البيداء . ولما وجد اليهود المشتتون صعابًا جمة في الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة ، أظهر أحبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة ( الخيمة ) بأنها كل ما يصبح أن يرمز به للمسكن . وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حُنْكة أو التكريس ، الذي يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابيين ( ١٦٥ ق . م) ، بعد أن دنسه أنتيوخوس إيفانيز Antiochuc Epiphanes ؛ وفى الرابع عشر من آذار ( مارس ) يحتفل اليهود بعيد پوريم الذي 'أنجى فيه موردكى وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسي هامان . وكانوا في ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مرحة يشربون.

فيها الجمر , وفى ذلك يقول ربربا هرRab Rab إن على الإنسان أن يشرب في ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم و ملعون هامان ، و « ملعون موردكى ، (٦٤) .

وليس من حقنا أن نظن أن هو لاء الهود التلموديين قوم مفرطون في التشاوم يحز في نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم ، تتقاذفهم أعاصير العقائد المتباينة ، مهيمون في بيداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم . ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التشتت والظلم ، والندم والفقر ، كانوا يرفعون ووسهم عالية ، وبتذوقون لذة العمل والكفاح في سبيل الحياة ، ويستمتعون يما يتحلى به نساؤهم المثقلات من جمال قصير الأجل وما في الأرض والسماء من جلال مقيم . وفي ذلك يقول كوهبهم ماير : « يجبأن ينطق الإنسان في كل يوم بمائة دعوة صالحة »(١٥) . ويقول كوهن آخر قولا ما أجدرنا كلنا أن نعمل به « إذا مشي إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأطي فيها رأسه أغضب الله ؟ ألم يرد في الكتاب المقدس « مجده ملء كل الأرض ي (٢٠٠).

#### ٣ ــ المبادئ الأخلاقية فى التامود

ليس التامود موسوعة من التاريخ ، والدين ، والشغائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية وحسب ، بل دوفوق هذا كله رسالة في الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة(١٧٠) ، وشئون المال ، والنمرائب ، والملك والرق ، والميراث ، والسرقة ، والمحاكمات القضائية ، والقوانين الجنائية . وإذا شئنا أن نوفي هذا الكتاب حقه من البحث ، كان علينا أولا أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة ، وأن نكتسب منها ما تهيؤه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأى ، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة في الإلمام بأحكام هذا الكتاب في الميادين المختلفة السالفة الذكر.

وأول مانذك هأنالتلمو دأولاوقبل كلشيء قانون أخلاق ، وأنهذا القانون

الأخلاق شديد الاختلاف عن القانون الأخلاق المسيحى وعظيم الشبه بالقانون الإسلامي ، حتى لتكفي نظرة خاطفة إليه لمدحض الرأى السائلة في العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية في تلك العصور . إن الأجيان الثلاثة الكبرى متفقة في أن المبادى الأخلاقية الفطرية - غير الدينية - تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية ؛ وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والحلق القويم إلا عن طريق خوف الله . ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاق على مبادى رئيسية واحدة : أن لله عيناً تبصركل شيء ، وأن الفضيلة تتفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله الحسن من عند الله ، وأن الفضيلة تتفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله الحسن بعد الموت من الثواب والمسيء من العقاب. ولم يكن من المستطاع في الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين ، فلم تكن هذه القوانين بميز التفرقة بين الجريمة والجعليثة ، أو بين الشر والشريعة الكنسية ، بل إن من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته من حالكية والمحالة .

وتتفق الأديان الثلاثة فضلاعن هذا في بعض قواعد الأخلاق: تتفق في حرمة الأسرة والمسكن ، وفيا يحب الآباء وكبار السن من تكريم وإجلال ، وفي حب الأبناء ورعايتهم ، وفي عمل الخبر بلحميع الناس وليس ثمة شعب أكثر من الهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية ، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الآمر وألم ودية كما هو في الإسلام (٢٩٠ ) وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التي يحتمها الدين (٢٩٠)، وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٢٩٣ قاعدة ؛ وفي ذلك يقول أحد المعلمين الهود (٢٠٠٠) و المسلم وإن من لاولد له يعد من الأموات ، ويتفق الهودى، والمسيحى ، والمسلم أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها أوامر الدين التي تقضى بوجوب إنجاب الأبناء . على أن أحبار الهود أباحوا تحديد عدد أفراد الأسرة في

بعض الأحوال ، وينضلون أن تكون السبيل إلى هذا هى منع الحمل ، وفي ذلك يقول بعضهم : « هناك ثلاث طبقات من النساء يجب علمين أن يستعملن الأدوية الماصة : القاصر خشية أن يقضى الحمل على حياتها ، كيلا تكون النتيجة هى الإجهاض ، والمرضع حتى لاتحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الآوان فيموت الطفل »(٧١).

وكان اليهود ، كما كان معاصروهم ، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور ، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذي يحمل اسم أبيه واسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، ويعنى بقيره بعد وفاته ؛ أما البنت فسوف تتزوج فى بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً ، ولا تكاد تتم تربيبها حتى يفقدها أبواها . لكن الآباء متى رزقوا الأبناء ، ذكورا كانوا أو إناثاً ، أعروهم وأدبوهم تأديباً نمزوجاً بالحب وفى ذلك يقول أحد أحبارهم : «إذا كان لابد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حداء ، (۱۷۷) . ويقول آخر وكان لابد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حداء ، (۱۷۷) . ويقول آخر وكان من الواجب على الآباء أن يتخملوا كل تضحية تتطلبا تربية الأبناء أى تنقيف العقل ، وتقويم الحلق بدراسة «الشريعة وأسفار الأنبياء » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : «إن العالم ينجو بنفس تلاميذ المدارس ، (۱۷۷) . فالسُكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى فى وجوههم ، وفى نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحميهما بكل ما فى وسعه وفى جميع الأحوال .

والصدقات من الواجبات التي لا مفر من أدائها وإن « من يتصدق لأعظم من يقدم كل القرابين» (٢٥٠). ولقد كان بعض اليهود أشحاء ، وبعضهم بحلاء إلى أقصى حدود البخل ، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب في هباتهم وتبرعاتهم ، وقد بلغ من سخائهم في هذه الناحية أن اضطر أجبارهم إلى أن ينهوهم عن إعطاء أكثر من خس أموالهم للصدقات ؛ ومنع هذا فقد وجد عند

وفاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم (٢٦). ( لقد كانت تلوح على وجه أبا أومنا على الدوام هالة من الطمأنينة القلمسية ، ذلك بأنه كان جراحا ولكنه لم يكن يرضى أن يمسك بيديه أجراً على عمله ، بل كان له صندوق في ركن حجرة استشارته يستطيع من كان في مقدوره أداء شيء من المال أن يضع فيه ما يرغب في أدائه ... وحتى لا يعترى الحجل من يعجز عن أداء شيء منه ٣(٧٧) . وكان رب هونا « إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى : من كان في حاجة فليدخل ويطعم ٣(٧٨) . وكان شاما بن إلعي Chama ben Elai يطعم الحبز كل من يطلبه ويضع يده في كيس نقوده كلما سار في خارج داره حتى لا يحجم أحدعن سواله (٧٩) . ولكن التلمود كاد يؤنب التظاهر بالبذل ويشير بأن يكون سراً وبقول « إن من يعطى الصدقات سراً أعظم من موسى ٣(٨٠).

ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام الزواج اللذى كان هو والدين الأساس الذى يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها . ولم ينددوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يخشون قوتها وبذلوا جهدهم فى كبح جماحها . فمنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز « ليقل الذى ه (٨١٥)، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المحهد مضافاً إلى دراسة التوراة ؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة « فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، وليلبس سود الثياب ، وليفعل ما تبتغيه نفسه ، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة ه (٨٢١) . وعلى الإنسان أن يبتعد عن كل المواقف التي تثير شهوته ، فلا يكثر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى كل المواقف التي تثير شهوته ، فلا يكثر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى فلف أسد من أن يمشى خلف امرأة ولو كانت زوجته ... وخير للإنسان أن يمشى خلف أسد من أن يمشى خلف امرأة ه (٨٣) وتظهر فكاهة أحبار الهود المهجة مرة أخرى في قصة رب كهنا Reb Kahan .

فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرص لغواية الشيطان ، وأخذ يقاوم طبيعته راجيا أن ينطلق هذه المرة على أن يعود إذا نجا . ولكنه بعدأن تغلب

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألتى بنفسه من فوقه ؛ وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه اليشع وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعائة ميل لكى يحول بينه وبن إهلاك نفسه (١٨٠).

ويلوح أن أحبار الهود يرون أن البكورية لا بأس مها ، ولكن البكورية الدائمة هي بعنها وقف النماء الطبيعي ، ويعتقدون أن كمال المرأة في كمال الأمومة ، كما أن أسمى فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة . وكان من الواجب على كل أب أن يدخر باثنة لكل بنت من بناته ومهرآ يمهر به كل ولله من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتهما . وكانوا يشبرون بالزواج المبكر ــ فى الرابعة عشرة للبنت وفى الثامنة عشرة للولد . وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتي عَشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد فى الثالثة عشرة من عمره . وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت . ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادى قبل أن يقدم على الزواج : «على الرجل أولا أن ينشئ البيت ، ثم يغرس الكرمة ، ثم يتزوج  $^{(\Lambda^0)}$ . - ولكن هذا الرأى هو رأى الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالى المطلوب . وكانوا ينصحون الشاب بألا يختار زوجته لجالها بل لصفاتها التي سوف تجعلها في المستقبل أمرًا صالحة (١٦٠) ، ويقولون « اهبط درجة في اختيار الزوجة » وأرق درجة في اختيار الصديق »(٨٧) ، ومن يختر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقته يدع الناس إلى احتقاره.

وأجاز التلمود ، كما أجاز العهد القديم والقرآن ، تعدد الزوجات ، ومن أقوال أحد الأحبار فى هذا المعنى : « يستطيع الرجل أن يتزوج أى عدد من النساء يشاء » ولكن فقرة ثانية فى مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع ، وتطلب

فقرة ثالثة إلى من يربد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هي الطلاق (٨٨٥). ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التي يطالب الهودي بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ؛ وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب ، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة في الإكثار من النسل في مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات التي قامت في العصور القديمة والعصور الوسطى .

وبعد أن يسر الأحبار للرجل إشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وكان منهم من يقول مع المسيح إن « الإنسان قد يزنى بعينيه » (٨٩٠) ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال : « إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر قد ارتكب إثما في قلبه » (٩٠٠) . ولكن رب أريكا أرق من هؤلاء وأولئك قلبا إذ بقول : « يجد الإنسان في كتاب سيئاته يوم الجشر كل شيء رآه بعينيه وأبى أن يستمتع به (٩١٠) .

وأبيح الطلاق برضا الطرفين ؛ فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق الإبرضاء ، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقهابغير رضاها . وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب ، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيها عشر سنين بعد الزواج (٩٢٠) . ولم تكن مدرسة شماى تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت ، أما مدرسة هلل فقد أباحت الرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها «شيئاً معيباً » ، وكانت الغلبة في أيام التلمود لرأى هلل ، وقد ذهب فيه عقيباً إلى حد بعيد فقال إن «في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، إذا وجد امرأة أخرى أجمل منها «(٩٣) . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أوامر الشريعة المهودية ، بأن مبارت أمام الناس عارية الرأس ، أوغزلت الخيط في الطريق العام ، أو تحدث للى عندف أصناف الناس أو «إذا كانت عليه في المدت أي إذا كانت تتحدث في بينها ويستطيع جرائها سماع ما تقول «(٩٤) ولم يكن عليه في هذه الأحوال في بينها ويستطيع جرائها سماع ما تقول «(٩٤) ولم يكن عليه في هذه الأحوال

أن يرد إليها بائنتها . ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه (٩٠) ، وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها ، أو كان عنينا ، أو أبى أن يؤدى الواجبات الزوجية ، أو لم ينفق عليها النفقة التي تليق بها (٩٠) ، أو كان مشوها أو نتنا (٩٠) . وكان الأحبار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا في سبيله إجراءات قانونية معقدة ، ويفرضون في جميع الأحوال – إلا القليل النادر منها – استيلاء الزوجة على البائنة والمهر ؛ ويقول الحاخام إلى عزر Eleazar ، إن المذبح نفسه ليذرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه » (٩٨) .

وجِملةِ القُول أن قوانين التلمود ، بوجه عام ، من وضع الرجال وأنها لذلك تحابى الذكور محاباة بلغ من قوّتها أن بعثت في نفوس أحبار المهود الفزع من قوة المرأة ، وهم يلومونها ، كما يلومها الآباء المسيحيون ، لأنها أطفأت « روح العالم » بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها . وكانوا يرون أن المرأة « خفيفة العقل » (٩٩٠ ، وإن كانوا يقرون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها في الرجل(١٠٠٠) . وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثرثرة: « لقد نزلت على العالم عشرة مكاييل من الكلام ؛ أخذت المرأة منها تسعة ، وأخذ الرجل واحِداً ، (١٠١) . ونددوا بانهماكها في السحر وما إليه من الفنون الخفية (١٠٢٦) ، وفي الأصباغ والكحل (١٠٣٠) . ولم يكونوا يرون بأساً في أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته ، ولكنهم كانوا يطلبـــون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال(١٠٤) . وفي القضاء ـ على حد قول أحد الأحبار ـ و تعدلُ شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد »(١٠٠) ؛ وكانت حقوق النساء الملــُكية محددة في التلمود بالقدر الذي كانت محددة به في إنجلترا في القرن الثامن عشر كا فحاسبهن وما يؤول إليهن منملك لهنءقالأزواجهن(١٠٦) ، ومكان المرأة هو البيت . ويقول أحد الأحبار المتفائلين إن المرأة في « عصر المسيح الثاني ستلد

طفلاً فى كل يوم »(١٠٧) وإن « الرجل الذى له زوجة خبيثة لن يرى وجه جهنم »(١٠٨) ؛ ويقول عقيبا من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذى له امرأة اشهرت بأعمالها الطيبة (١٠٩٠): ويقول أحد المعلمين اليهود إن « كل شيء يصدر عن المرأة (١١٠) ». وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن كل ما فى البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة ، ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها . . . وليحدر الرجال من أن يكوا المرأة ، فإن الله يعد " دموعها »(١١١) .

فال بن زوما: من هو الحكيم ؟ هو الذي يتعلم من كل إنسان ... من هو القوى ؟ هو الذي يخضع ميوله ( الحبيثة ) ... من يسيطر على رومة خير عمن يستولى على مدينة . من هو الغنى ؟ هو الذي يسر بما قسم له . . . من هو الكريم هو الذي يكرم بني جنسه (١١٢) . . . لا تحتقر إنساناً ولا تحتقر شيئاً ؛ فليس ثمة إنسان كيست له ساعته ، وليس ثمة شيء ليس له مكانه (١١٢) . . لقد نشأت طول عمرى بين الحكماء ، ولقد وجدت أن من العسمة . . . (١١٤) .

وقد اعتاد الكوهن إلـعزر أن يقول: مثل من تزيد أفعاله على حكمته، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها. . . أما من تزد حكمته على أفعاله فمثله كمثل شجرة قلت أغصانها وكثر ت جذورها لو أنرياح العالم كلها هبت عليها لما زحزحها من مكانها (١١٥).

# الفصل لرابع

#### الحياة والشريعة

ليس التلمود من التحف الفنية ، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها في مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتى ماثة حبر من الأحبار الصابرين . وما من شك في أن كثيراً من المقالات قد وضعت في غير موضعها من الكتاب ، وأن عدداً من الفصول قد وضع فى غير المِقالات التي يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ، ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد على غرر قاعدة موضوعة . وليس الكتاب ثمرة تفكر بل هو التفكر نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما تترك النقط المتعارضة دونُ أَنْ تَحُلُ وتفسر . وكأننا قد اجترنا خمسة عشر قرنا من الزمان لننصت إلى نقاش أشد المدارس إخلاصا ونستمع إلى عقيبا ومإير ومهودا هنسيا ورب فى أثناء جدلهم العنيف . وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون ، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألفاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها فى نصوص لم تكن معدة لها ، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال ، إذ ذكرنا هذا استطعنا أن نعفو عما نجده في هذه الأقوال من جدل ، وسفسطة ، وأقاصيص غير صادقة ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، ومعجزات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحي ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجا مهلهلا من الخيالات والأوهام ، والغرور الذي يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آمالهم الضائعة .

وإذا ما اشمأزت نفوسنا من قسوة هذه القوانين، ومن دقة هذه النظم و تدخلها فيما لا يصبح أن تتدخل فيه ، وما يجازى به من يخرقها من شدة وبطش، فإن من واجبنا ألا نحمل هذه المسألة محمل الجد ، ذلك أن البهود لم يدعوا قط أنهم بطيعون

هذه الوصايا كلها ، وأن أحبارهم كانوا يغضون أبصارهم عما يجدونه في كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التي تدعو إلى الكمال ، وبين ما في الطبيعة البشرية من ضعف خفي . وفي ذلك يقول أحد الأحبار الحذرين : « لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبت واحد لجاء ابن داود من فوره »(١١٦) . ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلا ، بل كان سجلا لآراء الأحبار ، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التي على مهل ، ولم تطع الجاهير غير المثقفة إلا قلة فيتارة من الأوامر التي جاءت مها الشريعة .

وبهتم التلمود اهتماما كبيراً بالشعائر الدينية ، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد ُ فعل من الهود لما بذلة الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلي عن شريعتهم . ولقــــــــ كانت هذه الشعائر سمة تميزهم ، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم ، وشعارا يتحدون به عالما لا يعفو قط عنهم . وإنا لنجد في مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقد على المسيحية ، ولكنها جقد على مسيحية نسيت رقة المسيح وظرفه ، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها ، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حادَت عن مبدإ التوحيد جوهر الدين القويم وأساسه الذي لا يتبدل . وإنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة ، وهذا الجدل الشائلك الطويل ، مثات من النصائح السديدة ، والبصيرة النفسانية ، تتخللها في بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب ألعهد القديم أو الحنان الصوفى . الذي تراه في العهد الجديد . وإن ما يمتاز به اليهودي من فكاهة شاذة ما يقوله أحد أحبارهم من أن موسى دخل متخفيا إلى الحجرة التي يلتى فيها عقيبًا دروسه ، وجلس في الصف الأخير ، ودهش من كثرة القوانين التي استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتي لم يحلم بها قط كاتها(١١٧) .

ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أسامن التربية المهودية وجوهرها . وكان الشاب العبرانى ينكب عليه سبع ساعات فى كل يوم مدى سبع سنين ، يتلوه ويثبته في ذاكرته بلسانه وعينه ؛ وكان هو الذي يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق ، وبما يستقر في عقولهم من معرفة ، شأنه في هذا شأن كتاباتكنفوشيوس التيكان يستظهرها الصينيون كما يستظهر الهود التلمود . ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره ، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ ، وبن التلميذ والتلميذ ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف. وقد أفادت هذه الطريقة حدة في الذهن ، وتقوية للذاكرة ، وتثبيتاً للمعلومات ، ميزت اليهودى من غيره فى كثير من الميادين التى تتطلب الوضوح ، وتركيز اللـهن ، والمثابرة ، واللـقة ، وإن كانت في الوقت نفسه قد عملت على تضييق أفق العقل اليهودى والحد من حريته . ولقد روض التلمود طبيعة الهودى الثائرة المهتاجة ، وكبح جماح نزعته الفردية ، وبث فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته ؛ ولربماكان « نير الشريعة ، عبثاً ثقيلًا على ذوى العقول السامية الكبيرة ، ولكنها كانت السبب فى نجاة المهود بوجه عام .

وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس في ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذي أبقي على شعب مطرود ، معدم ، مظلوم ، يتهدده خطر التفكك التام . ولقد فعل أحبار اليهود في تشتهم الواسع ما فعله أنبياؤهم للاحتفاظ بالروح اليهودية في الأسر البابلي . فقد كان لا يد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبرياءهم ، وأن يعملوا على أن يستقر بينهم النظام ، ويثبتوا في قلوبهم الإيمان ، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة ، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتهما

المحن الطوال(١١٨) . وبفضل هذا التأديب الشاق ، وعرس أصول التقاليد المهودية في صدر المهودي بعد اقتلاعها ، عاد الاستقرار وعادت الوحدة ، عن طريق التجوال في أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال : ولقد كان التلمود على حد قول هيني Heine وطناً متنقلا للهود يحملونه معهم أينًا ساروا . فحيثًا وجد اليهود ، حتى وهم جالية واجفة فى أرض الغربة ، كانَ في وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى في عالمهم ، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم ، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة . قلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذي نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مماكتبه مائة كاتب من أمثال منتاني Montaigne . ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله ، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحب يصل إلى درجة الجنون ، وكانوا يتبادلون قراءة نتف من هذا المخطوط الضخم ، وأنفقوا فى القرون المتأخرة أموالا طائلة لطبعه كاملا ، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات، والمجالس النيابية تحرم تلاوته، أو تصادره، أو تحرقه؛ وابتهجوا حنن رأوا روشلين Reuchlin وإرزمس Erasmus يدافعان عنه ، وعدوه فى أيامنا هذه أثمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم ، واتخذوه ملجأ وسلوى ، وسجناً للروح البهودية .

# الباب إسادسع شر

### يهودالعصور الوسطى

14.. - 070

## الفضيل الأوّلُ

#### المجتمعات الشرقية

كان للبود وقتئد شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ١٦٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٢٧٩ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفي ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم البود إلى المسلمين في الدفاع عنها ، فلما سقطت في أيدى الصايبيين سيق من بتى فها حياً من البود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن الصايبيين سيق من بتى فها حياً من البود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن اخرهم (١) ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع في عدد البود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثما ثة من أحبارهم اللين فروا من إنجلترا وفرنسا في عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نجان لم يجد فيها بعد خمسن عاماً من ذلك الوقت إلاحفنة صغيرة من البهود (٢) ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهودكثيرى العدد في سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه في بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام. وأضحت لهم في ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية. ولقد ظلوا في شئونهم الداخلية،

كما كانوا في عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتى تحت إشراف الإجزيلارك ( رئيس اليهود في المهجر) ومديرى المجامع الدينية . واعترف الحلفاء المسلمون بالإجزيلارك في كل من بلاد بابل ، وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلي إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين في حضرة أمير الأسر ، وأن يحيوه باحترام »(٣) . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً في أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو المجامع العلمية بعد عام ٧٦٧ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية في سورا Sura و عيديثا Pumbeditha تخرج الزعاء الدينين والعقلين البهود في بلاد الإسلام، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل المهود في البلاد المسيحية . وحدث في عام ١٥٨ أن أخرج الحليفة عجمع سورا العلمي من اختصاص الإجزيلارك القانوني ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاوئ Qaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاونية ، وعهد الجاونيم في الدين والعلم البابلين (٤) . ولما ازدادت موارد كلية عهدينا وعظمت منزلها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاوئ ؛ وكاد البهود في جميع أنحاء العالم فيا بين القرن السابع إلى القرن الحادي عشر يستفتون الجاوئيم في المدينتين فيا يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ للهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانوني جديد .

وحدث فى الوقت الذى قامت فيه الجاوئية انشقاق دينى فرق العالم اليهودى فى الشرق وزازلت له أركائه ــ أو لعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاوئية فى ذلك الوقت. ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عنن بن داود بحقه فى أن يخلفه فى منصبه ، ولكن زعماء سورا و يمبديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حنانيا أخاعن الأصغر إجزلاركا في مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن في الجاوُّنين ، وفر إلى فلسطين وأنشأ فها كنيسا خاصا به ، وطالب المهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا اللا قوانين أسفار موسى الحمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذي كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شبها بما ينادي به بعض الشيعة في الإسلام من نبذ « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ، وما يطالب به الىروتستنت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل . على أن عن لم يكتف سدا بل أحد يعيد النظر في أسفار موسى الحمسة ويشرحها شرحا يعد خطوة جريثة فى سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل فى الشريعة الموسوية وما يحاواونه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبهن الظروف القائمة في أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء في الأسفار الحمسة من أوامر وتىفىدها بنصها ، ولهذا سمى أتباعه بالقرائين(\*\*) \_ أى « المتمسكين بالنصوص » وامتدح عنن عيسي وقال إنه رجل صالح لم يرغب في نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب فى وضع دين جديد ، بل كان يرغب في تطهر الدين الهودي وتدعيمه (°) . وكثر الهود القراءون فى فلسطىن ، ومصر ، وأسپانيا ، ثم نقص فى القرن الثانى عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة في الانقراض في تركيا وجنوبي الروسيا ؛ وبلاد العرب . ونبذ القراءون في القرن التاسع ماكان ينادي به عنن من تفسير حرفى لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء فى الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سببل الحجاز ، ولعلهم في قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة المسلمين .

<sup>( ﴿ )</sup> من اللفظ الأرامي قرا أي النص وهذا اللفظ نفيه مشتق من قرأ ، ومنه أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله » يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيق ، بل إن بعضهم قد تغالى فى هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته (٢٠٠٠ . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبى البلخى Chivi al Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الحمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة (٢٠٠٠ . فى هذه البيئة التى تمتاز بالرخاء الاقتصادى ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت فى العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف في قرية من قرى الفيوم في عام ٨٩٢ . وشب فى مصر وتزوح فنها ثم هاجر منها إلى فلسطين فى عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل. وما من شك في أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب في السادسة والثلاثين من عمره جاؤنا أي مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع فى الدين اليهودى القدم ، فآلى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامي ــ فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الاتفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا فى حياته القصيرة التى لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات ــ معظمها ــ لا يماثلها في سجل التفكير الهودي في العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجرون » وهو معجم آرامى للغة العبرية يعد أساسا للفلسفة العبرية ؛ ومنها ﴿ كتابِ اللغة ﴾ وهو أقدم ما عرف من كتب في نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التي يستخدمها جمبع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس في جميع العصور (٨) » ؛ ويغد « كتاب الأمانات والاعتقادات؛ (٩٣٣) أعظم رد فى الديناليهودى على الحارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحى والتواتر معاً أى بالشريعة المكتوبة وغبر المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحى والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحا مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل في شيء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لايثاب عليها دائمًا في هذه الحياة ؛ ومن ثم لابد أن تكون هناك حياة أخرى تعوّض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين في هــــذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبوه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقو ون بأحسن الأعمال الصالحة في هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالا خبراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذي اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال في النفس إذا لم يشأ أن تتحقق ؟(٧) ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم في الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم في بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه في جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختني من الوجود ١٠٠٪ .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلا فظا إلى حدما ، وأن نزاعه مع الإجز يلارك داود بن زكاى قد أضر بهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود في عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود . ولكن ولما مات داود في عام ٩٤٠ نصب سعديا إجزيلاركا جديداً ، ولكن المسلمين قتلوا هذا الإجزيلارك لأنه طعن في النبي محمد . فما كان من سعديا إلا أن عين ابن القتيل خلفاً ، وقتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر البهود بعد أن فت في عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ، وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذي دام سبعة قرون . وكان تفكك الحلافة العباسية في بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة في مصر ، وشمالي أويقية ، وأسپانيا سبباً في ضعف الروابط بين يهود آسية وأفريقية وأوربا وأصبب يهود ربابل بما أصيب به الإسلام في الشرق من ضعف اقتصادي وأصب يهود ربابل بما أصيب به الإسلام في الشرق من ضعف اقتصادي وحدت حلوها عبدينا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاوئية في عام ١٠٢٠ بعد القرن العاشر الميلادي ، فأغلقت كلية سورا أبوابها في عام ١٠٢٠ وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما خرب المغول بغداد في عام ١٠٢٨ كادت الحالية اليهودية البابلية أن تختني من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من بهود الشرق قلد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى أقاصى آسية الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمالى أفريقية وأوربا ؛ فكان في سيلان ، ، و٣٠٠ عبرانى في عام ١١٦٥ (١١) ، وبقيت في بلاد العرب عدة جاليات بهودية بعد أيام النبي ؛ ولما فتح عمرو بن العاص مصر في عام ١٤٦ كتب إلى الحليفة يقول إن في الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود «أهل الذمة». ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان بهود مصر وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية في حكومات الدول الإسلامية (١٢) . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من بارى Bari في إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الألدلسين المسلمين أسرسفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع الحبر موسى واينه حنوخ فى قرطبة ، وبيع سحرية فى الإسكندرية ، وبيع الحبر هوسيل فى القيروان : ثم أعتق كل واحد من هوالاء الأحبار ، كما تقول الرواية ، وأنشأ فى المدينة التى بيع فيها مجمعاً علمياً . والشائع على الألسنة ، وإن لم يكن هذا مو كداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم فقد نقلوا العلم من بهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينا كانت البهودية فى آسية تخذة فى الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها فى مصروأسهانيا .

# الفصل لثاني

### الجهاعات الهودية فى أوربا

اتخذ الهود طريقهم إلى بلاد الروسيا فى العصورالوسطىمن بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود في تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النَّكد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر. وكان في بلاد اليونان جماعات بهودية كبىرة وبخاصة فى طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظبمة . وهاجر اليهود شمالا إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحازاة نهرالدانوب إلى بلاد المجر. وجاءت حفنة من التجار العبر انيين.من ألمانيا إلى پولندة فى القرن العاشر لأن اليهود كانوا فى ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان في متز Metz ، واسهير Speyer ، ومينز Mainz ، وورمز Worms ، واسترسبورج Strassbourg ، وفرنكفورت . Fraokfort ، وكولونى جاليات بهودية كبيرة فى القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير فى تاريخ اليهود الثقافى . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا ( ٩٦٠ – ١٠٢٧ ) مجمعاً علمياً للأحبار في مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيها يعرض لهم من مسائل فى شريعة التلمود بدل أن يستفتوا فى ذلك جأونهم بابل .

وكان في إنجلترا يهود في عام ٦٩١ (١٣) ، وجاء إليهم عدد آخركبير منهم مع وكان في إنجلترا يهود في عام ٧٩١ (١٣) ، وبسط عليهم النور مان الفاتحون في أول الأمر حابتهم لما كانوا يمدونهم به من رءوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد. وكانت جماعاتهم المقيمة فى لندن ، ونورتش Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاة الأمور المحليين فى شئونها القانونية ، فكانت لاتخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة التمضائية الهوة بين المسيحيين والمهود ، وكانت سبباً من أسباب المدابح المدبرة التى حدثت فى القرن الثانى عشر .

وكان فى غالة تجار بهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام٠٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة ؛ واضطهدهم الملوك المروڤنجيون بوحشية ، وأمرهم كلىريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحي على بكرة أبيهم وإلا فقأ أعينهم (٨١٥) (١٠٠) ؛ أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعا ، وصناعا ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار بهوديا ليكون طبيبه الحاص ، وإن كان قد أبقي على القوانين الني تحرم اليهود من بعض الحتموق التي يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحبها إنه استقدم في عام ٧٨٧ أسرة قلونيموسKalo ıyn os من لكا Lucea إلى مينز ليشجع الدراسات المهودية في دول الفرنجة ، ثم أرسل فى عام ٧٩٧ بهوٰديا مترجماً أو مفسراً مع يعثة سياسية. إلى هارون الرشيد . وكان لويس التي Louis the Pious عيل إلى المهود لعملهم في تنشيط التجارة ؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ؛ واستمتع البهود في فرنسا فى القرنين التاسع والعاشر يقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتَّموا به بعدثـذ قبل أيام الثورة الفرنسية ؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، ومايفرض علمهمن القيود القانونية، ومايصيهم أحياناً من الاضطهاد القليل (١٥٠). وكانت في إبطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات مهودية منتشرة من ترانى Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرين فى بدوا بنوع خاص ، ولعلهم كان لهم أثر في نشر فلسفة ابن رشد في جامعتها . وكان في سالرنو Salerno ، حيث أنشئت في البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب في العصور الوسطى ، سيائة يهودى (١٦٥) . منهم عدد من مشهورى الأطباء . وكان فى بلاط فردريك الثانى فى فجيا Foggia طائفة من العلماء البهود ، وعين البابا الكسندر الثالث ( ١١٥٩ – ١١٨١) عدداً من اليهود فى المناصب الكبرى فى بيته (١١٠) ، ولكن فردريك اشرك مع البابا جريجورى التاسع فى اتخاذ إجراءات ظالمة ضد بهود إيطاليا .

وكان بهود أسپانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون بأصولهم إلى قبيلة بهوذا الملكية (على اعتنق الملك ريكارد Recared اللدين المسيحى الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء أتباع الكنيسة الأسپانية في مضايقة البهود وتنغيص حياتهم عليهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء أرقاء مسيحين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع البهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذي خلفه على العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذي عقد في عام ٦٣٣ أصدر قراراً ينص على أن البهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين البهودي يجب أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أزقاء . وأعاد الملك شغيلا Chimila على العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ؛ وحرم الملك إجيكا Egica على البهود المتلاك الأراضي كما حرم كل عمل مالي وتجاري بين أي مسيحي ويهودي المتلاك الأراضي كما حرم كل عمل مالي وتجاري بين أي مسيحي ويهودي فاتحين في كل خطوة من خطوات الفتح .

<sup>( \*)</sup> يطلق اسم سفرد Sepharad في سفر عبدية (الكتاب الأول الفصل ٢٠) على. إقليم ( لعله آسية الصنرى ) فقل إليه الملك نايوخذ نصر ( ٧٩٥ ق . م ) بعض اليهود ، ثم. أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسهانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دتيقة أشكنازيم لا نتسابهم المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح ( سفو التكوين ، الأصحاح الغاشر ، الآية ٣ ) .

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية (١٨) ، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود في أسپانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا في جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العامة والأثواب الحريرية الفضفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بتى عمومتهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء في بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هوالاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط ( ٩١٥ – ٩٧٠ ) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ماكانه نظام الملك في القرن التالى لملك شاه . وقد ولد حسداى في أسرة ابن عزرا المثرية المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية ، والعربية ، والعربية ، واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم في قرطبة ، وداوى الحليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة في الأمور السياسية ما جعل الحليفة يعينه في الهيئة الديلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الحامسة والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة في حياة الدولة الممالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن الخليفة تردد في منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ، والمسيحين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلاثمن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ المالية والكتب بلاثمن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ فلما مات تنافس المسلمون والمهود في تكريم ذكراه .

وكان ثمة رجال غيره في أنحاء أخرى من أسپانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففي أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم والفلكي، ومنحه لقب أمر ، وجعله حاخاماً أكبر لكل المحامع البهودية فيها(١٩) ؛ وفي غرناطة نافس شمويل هلوى ابن نجـــدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسدای ابن شبروط فی سلطانه وحکمته وفاقه فی علمه . وقد ولد شمویل في قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربي ، وجمع بين هذين وبين الاتجار في التوابل . ولما أن سقطت قرطبة في أيدى العربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخظ وحسن الأسلوب فزار شمويل ، وصحبتَه إلى غرناطة ، وأسكنه في قصر الحمراء ، وجعله أمن سره . وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشيء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به<sup>(۲۰)</sup> . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل ، وبذلك أصبح شمويل فى عام ١٠٢٧ الهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير فى دولة إسلامية وحظى صِدًا اللقب . ومما يسرهذا الأمر فى غرناطة أكثر منه فيأى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة في القرن الحادي عشر كانوا يهودآلا٢٠) . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت في عهد شمويل من النواحي المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو ل نفسه عالماً ، وشاعراً ، ونابغة في الفُّلك ، والرياضة ، واللغات، يعرف سبعاً منها ؛ وقد ألَّف عشرين رسالة في النحو (معظمها بالعبرية ) وعدة مجلدات في الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود، ومجموعة من الأدبالعبرى. وكان يقتسم ماله مع غىره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبىرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب، وأعان الجهاعات البهودية فى قار ات ثلاث. وكان وهو وزير الملك حاخاءاً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنو ملته ــ اعترافاً منهم

بفضله – بالنجيد – الأمير ( في إسرائيل ) . ولما توفى عام ١٠٥٥ خلفه في الوزارة ، والنجادة ابنه يُوسف بن نجدلا .

وكانت هذه القرون الثلاثة ــ العاشر ، والحادى عشر ، والثانى عشر ــ هى العصر الذهبي ليهود أسپانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبرى الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك ( المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من بارى ) من الأسر في قرطبة ، أنشأ فيها بمعونة حسداى مجمعاً علميا ، ما لبث أن أضبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله في أليسانه ، وطليطاة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ؟ وبينا كادت المدارس البهودية في الشرق تقصر نشاطها على التعلم الديني ، كانت هذه المدارس الأسپانية تعليم فيا تعليمه الأدب ، والموسيق ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة(٢١) . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسيانيا فى ذلك الوقت سعة وعمقاً فى الثقافة والظرف لم ينلهما إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسربل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسي بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر(٢٠) . ونشأت في ذلك الوقت آرستقراطية يهودية تزدان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت في الاعتداد بتفوقها على غبرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

و يمكننا أن نوئرخ بداية تدهور يهود أسپانيا من سقوط يوسف بن نجدلا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد — ونصفهم من المسلمين الأندلسيين — يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها في يده ، وتشبه بالملك في لباسه ، وسخر من القرآن . وتحدث الناس بأنه لا يومن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر في عام ١٠٦٦ وصلبوا يوسف ، وذبحوا أربعة آلاف من بهرد غرناطة ، وبهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من البهود على بيع أراضهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحاسة الدينية ومتمسكين بأصول السنة ، وانهى بقدومهم عصر أسپانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن البهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خسيائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر في ذلك الوقت مسيحهم المنقد المنتظر ، وأن هذه الأعوام الحسيائة تنهى بالحساب الهجرى في عام ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة (٢٣٠) . ولما خلف الموحدون المرابطين في حكم مراكش وبلاد الاندلس الإسلام ، خيروا البهود والمسيحيين كما خير الملك سيز بوت البهود قبل خميائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن ديبهم أو الحروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من البود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالي أسپانيا .

وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه منى أربعة قرون تحت حكم المسلمين. وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكا قشتاله (الأذفونش) معاملة اليهود، وجعلاهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) في طليطلة، حيث كان ٥٠٠٠٧ يهودى، قمعها بصرامة (٢١). وحدث في أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين، الأم والابنة، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك چيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة، وقطلونية، وبلنسية، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن (٢٥). وكانت لهم في برشلونة السيطرة على التجارة في الرضين من غير ثمن هما كان لهم نصف أراضها الزراعية (٢١). نعم إن يهود القرن الثاني عشر، كما كان لهم نصف أراضها الزراعية (٢٠٠٠). نعم إن يهود

أسهانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال في شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا في الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال في بناء المعابد اليهودية (٢٧) ، وكان في وسع الإنسان أن يجد بين عامى بالمال في بناء المعابد اليهودية (٢٧) ، وكان في وسع الإنسان أن يجد بين عامى المال في بناء المعابد اليهودية (٢٧) ، وكان ألمناصب الكبرى في دول أسهانيا المسيحية منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً (٢٨) . واشترك رجال الدين المسيحيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في هذه الألفة المسيحية (٢٩).

وكانت بداية عدم التسامح الديني بن الهود أنفسهم . ذلك أن بهودا أبن عزرا المتولى شئون قصر ألفنسو السابع ملك ليون وقتشالة وجه فى عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكه ضد اليهود القرائين في طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقنتذ ، ولكن اليهود القرائين الأسيان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (٣٠) . و دخل بعض الصليبين أسانيا في عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ؛ وكابوا في أغلب الأحوال يحسنون معاملة البهود ؛ ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود. طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم(٢١) ؛ وأدخل ألفنسو العاشر ملك ةشتالة بعض المواد المجحفة بالمهود في قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ؛ وكان ألفنسو في ذلك الوقت يستخدم طبيباً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجه المسلمين ليجعلوها معابد لهم (٣٢٦) ، واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حُكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وعمدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثارأعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطر الملك

إلى إقصاء أعوانه البهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتير Cortes ) بألاً يعين بعد ذلك الوقت أى بهودى فى المناصب الحكومية .

وكانت خائمة عهد النسامح الديني حين أصدر مجلس زمورا Zamora الديني (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدم مسيحيون ٢٦٠) .

# الفيرل لثالث

### الحياة اليهودية فى البلاد المسيحية

### ١ - الحسكومة

لم تحتم المدن المسيحية في العصور الوسطى ـ إذا استثنينا پالرم وقليلا ن المدن الأسپانية ـ أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا في العادة يعيشون في عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهلين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامهم الحسمية ووحدتهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحي اليهودي الجغرافي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدهت المساكن حوله ازدهاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدهام بالصحة العامة والحاصة . وكانت الأحياء اليهودية في أسپانيا نحتوي على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوي على أكواخ قذرة ، أما في غيرها من ابلاد أوربا فكادت المساكن أن تكون أحياء قذرة وبيئة مزدهمة بالسكان (٢٤).

وكانت الجهاعات اليهودية طوائف منعزلة شبه دمقراطية وسط عالم. ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر في الانتخابات وفي الاختيار للوظائف في جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجهاعات اليهودية يختارون أحبار الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبلو المنتخبين تكون بيث الدبي أو المحكمة الشعبية ؛ وهده المحكمة هي الني كانت تجبي الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، المحكمة هي الني كانت تجبي الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الحاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هده القرارات تطاع على اللوام . وكان من حقها الهوام .

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودى من اليهود أنفسهم ، وكان لما موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التى توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الديني أو الذي ، وقلم كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التى توقعها ؛ وكانت الحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر في احتفال فخم مرعب توجة فيه النهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحي . وكان اليهود يسرفون في استخدام الحرمان ، كما كان يفرط فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان روساء اليهود الدينيون — كما كان روساء الكنيسة المسيحيون — كما كان روساء الكنيسة المسيحيون — كما كان روساء ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرمونهم في حالات نادرة (٢٥٠).

ولم تكن الجاعات اليهودية في الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك ، تؤدى إليه المال بسخاء لتبتاع ،نه الميتاق الذي يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيا بعد تؤدى المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتي بشؤنهم الداخلية . يلا أن اليهود مع ذلك ، كانوا يخضعون لقرانين الدولة ، وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة ، وقد ورد في التلمود أن هانون البلد شريعة »(٢٦) ، وتقول إحدى فقراته : « صاوا لسلامة الحكومة ، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً »(٢٧) .

وكانت الدولة تجى من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الروءس ، وعوائد الأملاك ، وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ ،ن قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والحمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ، فضلا عن التبر عات «الاختيارية» للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتوبج الملوك ، أو «مقدمهم» أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم في القان الثاني عشر إ ٪ في المائة من السكان

يوُّدُونَ للدُولَةِ ٨٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن (٢٨) . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعدة اليهود المضطهدين في فلسطين . وكان الملك في أي وقت من الأوقات يصادر أملاك «يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهي العهد الذي قطعه بحاية البهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ في بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود فى الدولة<sup>(٣٩)</sup> . من ذلك مافعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجریف برندنبرج Margrave of Brander burg فی عام ۱٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألماني جديد « يجوز له ، عملا بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقد حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم »(٤٠) ولقد لخص براكن Bracton كبر المشترعين اليهود في القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : ﴿ لَيْسَ مَنْ حَقَّ الْبُهُودَى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل الميلك الأ(1).

#### ٢ ـ الشئون الاقتصادية

وكانت هناك فضلاعن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا في أوقات مختلفة في العصور الوسطى بمتلكون أراضى واسعة في بلاد الأندلس الإسلامية وأسپانيا المسيحية ، وفي صقلية ، وسيليزيا ، وپولندة ،

وإنجلترا ، وفرنسا(٢٤) ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمرآ غبر ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستثجار غمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة البهودية تحرم على البهودى أن يعمل في يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل في يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة في سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الاقتصادى لأن هذه المنزلة تتطاب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح(٢٦٠) . ولما حكم القوط الغربيون أسيانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأمم » الملك إچيكا جميع أملاك اليهود التي كانت ملكا للمسيحيين في أى وقت من الأوقات ، وفي عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز في بلد الوليد بيع الأراضي لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود في كل وقت من الأوقات من احمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأرضين أو العيش في الريف. كل هذه الصعاب ثبطت همة البهود في الاشتغال باازراعة ومالب بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل في الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشطالهود فى الشرق الأدنى وجنوبى أوربا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الراقى من بلادالإسلام إلى بيز نطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela مثات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ واشتهر اليهود فى مصروبلاد

اليونان بجهال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها ، وكان فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر لا بعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة فى صقلية ، وكان اليهود فى تلك الجريرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية وبخاصة فى الصباغة وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنوول إلى عام ، ١٢٩ (١٤٤) . وانتظم الصناع العبرانيون فى أوربا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوربا الشهالية فقد احتكرت طوائف الرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة فى إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ، ورحدائين ، وطحانين ، وخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والدقيق ، والزبد ، والزيت فى الأسواق (١٩٠٠) ، وابتياع مساكن لأنفسهم فى أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ البهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم التلمودى البابلى ، قد وضع لبنى ملته شعارا يدل على ثاقب فكره : « تاجر عائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغللت هذا القدر نفسه فى الزراعة فاكبر ما تحصل عليه هو الحبز والملح ه (٢٦) . وكان البائع البهودى الجائل معروفا فى كل مدينة وبلدة ، والتاجر البهودى معروفا فى كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملا تخصصوا فيه ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أهمالم ، وقوافلهم ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أهمالم ، وقوافلهم ، وكانوا فى معظم وسفائهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا فى معظم الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد المسيحية والإسلام ، وبين أوربا وآسية ، وبين الصقالية والدول الغربية ؛ المسيحية والإسلام ، وبين أوربا وآسية ، وبين الصقالية والدول الغربية ؛ وكانوا هم القائمين بمعطم تجارة الرقيق (٤٠٠) ؛ وكان يعينهم على النجاح فى التجارة مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجاعات البهودية البعيدة بعضها عن بعض على مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجاعات البهودية البعيدة بعضها عن بعض على مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجاعات البهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات البهود وقوانينهم ، واستضافة الحي. المهودى فى كل مدينة لأى مهودى غريب. ولهذا استطاع بنيامين التطيلي أنَّ يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينها حل موطنا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البربد في الدولة العباسية عام ٨٧٠ في كتابه المسالك والممالك عن التجار المهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسپانية ، والصقلبية ، ويصف المسالك الربة والبحرية التي. ينتقلون بها من أسپانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصن (١٨) . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحربر المطرز ، والفراء : والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية(٩٩) . ثم كان استيلاء الصليبين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطالين منزة على البهود ، وقضى فى القرن الحادى. عشر على زعامة الهود النجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك. إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية The Hansatic League موانبها الواقعة على بحر الشهال والبحر البلطى فى وجه التجارة المهودية (٥٠٠) ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحى الجزء الأكبر من التجارة المهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى في هذا الحجال الضيق نحددها الةوانين. التي تحرم على المود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع(٥١) .

ينة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجهاهير أملاكهم الثابتة . أو أن يصادرها الملوك الجشعون ، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ؛ فعمدوا أولا إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلتى المال لاستثاره في التجارة ، ثم إلى إفراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى(٥٢) والتلمود(٢٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرمه بين اليهودى وغير اليهودى. ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل ، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحا نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة ، أخذ المود يقرض بعضهم بعضا المال عن طريق وسيط مسيحي (٥٠) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكا موصيا (\*) في المشروع وأرباحه ــ وهي وسيلة أجازها أحبار اليهود ، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين(٢٥٠) . وإذ كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا ، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادرى الوجود قبل القرن الثالث عشر ، فإن المقترضين المسلمين والمسيحين – ومنهم رجال الدين المسيحيون ، والكنائس والأديرة (٢٥) ـ كان هؤلاء المقترضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال . وحسبنا دليلا على هذا أن هارون اللنكلني Aaron of Lincoln هو الذي قدم ما يازم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian ، وبناء دير سانت أولبنز Albans نامظم . ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان في القرن الثالث عشر ، واستعانوا . بالوسائل التي أوجدها وسار عليها اليهود ، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم ` الثراء واتساع نطاق الأعمال . « ولم يكن المرابى المسيحي أقل صرامة » من : مياه اليهودى ﴿ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أُولِهَا فَى حَاجَةً إِلَى حَايَةً نَفْسُهُ بِالْقَدْرِ الَّذِي يحتاجه الثانى من خطر القتل والسلب والنهب »(٨٠) فكان كلاهما يشدد النكبر على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة ، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة .

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة ، وكان اليهود منهم يتعرضون منحين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها . وقد سار الملوك على سنة

<sup>(</sup> و ) الشريك الموصى دو الذى يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح ، ويسميه أهل الريف فى مصر الشريك المرفوع . (المترجم)

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رِبًّا فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة في سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكي يسمحوا له بالحصول على ما ماله (٥٩). وحدث فى عام ١١٩٨ حين كانت أوربا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوست الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التي يطالب بها اليهود مدينيهم المسيحيين (٢٠٠) : وأعنى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكى . « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه »(٦١) . وكان مُلوك الإنجليز في بعض الظروف يصدرون خطابات إعفاء ــ يالغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما ــ لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدوّنوا في سجلاتهم المبالغ الني حصلوا عليها نظير وساطتهم فى هذا البر بالإنسانية(٦٢٪) . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاتد على قرض ، وأنشأت . ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه الفقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودى عن أداء الضرائب أو المطاب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأنذرت مدينيه بأن يؤدوا إليها هي لا إليه ما عليهم من الديون (٦٣) . ولما أن فرض هنري الثاني علَى سكان إنجلترا ضريبة خاصة في عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرها ، وبذلك أدى البمود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها(٢٩). وكان اليهود في بعض الأحيانُ « هم الذين يمولون المملكة »(٢١٠ . وأمر الملك يوحنا في عام ١٢١٠ أن يزجّ فى السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم ـــ رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا – ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٢٠٠٠ مارك(٢٧).

وعد ّب الذين ظنوا أنهم لم يبوحوا يكل ما كان لديهم من أموال مكتورّة يأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقروا بحقيقة مدخراتهم(٣٧) . وفي عام ١٢٣٠ أنهم هنرى الثالث البهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن يعضهم قمد فعل ذلك حقاً ) ، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت في عام ١٧٣١ ، وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من البهود ٢٠٠٠٠ مارك فضى ، ثم انتزع منهم في عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك (\*) - وهو مبلغ يوازي مجموع إيرادات التاج اله أيطانى السنوية . ولما أن استدان هنرى الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كه رنوول رهن له جميع يهود إنجلترا ضهاناً لدينه (١٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامى ١٢٥٧ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من الْيَأْسُ لَمْ يَرُوا مَعُهَا بِدَا مِن أَنْ يُطلِّبُوا أَنْ يُؤْذُنْ لَمْ يَمْعَادِرَةَ إِنْجِلْتُرا جَمَّلَةً ، ولكن طلبهم هذا لم ياق قبولا(٢٦) . وحرم إدورد الأول في عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم ينقطع رغم هذا التحريم ، وإذ كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدورد بالقبض على جميع الهود ومصادرة جميع أملاكهم ؟ وقبض كذلك على كثيرين من المرابن المسيحين وشنق ثلاثة منهم . أما المهود فإن مائتين وتمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثتهم في شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخز منهم في المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة(٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود فى الفترات القلقة التى تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ؛ فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكيرى ، والأديرة ،

<sup>(</sup> به ) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعدل قيمته في هذه الأيام خمسين مرة ( ٤٠ر٨ دولار أمريكي ) .

<sup>(</sup> t the - 4 = - 0)

بل شادوا لأنف بهم فوق ذلك بوتاً فخمة ، فكانت الك البيوت في إنجلترا من أول ما بني من البيوت بالحجارة . وكان بين البهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول إلعزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله – النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء » (١٧) . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يو كدون ما على الجاعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ؛ نعم إنهم لم ينددوا بالغني ، واكنهم أفلحوا في رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ؛ ووسموا الاحتكار والاثنار على التحكم في الأسعار بميسم الحطايا(٢٧) ، وحرموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الجملة (٢٧) ؛ وكانوا يرانبون الموازين والمقاييس ، ويحدون أقصى الأثمان وأقل الأجور ؛ لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن شخصية الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم في البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب في السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول عليم التشريعات .

#### ٣ \_ الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثر الهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الشاء من واجبات اجتماعية ، ولعلهم أيضاً قدخافوا ثورة الفقراء أو لعنهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش في بيئة يهودية (٧٠٠) . ومن بداية القرن الثانى المسيحى كان مشرفون رسميون يفرضون فى فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتلب بشىء من ماله ولمصندوق العشيرة الذى يعنى بالشيوخ ، والفقراء، والمرضى ، وبتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالحجان و بخاصة للعلماء الجائلين . وفى

بعض الحاعات كان المسافرون البهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الحاعات البهودية فى بيوت الأفراد البهود . وزاد عند الحمعيات الحيرية البهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجى ولأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين في السن ، بل كانت هناك أيضاً منظات تؤدى أموال القداء للمسجونين ، وبائنات للع ائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدمات ، وتدفن الموتى من غير أجر (٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره البهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم البهود (٧٨).

وكانت الفروق بن الطبقات عند اليهود تظهر فى ثيامهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفى مائة أخرى من أساليب حيامهم . فكان اليهودى البسيط يلبس قفطاناً طويل الكمن فوقه حزام ، وكان أسود اللون فى العادة ، كأنه ومز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء الهود فى أسيانيا كانوا يظهرون ثراءهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما جدرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر فى إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجمل فى الملبس أطاع الرجال اليهود أمره ولكهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب ؛ ولما أن سألمم الملك فى ذلك أكدوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء (٢٩٠٥) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يجملون نساءهم بفاخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجاهير عاريات الرأس ، وأنذروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصح سبباً للطلاق ، وأمير اليهودى ألا يصلى فى حضرة امرأة يرى الناس شعرها (٨٠).

وكانت نواحى التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الاز دحام في أحياء المدن ؛ فعملية الحتان ، والاستحام كل أسبوع ، وتحريم الحمر وأكل اللحم الفاسد، كلها وسائل وقت اليهود شرًا الأمر اض المنتشرة في البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان (٨١). مثال ذلك أن الجذام كان منتشراً بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين (٨٢). لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء رؤمة القلوة الموبوءة بالبعوض من مناقع كمپائيا Campagna .

وكانت حياة البهودى تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرق والقيود التي يفرضها عليه الأوربيون ؛ فنى كل مناحى الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله لِحاً كِما يلجأ الضعيف الجسم في كُلُّ مكان إلى الدهاء يتني به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا ينادون في كل حين أن 1 خداع غير اليهودي شر من خداع اليهودي نفسه (٨٣٠) ، ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة (٨٤) ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارفاليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرهمون مدينيهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عايهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى ، كما كان في المقرن الثامن عشر ، داثنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض البهود والمسيحين ينحتون النقود ، أو بقبلون البضائع المسروقة (٨٥) ، ولكن ك ق استخدام اليهود في المناصب المالية الكبرى توحى بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يثقون بأمانهم واستقامتهم ؛ وقلما كان البهود يرتكبون جرائم العنف ــكالقتل ، والسطو، والسلب - ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية منه في البلاد الإسلامية و

وكانت حياتهم الحنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بميدإ تعدد

الزوجات 4 وكانوا أقل ميـــلا للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل (\*) . وكانتُ نساوً هم عذارى ذوات خفر وحياً ، وأزواجاً عاملات عجدات ، وأمهات مخصبات ذوات ضائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة بينهن إلى أقل حد يستطاع الوصول إليه عند بني الإنساد (٨٠٠). و كان العزاب نادرى الزجود بين رجالم ، وكان من القواعد التي وضعها الحاخام آشير بن يحبال أن مرحق المحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن مهمكاً في دراسة الشريعة (٨٧) . وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق البهردية الباقية من القرن الحادى عشر إنه كان بندر وجود فتيات « يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجرأن معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن ¢ في هذه الناحية (٨٨) . ولكن الزواج لايكون قانونياً إلا برضاء الزوجين (٨٩٪) . وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهي صغيرة السن حتى وإن كانت في السادسة من عمرها ؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا · شاءت (٩٠٠) . وكانت الحطبة إجراء رسميًّا تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفرقة بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة ) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . ركان هذا المهر مبلغاً من المال يُحجَنَّب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذي لم يكن يقل عن ماثتي زوزا Zuza ( وهو قدريكني لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة ) لا يصبح الرواج بعدراء صحيحاً من الوجهة القانونية .

<sup>(</sup>و) لسنا نعتقد أن المؤلف يريد أن يتهم الشرقيين بأنهم يميلون إلى اللواط أكثر من غيرهم من الشعوب. فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفا لانرى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن البهود - وهم شرقيون في الأصل - بغيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشارا عند بعض الشعوب الفرقية . ( المترجم )

وكان تعدد الزوجات سنة جرى عليها أغنياء اليهود في البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم في البلاد المسيحية (١٩) . وتشير الآداب الدينية التي وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج » الرجل ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا جاخام مينز في عام ١٠٠٠ م أمراً بحر مان كل يهودي يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود في جميع أنحاء أوربا ما عدا أسپانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيا بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هي الرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية (٢٩) ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغي هذا القرار نفسه – قرار جرشم ما كان للزوج قديما من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ؛ وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود في العصور الوسطى كان أقل منه في أمريكا في هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الحطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تمتاز به الأسرة اليهودية ، وما تمتاز به الآن ، من «حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبر ، وحب أبوى وأخوى »(٤٠) . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته في العمل ، وفي السرّاء والضرّاء ؛ وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءا من نفسه الكبرى ؛ وإذا أصبح أبا وكبر أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المدخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جمم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتاح له في تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . وبكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار باثنات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البدائه عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله في

السنين الأولى من حياتهم وحياتهن الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكبر حكمة من ترك الشاب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسي الطليق . وكثيراً ما كان العربس يعيش مع عروسه في بيت أبيها – وقايا كان ذلك سببا في ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر في البيت سلطانا مطلقا لايكاد يقل في ذلك عن سلطانه في رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينيا ، وأن يضرب زوجته ضربا غير مفرط، فإذا ما أصابها بأذى جسيم فرضت عليه العشيرة غرامة تتناسب مع موارده ؛ وكان في العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تطغي قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة منحطاً من الوجهة القانونية ، عاليا من الناحية الأخلاقية . ولكن الرجل البهودى يحمد الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك فى تواضع جم : « وأنا أحمد الله الذى خلقى كما أراد » (٩٥) . وكان للنساء فى المعبد موضع منعزل فى الرواق أوخلف الرجال و وتلك تحية سمجة لمفاتهن التى تلهى العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسن فى العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغانى التى يمتدح بها جمال المرأة تعد عملا غير لاثق وإن كان التلمود قد أباحها (٩٥) . أما المتغازل المرأة تعد عملا غير لاثق وإن كان التلمود قد أباحها (٩٥) . أما التغازل وإنه وجد \_ فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأحبار عن التخاطب بين الرجال والنساء \_ حتى بين الزوجين \_ أمام الناس (٩٥) ، وقد أبيح الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل (٩٨) .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا مات حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيا عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، ورثة أبيهم الطبيعيين ؛ فى أن ييسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباء هن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على حبهم الأخوى ، وقلما كان يخيب فيهم

وجلاهن (٩٩). ولم تكن البنات برسان إلى المدارس ؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إلين أمراً شديد الخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح فن بأن يدرس في بيوتهن ؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة في الشريعة ـ وإن كانت صاحبة المحاضرة تسمير أحياناً عن المستمعين (١٠٠٠) . ولكن المرأة اليهودية الجديرة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلى بعد زواجها كل ما هي خليقة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : ولا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقر هن إلا الحقير ، (١٠١٠) .

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية . فقد كان البهودى بما عرف عن الرجل الساذج العادى من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيى من يتلقى منه اليمين ، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية (\*) ، ومعناها الشهادة أو البيئة أو الشاهد نقسه . وكان كل رجل يوثمر بأن يكون له طفلان على الأقل ، وكان له فى العادة أكثر من النبن . وكان الطفل يلتى الإجلال الذى يليق بزائر قدم من السهاء ، ومن مكلك تجسد ، وكان الأب يلتى من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف فى حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطبعه طاعة جزعة قلقة تتناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالحتان يكرس الى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الاالثة من عره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما نفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك فى حفل رهيب يثبت فيه هذا ويو كد .

<sup>(</sup> هـُ ) من كلمة Testes ومعناها الحسيتان . ( المترجم )

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، ويخفف. بذلك من واجبات الآباء .

#### ٤ - الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية فى كل ناحية من نواحى القانونية الأخلاق . لا ريب إنه كانت فى الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكى تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التى لا غنى عنها لكل شعب مغامر ، ولكن يلوح أن الرجل اليهودى فى العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعاته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه فى جميع مناحى الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التى لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت في بلاد اليهود كنيسا ، وكل مدرسة معبداً ، وكل أب كوهنا . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة في البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضي بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب في مساء يوم الجمعة أي ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فردا فردا ، ويؤمهم في الصلاة ، وفي القراءة من الكتب الدينية ، والأغاني المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنيه الاشتراع (الآيات ٤ – ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ – ٢١ من الأصحاح الحادي عشر) تذكر اليهودي أن إلحه لا واحد يجب عليه أن يجبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته ٤ . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس عن سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس عن سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع وكان يجاء بالولد إلى الكنيس عن سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطيع و المناه بعدها .

الدين في نفسه في أكثر السنين تأثيراً في تكوينه .

ولم يكن الكنيس معبداً دينيا فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز الاجتاعي للعشيرة البهودية ؛ والمعيى الحرفي للفظ سناجوج ، وإكليزيا ، وسينود ، وكلية هو مجتمع ؛ ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند البهود الإشكنازيين ، ثم أخذ على عايقه في عهد النشتب عدداً كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة ، فكان من عادة بعضها أن ينشر في كل سبب ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم ، وإن يتبي الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر في شكاوي بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل في شكاوي بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل الكنيس يوزع الصدقات العامة ، وكان في بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل . وكان مبناه على الدوام أجل المباني في الحي البهودي ، وكان في بعض الأحيان وكان مبناه على الدوام أجل المباني في الحي البهودي ، وكان في بعض الأحيان وأجلها ؛ وكثيراً ماكان ولاة الأمور المسيحيون يحرمون على البهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة ، وأمر البابا هو نوريوس الثالث معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة ، وأمر البابا هو نوريوس الثالث في عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف في بورج Bourges (١٠٠٠).

وكان فى أشبيلية فى القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفى -طليطلة وقرطبة بما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد فى قرطبة عام - ١٣١٥ تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومى .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرس Beth ha midrash) بالإضافة بإلى المدارس الحاصة والمعلمين الحصوصيين، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا بيعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر مها بين المسيحين (١٠٠) وإن كانت أقل مها بين المسلمين. وكانت أجور المدرسين تؤديها المبيحين البهودية عامة أو يؤديها الآباء، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجاءة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين - قبل مطلع الفجر فى الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستر يحون بين الساعة النائية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم أخراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلوا ، ويناموا ، وكذلك كانت حياة العلام اليهودى حياة جدية شاقة (١٠٠٥) .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودى هو اللغة العبرية وأسفار موسى المخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفى الثالثة عشرة يأخد فى دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء مهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجهارا من الثالثة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلا من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود (١٠٠١) . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق للنكرار ، وكانت التلاوة الجهاعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها (١٠٠١) . أما التعليم العالى فكان مكانه اليشيبة أو المجمع للعلمى ، وكان خريخ هذا المجمع يسمى تلميذ حاحام أى عالما بالشريعة ؛ وكان يعفي عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حما من الأحبار الرسميين (١٠٠) .

أما الحبر الرسمى فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان بطلب إليه أن يتزوج، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بو اجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التي لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقلما كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكا لوعاظ متنقلين ( مجديم )

يدربون على فنون البلاغة المرهبة فات الأصوات المنفة الطنانة الرقاتة .
وكان في مقدور كل فرد من المصلين أن يوم الجماعة ، ويقرأ فقوات من الكتاب المقدس ، ويعظ ؛ ولكن هذا الشرف كان يختص به في العادة أحد البود البارزين أو الذين للم يد طولي في الصدقات والأعمال الحيرية . وكانت الصلاة عند البود المتمسكين بالدين عملا شديد التعقيد ، لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلى رأسه دليلا على الخسوع ، وربط على ذراعيه وجهته علماً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الحروج ( الآيات المساد المحاح التالث عشر ) وتثنية الاشتراع ( الآيات ٤ – ٩ من الأصحاح السادس ، و ١٣ – ٢١ من الأصحاح الحادى عشر ) ، وثبت في أطراف ثيابه أهدابا نقشت عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لابد منها لتذكر البود بوحدانية يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لابد منها لتذكر البود بوحدانية الند ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من البود فقد أصبحوا يحسبونها من ملف الشريعة الموضوع في تابوت صغير فوق المذبح .

وكان البهود في المنفي لا يوافقون على إدخال الموسيقي في الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين الموسيقي والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة للانفعالات النفسية ، ولقد عادت الموسيقي إلى الكنيس عن طريق الشعر ، ذلك أن البيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد ، العبر انيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقلة بالزخرف الصناعي كالأبيات المنجانسة أولى حروفها أو التي إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً أو جملة بعنها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة أو جملة بعنها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغانها وامتلاؤها بالحاسة الدينية التي أضحت عند البهودي وطنية وديناً معاً . ولا تزال ترانيم إلعزر بن قلر ( من القرن الثامن ) الفجة الفوية .

تجد لها مكاناً فى طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند يهود أسپانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشققت التلال عن أناشيد .

وضحكت الحزائر متهللة لأنها تنتسب إلى الله .

وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك . حتى إذا سمعتها أبعد الشعوب نادت بك ملكاً متوجاً علما(١٠٠) .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (الپيوطيم) في الصلوات التي ثقام في المعابد ، كان ينشدها مرتل القداس ، وبذلك عادت الموسيقي إلى الشعائر اللدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها في كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم نغاته ارتجالا ، ولكنها تتبع في بعض الأحيان نماذج النغات البسيطة الموضوعة للترانيم المسيحية (١١٠) . من ذلك أن النغات المعقدة للأغنية العبر انية الذائعة الصيت المعروفة باسم كل نيدرى Kol Nidre (جميع الأيمان) (١١١) ، قد أخذت من مدرسة ديرسنت جون St. Gail الغنائية بسويسرا في وقت ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنيس اليهودى لم يحل فى قلب اليهودى محل الهيكل بكل معانى الحلول ، بل ظل أمله فى أن يقدم القربان ليهوه فى يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع ، المسيح الكذاب ، فى مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث فى عام ٢٠حين أعلن شير يم Sereme وهور جلسورى، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسيتر حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين. وغادر اليهود مواطنهم فى بابل وأسبانيا ليشتركوا فى هذه المغامرة ، ولكن القائم بها أسر ، وعرضه الحليفة يزيد الثانى على الجاهير على أنه مهر بح دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهانى ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف مهودى الحسام ، واستبسلوا فى الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى فى المعركة وعوقب جميع بهود إصفهان بلا تمييز بينهم لانضهامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوربا حسبت الجماعات البهودية أن انتصار المسيحين سيعيد فلسطين زلى البهود (١١٢٥) ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفى عام ١١٦٠ أثار داڤيد الروى بهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشلم ويرد إليهم حريبهم ؛ لكن حماه خشى أن يحيق الهلاك بالبهود بسبب أورشلم ويرد إليهم حريبهم ؛ لكن حماه خشى أن يحيق الهلاك بالبهود بسبب جزيرة العرب عام ١٢٧٥ وأثار البهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون جزيرة العرب عام ١٧٢٥ وأثار البهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون ودكر ورسالة إلى الجنوب » ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكر ودمار (۱۱۳) ، واكنه رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنظر ، على أنه ودمار (۱۱۳) ، واكنه رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنظر ، على أنه الثلاث عشرة الأساسية فى الديانة المهودية (۱۱۹)

## الفصل لرابع

### كراهيمة الهود

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود؟

لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية ، ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً فى زيادة المنافسات الاقتصادية وستارآ لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من الهود عدم إيمانهم بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بألوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا شعبه نفسه لا يؤمن سهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين يرون أن مما يخالف تعالم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام أن يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد من يهود أورشليم في آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من اليهود رحبت بدخول السيح أورشليم ( الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩ ) وكيف حمل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهوركبير من الشعب والنساء اللائى كن يلطمن وينحن عليه ، ( الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣ ) ، وكيف أن كل الجموع الذين «كانوا مجتمعين لهذا المنظرلما أبصروا ماكان رجعوا وهم يقرعون صدورهم » ( الآية ٨٨ من الأصحاح ٢٣ ) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة بعطف اليهود على عيسي كانت تنمحي ذكراها حن تتلي على المسيحيين قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت نىران الحقد تضطرم في قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل في تلك الأيام يحبسون أنفسهم فى أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس فتوُّدي إلى المذابح.

ونشأت حول هذا السبب الرثيسي من أسباب سوء التفاهم عشرات المئات.

من أسباب الريبة والعداء . وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشيءُ من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلَّت ضماناتها . ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحمّاد في الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية (١١٥) . وكان البهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة في المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما ۞ وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية في الصدور فأصبح كل ما هو يهودى بغيضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحي بغيضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزاتهم ، بهلم ينفروا لهم هذه العزلة التي كانت رد فعل لتمييز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء في بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها في أعين المسيحيين غريبة كرمة . ثم إن المهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هوالاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كماكان في قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ؛ وكان البهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر فى عيد فصح قريب : قرباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذي يحزنونفيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غبر مهودية ، أويشربواخراً عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستهالاً ، أوأن يتزوجوا إلا من يهو ديات (١١٧٧) . وكان المسيحي يفسر هذه القواعد القديمة ــ التي وضعت قبل نشأة المسيحية بزمن طويل ــ بأن الهود يرون أن كل شيء مسيحي نجس ، وير ويرد على هذا بأن الإسرائيلي نفسه لم يكن في أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه . ونشأت من عزلة هؤالاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم في السر قرباناً لإله المسيحين ، ثم أخذ المسيحيون في القرن الثاني عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو ليتخذوا. دماءهم دواء ، أو يستعملوه في صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسمدون الآبار التي يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليثقبوه ويخرجوا منه دم المسيح(١١٨) . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثرائهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب المودى على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها في أيدى البهود . واتهمت البهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من البهود من حزب الشيطان(١١٩) . ورد اليهود على هذه الأقاصيص بأخرى مثلها عن المسييحين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود (١٢٠٠) ، وكان بحيا Bahya يثنى على الرهبنة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبي محمد تنزع بالإنسانية إلى المكمال(١٢١) ، ولكن الهودى العادى لم يكن يستطيع فهم هذه المجاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بحقد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر ؛ فكثيراً ما كان البود يختلطون بالمسيحين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التي تحرم هذا الاختلاط ، وكانوا أحيانا يتزاوجون وبخاصة في أسپانيا وجنوبي أوربا . وكان العلماء المسيحيون والبهود يتعاونون فيا بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتوني المهابل فيا بينهم ، ميكائيل اسكت Worms ، وكان المسيحيون يقدمون الهبات المعابد المهودية ، وفي مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة بهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبها امرأة مسيحية (١٢٢٠) . وبدئل بوم السوق في ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً للبود ؛ ووجدت الحكومات غير في ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً للبود ؛ ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع فى الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها فى بعض الأوقات ؛ وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك فى بعض الأحيان أنها لم يعد فى مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان(١٢٤).

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . فني إيطاليا كانت تحمى البهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة فى العهد القديم وبوصفهم شهدواً أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ، لكن مجالس الكنبسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة المهودية ، وكثيرا ما كان يصَّدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلما كانت تعتمد في عملها هذا على ما لها من سلطان عام ۽ من ذلك أن قانون ثيوذوسيوس Thedosian Code (٤٣٩)، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعين المهود في المناصب التي من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين . وأمر مجلس أورليان Orleans ( ٣٨٥ ) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم في المناصب العامة . وحرم مجلس لاتران Lateran الثالث ( ١١٧٩ ) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن الهود ، وندد مجلس بزير Beziers (١٧٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من البهود ؛ ورد عجلس أفنيون Avigon ( ١٢٠٩ ) على قوانين الطهارة البهودية بتحذير « البهود والعاهرات » من لمس الحبر أو الفاكهة المعروضة للبيع ؛ وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الحدم المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الحدمات مع اليهود ، وأمر بتجنبهم لنجاستهم (١٢٥) . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ؛ وأحرق شماس في عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنَّه اعتنق الدين

البهودى وتزوج ببهودية (١٢٦٠) . وحُرمت أرملة بهودية في عام ١٢٣٤ من باثنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحي قبل وفاته وأن هذا يلغي زواجهمنا(۱۲۷) . وأصدر مجلس لاتران الرابع في عام ۱۲۱۰ قراراً يحتم « على الهود والمسلمين – ذكوراً كانوا أو إناثاً – في كل ولاية مسيحية وفي جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الحمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل الهود والمسلمون يالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على المهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة منالعمر أن يمنزوا ملابسهم بلون خاص ـــ ويكون ذلك بالنســــبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهن . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها رد على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد المهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة الممزة تعينه محلياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت في العادة تتخذ صورة عَجلة أو داثرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط في مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار في إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما في أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا في أوقات متباعدة قبل القرن إلخامس عشرحين أخذ نيقولا القوزاوي Nickolas of Cusa وســـان چيوڤيتي داکيسٽرانو Nickolas of Cusa Capistrano يدعوان إلى التشدد في تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد بهود قشتالة في عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاة الأمور الدينيون على إلغاثه ، وكثيراً ماكان الأطباء والعلماء ، ` ورجال المال ، والرحالة المهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به يضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً في العالم المسيحي . مثال ذلك أن جريجوري الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحي رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنية الرومانية في البلاد الخاضعة لحكمه(١٢٨) ؛ ولما أن استولى الأساقفة فى طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكى ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة(١٢٩)، وكتب إلى أسقف نابلي يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود في أداء صاواتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة في مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، کما کانوا هم وآباؤهم یفعلون من زمن بعید «(۱۳۰) . وحث جریجوری السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التي تحرم استخدام اليهود في المناصب ؛ ولما قدم إنچنيوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار في موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التي كانت وقتئذ في الحي اليهودي، بعث اليهود إليه بوفد ليهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك (١٣١) . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع البهود واستخدم واحداً منهم فى إدارة شئونه المالية(١٢٢) ؛ وتزعم إنوسنت Innocent الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على يكرة أبهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسي (١٣٢) ، تُمكرر في ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التي تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحي أن يؤذي اليهود في أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب في إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم (١٢٤) . وأعنى جريجورى التاسع منشى محكمة التفتيش(\*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا إُ تَهْدَيْدُ الْمُسْيَحِينُ ، أَوْ ارْتَدَّوا إِلَى اللَّذِينَ الْيُودَى بِعَدْ أَنْ تَنْصَّرُوا (١٠٥٠) ،

<sup>( \* )</sup> أو ديران التحقيق Inqusition كما يسميها بعض المترجمين . ( المترجم )

وقبذ إنوسنت الرابع ( ١٧٤٧ ) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف ... أساليب تتنافى مع الدين ضد البهود خداعاً منهم وتضليلا ، فحرموهم بلاحق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، وانهموهم زوراً وجناناً بأنهم يقتسمون فيا بينهم فى يوم عيد الفصح البهودى ، قلب غلام مذبوح . . . والحق أنهم فى حقدهم يعزون إلى البهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذى يقع فيه . وبسبب هذه النهم المختلفة وأمثالها تمتلى قلومهم غلا على البهود ، فينهبون أموالهم . . . وبضطهدونهم بتجويعهم ، وتعذيبهم ، وإيذائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإيذائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال البهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم أمراء مسيحين . أحياناً بالإعدام ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود تعاملوهم ، هاملة ودية رقيقة ؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل عليها الظلم في المستقبل (۱۳۷) .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذنا صماء ، واضطر جريجورى الماشر في عام ١٢٧٧ أن يكرر ما جاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استحابة لبعض الشعائر اللدينية اليهودية ؛ وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً فقرر ألا نقبل شهادة مسيحي على يهوى إلا إذا عززها يهودى . وإن ما أصدره البابوت بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر مماثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت عتلى به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجتث جدوره . ومما يدل على أن البابوات كانوا محلصين في دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

فى اللويلات البابوية من طمأنينة إذا قيست حالم بحال بنى دينهم فى غير هذه اللويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطردوا قط من رومة أو من أقنيون البابوية مثل ما طردوا فى أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفى ذلك يقول مورخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بنى لليهود وجود فى أوربا بعد العصور الوسطى »(١٣٩).

وكان اضطهاد اليهود بتروة في أوربا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون ماتى عام على خطة العسف التى جرى عليها چستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على عليها خستنيان ضد اليهود ، وبذل كل ما في وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما في وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Lev the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأنه بهودى بقرار أصدره عام ٧٧٣ يخبر فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفي ؛ فن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أحرقوا أنفسهم في معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (١٤١٥) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام الحاكم المسيحية قسطنطين السابع (١٤١ – ٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام الحاكم المسيحية عيناً مذلة ظلت باقية في أورباحي القرن التاسع عشر (١٤١) .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا بهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك فى أورشليم ؛ فلما قبل جدفرى البويونى Oddfrey يخرجوا لقتال الأتراك فى أورشليم ؛ فلما قبل جدفرى البويونى of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من البهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من البهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس فى أورشليم يجعل تعمير جميع البهود فريضة أعلاقياً على جميع المسيحيين (١٤٢٠). وكانت عملة الصليبين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود في أوربا الشهالية , وكان يهود ألمانيا قد اضطلعوا بدور رئيسي في إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة جميدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودچر الأسهر Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته ، وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ، وأصدر الإمراطور هنرى الرابع في عام ١٠٩٥ عهداً مماثلا لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين عملكته (١٤٢٦) ؛ لذلك وقعت أنباء الحرب الصليبية ، والطريق الذي قررت اتباعه ، وشهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجاعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم ، ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسبر جروا أحد عشر بهودياً إلى إحدى الكنائس وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من بهود المدينة إلى الأسقف چوهنسن Johannsen . فلم يكتف هذا الأسقف بحايتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا في مقتلة الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبين من تربير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلرت Egilbert . ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقن بأنفسهن في نهر الموزل فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعمدوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقن بأنفسهن في نهر الموزل الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقن بأنفسهن في نهر الموزل وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقد عدداً قليلا منهم بإخفائهم في الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩١) ؛ وقبل التعميد أربعة من بهود في الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩١) ؛ وقبل التعميد أربعة من بهود ميز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني ميز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني ميز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني ميز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني من وقع في أيديهم من اليهود في منازلهم ، وأحرق الغوغاء الحي اليهودي ، وقتلوا من وقع في أيديهم من اليهود القلائل ، فاكان من الأسقف هر مان

Hermann إلا أن نقل اليهود سرا من مخابعهم عند المسيحيين إلى منازل لمسيحيين فىالريف وعرض بللك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم في القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من الهود ( يونية سنة ١٠٩٦ ) وكان عدد من قتلوا في إحدى القرى ماثتي بهودى ؛ وحاصر الغوغاء اليهود في أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هذا على التعميد ؛ وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال في آثناء هذه الاعتلاءات وقت مولدهم . وفي وورمز أخذ الأسقف ألىر انشز A Tebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحر كثيرون من الهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد في وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ؛ وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلا منهم قد قتل يعضهم يعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلواً الباقين أحياء ؛ وبلغ مجموع من قتل في مذبحة وورمز ( ٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦ ) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها في متز Meiz ورنجزېرج Regensburg و پراهة Prague . (۱۹۹۱)

وأندرت الحرب الصليبية الثانية بأنهاستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ؛ فقد أشار بطرس المبجل «Peter The Venerabl » القديس رئيس دير كلونى دالله و السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين ، وقال له: ه لست أطالبك بأن تقتل أو لثلث الحلائق الملاعين . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قائين قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هوانا أقسى من العذاب ، وعيشاً أمر من الموت ع (١٤٥٠).

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم. الحاطئ للمسيحية ، واكتنى لويس الناسع ، بفرض ضرائب باهظة على. أغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها ، نقد خرج راهب فرنسي يدعى رودلف من ديره بغير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح المهود في ألمانيا . وفي كولوني قُتل شمعون ﴿ التَّبِّي ﴾ وبترت أطرافه ، وفي اسپير عذبت امرأة على العذراء لكى يقنعوها باعتناق المسيحية . وبذل الرونساء الدينيون مرة أخرى كل ما في وسعهم لحاية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كواونى قصرًا حصينًا يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من فى أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنرى كبير أساقه مينز في بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوهم أمام عيذبه . واستغاث كبير الأساقفة بالقديس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً في أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل روداف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة فى ورزبرج Wurzburg ، اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون ، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وعنى المسيحيون بكثيرين غير هم أصابتهم جروح فى هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى في حديقته (١٤٦) . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية في بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح البهود في كارنتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلى Suliy . وفى بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ مهودياً ؛ ولما أن انتهتموجة الذعر بذل رجالالدين المسيحيون المحليون كل ما فى وسعهم لمساعدة. من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجرّ لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع علبهم عقوبات الردة القاسية(١٤٧) .

وكانت هذه المذابح إبدانا بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت فى بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحة منهم ؛ وفي عام ١٧٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beliz القريبة من براين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خيزاً للتقدمة مقدساً (١٤٨) . وفي عام ١٢٨٣ أثيرت في مينز فكرة ذبح أطفال المسيحيين في بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم ممسا بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود . وفي عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، وبلحأ ١٨٠ بهو ديبًا إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق الماثة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون یهودیا فی أبرویزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسیحی ؛ وفی عام ۱۲۹۸ حرق کل بهودی فی روتنجن Rottingen حتی قضی نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفلشخ Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية فى ورزبرج ، وذبحوا ۲۹۸ يهوديا في نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الأضهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيسا يهودياً (١٤٩). وملأ اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكرة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة مينز ، وورمز ، واسپير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطنن لتعيش في بلاد المسلمين . وإذ كانت پولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إلىها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من سهود بلاد الرين إلى بلاد الصقالبة في شرقي أوربا .

وأضحى اليهود فى إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضام إلى نقابات الصتاع . ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله , وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسليح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم فى نظير هذا المال ريع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحى غيظاً لرؤيته المرابين يثرون من كدحه . وحدث في عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلا ، واتهم اليهود بمقتله لاستعال دمه ، وهوجم الحيى الهودى في المدينة ونهب وأحرق(١٥٠) . وحمى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٢٢٢،٠٠٠ جنيه ضَرائب وقروضاً أخرى على روثوس أموالهم فى سبع سنين . وحدثت في الاحتفال بتنويج رتسرد الأول في إنحلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلسصوا مما عليهم من ديون واستامفورد Stamford ، وانLinn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم في مدينة يورك فى العام نفسه وكان يقودهم رتشرد ده ملابستيا Richard de Malabestia ف وكان مستفرقاً فى الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود بورك يتزعمهم الحبر توم طوب Tom Tob بقتل أنفسهم (۱۵۲) . وفي عام ۱۲۱۱ غادر ثليًّائة من أحبار الهود إنجلترا وفرنسا ليبدءوا حياة جديدة في فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجركثيرون من اليهود حين نفاء هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفي عام ١٢٥٥ راجت شائعة في أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحي الهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المبتهجين. وعلى أثر هذه الشاعة هاجمت عصابات مسلحة مقر البهود، وقبضت على الكوهن الذي قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه في الشوارع ، ثم شنقوه . ثم قبض على واحد وتسعين يهو دياً وشنق منهم ثمانية عشر ، ونجاكثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل(\*)(١٠٤) .

وأفلتت الجماهير من أيدى ولاة الأمور في أثناء الحرب الأهلية التي نشرت الاضطراب في إنجلترا بين عامي ١٢٥٧ ، وكنتر برى ١٢٦٧ ، وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتر برى Canterbury ، ونور ثمبتن الاصطراب و ونشستر Worcester ، وورسستر Worcester ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقير (١٥٠٠) . والسفاتج ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقير (١٥٠٠) . وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقير ضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين في فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا في غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدورد الأول من كان باقياً في إنجلترا من المهود وكانوا حوالي ١٦٠٠٠ يهودى أن يغادروا البلاد قبل أول نوفير من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم في القناة الإنجليزية التي أرادوا أن يعبروها في قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١٥) .

وفى فرنسا أيضاً تيدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب.

<sup>(\*)</sup> ولا تزال بكنيسة لتكولن آثار مزار أقيم فيها في الماضي « لهيو السفير » مصحوبة بالمبارة الآتية : « إن في القصة حوادث كثيرة تلقى الشك عل صحتها ، وإن وجود قصص مثلها في إنجلترا وغيرها من البلاد ليدل على أن منشأها هو الحقد الناشئ من التعصب على البهود في العصور الوسطى ، والحرافة المنتشرة وقتت ، والتي لا يصدقها أحد قط في هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من الشمائر الدينية في عيد الفصح اليهودي . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحاية اليهود من كراهية الفوغاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأثراك في آسية ، والملاحدة الألبچنسين Albigensian في لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطبالدينية المثيرة للنفوس؛ وكان من الشعائر المعتادة فى بزيير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الْغوغاء الحي المهودى ؛ وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين في عام ١١٦٠ بالكف عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية المهودية أن تؤدى ضريبة خاصة فى أحد السعف من كل عام(١٥٧) . وفى طلوشه (طولوز) أرغم اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة في يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلتى صفعة على أذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم الأبدية(١٥٨) . وفي عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود في باوا Blois بحجة استخدامهم دماً مسيحيا في شعائر عيد الفصح اليهودي(١٥٩) . ورأى الملك فليب أغسطس الفرصة سانحة ليبتر منهم المال مجتجا بالدين ، فأمر بأن يسجن جميع من في مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين (١٦٠) ، أَمْمُ أَمْرُ بِإَطْلَاقَ سُرَاحِهِمُ بَعْدُ أَنَّ افتدُوا أَنْفُسُهُمُ بِمَالَ كَثْيْرِ (١١٨٠) ، غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ، وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفي عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهوديا فى أورنج Orange لأن ولاة الأمور في المدينة شنقوا أحد عماله لقتله أحد اليهود(١٦١) ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا \* عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم المُصرفية تنظيما يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة(١٦٢٦) . وفي عام ٢٣٦ دخل الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية في أنجو Anjou وپواتو Poitou ـــ .وبخاصة ما كان منها في بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulème ــ وأمروا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضوا نحبهم (١٦٣) . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ، ولكنه لم ينج البهود من الموت. وأشار القديس لويس على رعاياه بألا يجادلوا اليهود في أمور الدين ، وقال لجوانڤيل Joinville إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحي بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه فى بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه المدال . وفي عام ١٢٥٤ ننى اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولم إياها ، ورد اليهم معابدهم ، وبينها كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair بسجنهم ، وصادر ماكان لهم من ديون ، وجميع ماكان لهم من متاع لم يستثن إلا ماكان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدراً أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته (١٦٥) .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو ماثني عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على البهود في پروڤانس Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبر اطورية البيز نطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسپانيا المسيحية ، وكانت فترات الطمأنينة حتى فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثرون مرة أخرى ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مُرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المدابح الذي لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودي أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أنْ يتلوه في ساعة الاستشهاد <sup>(١٦٦)</sup> . وكانت حمى السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لا بسو الشارة الصفراء يقابلون في الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز في نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بيها وبين العناصر الأخرى من مودّة ، ويترك في أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التي تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات. والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاما لحادث صلب وحيد !

## البابالسابع عشر

### عقل الهودى وقلبه

۳۰۰ -- ٥٠٠

### الفضرك **الأول** الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعترامه أن يشق طريقه في عالم معاد له وشغفه بهار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقده العلم ؛ يحسد الرجل الذى نجا من جمى الثراء ، والذى شغف في هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم في آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون في طريقهم ليستمعوا إلى راشى العظيم وهو يشرح التلمود (1) . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم في غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا والفلاسفة ، ولم يضارعهم في آدابهم الواسعة وثرائهم العقلي إلا المسلمون فيا بين ١٩٥١ و ١٢٠٠٠) . وكان مما يسرلم أسباب هذا النبوع أنهم يعيشون فيا بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعة في العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم بغتر فون من بحره الطامي في العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أثار وا

عقل العالم الغربي المسيحي بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود فى بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية فى حديثهم ونثرهم المكتوب، أما شعراؤهم فقد استمسكوا فى شعرهم باللغة العرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ؛ وفى البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون فى آدامهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيوا اللغة العبرية من جديد ؛ وكان قد تعذر عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم فى اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعسد دراسة دامت ثلائة قرون أن يضعوا النص المسورتى استطاعوا بعسد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورتى وأشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح فى وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح فى أن يقرأ كتبه الدينية ،

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبرى والمعجات العبرية .
ولفت شعر مناشة بنسروق ( ٩١٠ – ٩٧٠) وعلمه نظر حسداى بن شبروط،
فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس الألفاظ الكتاب
المقدس العبرية . ووضع بهوذا بن داود حيوج (حوالى عام ١٠٠٠ م) النحو
العبرى على أساس علمى، في ثلاثة كتب باللغة العربية في لغة الكتاب المقدس .
وبزه في هذا العمل تلميذه يونا بن جناح ( ٩٩٠ – ١٠٥٠) السرقسطى حين
وضع بالعربية كتابه في النقدالذي تقدم به النحو العبرى و المعجات العبرية خطوات
واسعة . ووضع بهوذا بن فريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات
العبرية ، والآرامية ، والعربية : وتقدم أبراهام الفاسي (حوالى عام ١٨٠) اليهودي

القرائى خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجا أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية . وبز ناثان بن يحيل من علماء رومة (المتوفى عام ١١٦٠) سائر علماء المعاجم المهود بوضعه معجا للتلمود . وفي نربونة ظل يوسف قمحى وولداه موسى وداود (١١٦٠ – ١٢٣٥) يعملون عدة أجيال في هذه الميادين ؛ وظل محالول أو موجر Michiol داود قروناً عدة المرجع المعترف به في النحو العبرى ، وطالما أعان مترجمي الملك چيمس للكتاب المقدس " . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعرالمهودي من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج في أسپانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أى ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين في عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هوسليان بن جبيرول المعروف في العالم المسيحي باسم الفيلسوف أڤسيرون Avicebron . وقد هيآته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعمر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « الشاعر بن الفلاسفة والفيلسوف بن الشعراء ، على حد قول هيني في مالقة حوالي عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغيرالسن فنشأ فى جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب. وأعجب بشعره يقويتايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً في دولة ــ مدينة سرقسطة الإسلامية . وفي هذه المدينة وجد ابن جبرول الحاية والهناءة إلى حنن ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . واكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقويتايل فاضطرابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين ميم على وجهه في بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلا، هزيلا إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملني » . وأولاه صمويل بن تجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وأواه نى غرناطة وفمهاكتب سلمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أتخلى عن الفلسفة ؟

لقد عقدت معها عهدآ.

فهي أمى وأنا أعز أبنائها ؛

لقد طوقت عنتي بجواهرها . . . .

وستظل روحى تصبوا إلى

مراقعها السهاوية ، ما دمت حيا . . .

ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها<sup>(ه)</sup> بم

وربما كان كبرياره قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ؛ فعاد ، وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ، حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطوُّها الأقدام .

إنه مخلوق كريه ، يفيض مكراً وخداعاً ،

إنه زهرة ذواية ، تدبل إذا مسها الحر(٦) .

وينجو شعره في بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتثبة الحزينة :

أنشر علينا السلام يا الله ،

وأسبغ علينا نعمتك السرمدية ي

ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،

يا من نسكن إليه .

وسواء كنا نطوف بالأرض جيئة وذهاماً .

أو نقيم مكبلين بالأغلال في المنفى الموحش .

فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .

هاهنا مجدك يا رباه (۲) .

وخير كتبه كلها هو كيتير ملخوت (التاج اللكي) الذي ينادي فيه بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تنادي بعظمته هو:

أفر منك إليك لأجد مكاناً ألجاً إليه و وفى ظلك أختبى من غضبك إلى أن تهدأ سورتك ، وأتعلق بأسباب رحمتك حتى تستمع إلى وترثى لى ، ولن أفك قبضتى حتى تببط على نعمتك الله على نعمتك الله .

وقد اجتمع فى أسرة ابن عزرا بغرناطة ماكان للثقافة اليهودية فى أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحى ، وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيماً تحت رياسة شمويل بن نجدلا فى بلاط الملك ، وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونبغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا فى هذا الجوالعلمى ، فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً فى التلمود ، وكان موسى ابن عزرا ( ١٩٧٠ – ١٩٣٩) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوجها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فما كان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه فى بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألا فعيشى ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد ليمتصه غيرى ، وتنفسى بالند يستنشقه سواى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكونى أنت وفية لى . إن قلبى ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغنى يعلو على وينأى عنى » (١) . ووجة قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبرول ، إلى الأغانى الدينية ، وأخذ ينشد مزامير الأستسلام الصوقى .

وكان أبراهام بن مإبر بن عزراً الذي يتعبُّده بروننج Browning

المعبر عن فلسفة العصر الفكتورى \_ يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد في طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف في شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم في كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ في كل مهنة وكل مدينة ، وقال في هذا بسخرية الهودى المريرة: « أو اتجرت في الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعت أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إبران بجتازًا مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينا كان عائداً إلى أسپانيا في الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيَّته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت موالفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التي طاف بها ــ ألف في العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفي الفلسفة ، والدين ؛ وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغني بجال النجوم . وقد صاغ في صور شعرية أَفْكَاراً لم يكن يُخلو منها مكان ما في عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman مهذه الترنيمة العبربة:

يا إله الأرض والسهاء ، منك الروح والجسد !
لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما فى الإنسان من ضياء قدسى . . .
إن أيامى بين يديك ، وأنت تعرف الحير لى
وتهبنى بقوتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف
وسترك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى
ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك (١٠)

وخير ما يشتهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من ، عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سيفر إشعيا لم يكتبه نبى واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ؛ ويعد"ه اسپنوزا واضع أساس النقد العقلى للكتاب القدس (١١) .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبهم بهودا هليثى (١٠٤٧ - ١١٤٧). وقد ولد فى طليطلة بعد عام من استيلاء الفنسو السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً فى كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتساعاً فى أيامه . وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه فى غرناطة ، حيث استضافه موسى وإسحق ابنى عزرا فى منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذبع فى جميع الأوساط اليهودية فى أسهانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشمعراء الجوالين المسلمين أو البروڤنسالين ، وبكل ما فى نشيد الأنشاد من قوة ورنين : وقد حوت العرفة المرخ الفقرات المعلمين المنافرة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، ليم تتوانى عن أن تطعم بين حدائقها ؟ انثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .

إن تفاحتى صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرها ، وهى تخبى ً لك فى قلائدها ثماراً شهية تتلألاً كالمنور . . . . ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السهاء(١٢)

وتركهليني ضيافة ابنى عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين في الجمع العلمي اليهودي بهذه المدينة ؛ فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير النامين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية في طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ماكان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ؛ وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن بختم حياته فى فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجهال والجلال والكبرياء! ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك! إن قلى فى الشرق، وإن كنت مقها فى الغرب(١٣٦).

ولم يكن بهود أسپانيا المنعمون فيها يرون في هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هليني كان مخلصاً في أقواله . فقد استودع أسرته في أيد أمينة عام ١١٤١ ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشايم . وأتت الرياح بمالا تشهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعتها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية البهودية ، ورجته ألا يجازف باللهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ في أيدى الصليبين . وبعد أن أقام في الإسكندرية وقتا ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختنى ذكره من الناريخ . وتقول إحدى الأقاصيص أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خرّ راكعا ، وقبل الأرض ، فداسته حوافز جواد يركبه أعراني وقضت على حياته (١٤) . ولكننا لا نعرف هل وصل حقا إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذي نعلمه علم اليقين أنه كتب في دمشق ها أغنية لصهيون » ولعله كتبها في آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألماني يعدها من أعظم القصائد في أدب العالم كله (١٥) :

ألا ترغبين يا صهيون في أن تبعثي بتحياتك من صخورك المقدسة إلى شعبك الأسر الذي يحييك لأنه البقية الباقية من أبنائك ؟ ...

ألاما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكني حين أبصر حريتك في

أوهام أحلاى تنساب من صوتى النغات حلوة شجية كنغات القيثارة المعلقة على شاطى مهر بابل . . . ألا ليتني أستطيع أن أصب روحى حيث صبت روح الله في أبنائك القديسين في الأزمان السابقة ! لقد كنت مثرل الملوك وعرش الله ، ولست أدرى كيف يحتل العبيد الآن العرش الذي جلس عليه أبناؤك من قبل ؟

. . .

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلالهم على رسلك وأنبيائك فى الأزمان القاصية ؟

ومنذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خراثبك وأستريحمن تجوالى ؟

سأولَّى وجهبي نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتزبها كما يعتز الناس بالذهب الثمن : . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ، وأنهارك تفيض بالعسل المصنى

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجىء إلى معابدك الخربة عارياً حافى القدمين ! حيث احتفظ بالتابوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى المخابى المظلمة . : .

یا صهیون یا ذات الجهال الذی لیس بعده جمال ، لقد اجتمع فیك الحب والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فی حنان نحوك ؛ وكانت أفراحك بهجتها ومسراتها ، وها هی ذی الآن تبكی فی منفاها البعید أسی وحسرة علی خرائبك، وتتوق لرویة مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فی صلواتها خاشعة نحوأبوابك ، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكونى مسكنه الأبدى ، وطوبى ان اختاره الرب وأنع عليه بالراحة في داخل أبهائك :

وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المجيدة تنتشر، ومن يطلع عليه فجوك الوضاء كاملاصافياً من سماء المشرق :

وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينيه المتهللتين نعيم أبنائك المحررين ، ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به في قديم الزمان (١٦) .

# الفصل لثاني

#### مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبي في أسيانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدى التمسك بالدين كما كان شعراؤهم في سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسياً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة نوفق في ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليوناني . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المنشددون في دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسپانيا المسيحية ؛ وازدهرت المجامع العلمية اليهودية في ظل التسامح المسيحي في طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم في فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسپانيا ، فقد كانوا يزدهون في أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبدلون خير مواهيهم في دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط في أصوله ، بل انهمكوا في دراسة الشريعة .

وأضحى المجمع العلمى الذى أنشأه جرشوم فى مينز من أوسع المدارس نفوذاً فى ذلك العصر ، اجتمع فيه مثات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم فى نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظاوا يكدحون فى هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل فى فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق ( ١٠٤٠ – ١١٠٥) ، ويسميه بنو ملته راشى تدليلا له وقد أخلوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشى فى تروى من أعمال شمبانيا ، وتعلم فى المدارس اليهودية فى ورمز ، ومينز ، واسبر ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الحمور ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجمعاً علمياً فى تروى مع أنه لم يكن حاخاما رسمياً ، وظل بعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجهارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسپان ، أن يجد في النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر عامه الصافي الحضم ، بلغ من تقدير بني دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعوه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجهاعات اليهودية في جميع أنحاء أوربا يرسلون إليه يستفتونه في المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنته في شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل علمه بعد وفاته أحفاده شمويل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء مإير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر چستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٥) لأنه «خليط من الصغائر، والحرافات، والمظالم، والإهانات، والسباب، والكفر، والتجديف، (١٧). ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئلد وجود التلمود ؛ ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب سما ، وظل اليهود سبعائة عام كاملة يقرءون ويدرسون عبلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم \_ يقرءونه بجد يحيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث في عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودي اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجوري التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعدراء ، وتحريض على الغش والحداع في معاملة المسيحيين . وما من شك في أن والعدراء ، وتحريض على الغش والحداع في معاملة المسيحيين . وما من شك في أن بعض هذه النهم صحيح ، لأن جامعي الكتاب في جدهم المتواصل فد عظموا بعض هذه النهم صحيح ، لأن جامعي الكتاب في جدهم المتواصل فد عظموا التناثيم والأمورائم تعظها جعلهم يضمون إلى الأجز اء الشعبية من الجارا وفي أجزاء التناثيم والأمورائم تعظها جعلهم يضمون إلى الأجز اء الشعبية من الجارا وفي أجزاء التناثيم والأمورائم تعظها جعلهم يضمون إلى الأجز اء الشعبية من الجارا وفي أجزاء التناثيم والأمورائم تعظها جعلهم يضمون إلى الأجز اء الشعبية من الجارا وفي أجزاء التناثيم والأمورائم تعظها حياهم يضمون إلى الأجز اء الشعبية من الجارا وفي أجزاء السيحية من الجارا وفي أجزاء التيون ولامورائم تعظم المتواون إلى الأجزاء المي الميورية ولكوري المي الميورية ولكورية ولكو

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحين للدين المهودى(١٨) . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لا يمكن إثباتها : منها أن التلمود يجيز غش المسيحي ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التي أقسموا على الوفاء سها ، وأن يقتلوا كل مسيحي يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجوري إلاأن أمر بأن يرسل إلى الرهبان الدومنيك أو الفرنسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود ف فرنسا ، وإنجلترا ، وأسهانيا ، نم أمر أولئك الرهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدئة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه النَّهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعثر فها وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكنا نعرف أن لويس الناسع أمر يهود فرنسا بأن يسلمواكل ما لليهم من نسخ التلمود وإلاكان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب في نقاش على أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسيين ـ وليم الأوڤرتى William of Auvergne ، وألبرتس مجنس Albertus Magnus ، و دام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (١٢٤٠) ، وشفع ولتركرنوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens للبهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ؛ فلما ماتكبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الرهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأمهم هذا فأمر بمصادرة حميع نسخ التلمود ، فجيء مها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت في النار (١٢٤٢) . ثم صدر أمر بابوى في عام ١٧٤٨ يحرم تملك التلمود في فرنسا ، وضعفت بعد ذلك در اسة التلمود و الآداب العبرية في جميع أنحاء فرنسا عدا پرڤاتس .

وحدث مثل هذا النقاش في برشاونةعام١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند البنيافور تي

Rayond of Penafort وهو راهب دومنیکی یشرف علی محکمة التفتیش فى أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين. وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات فى اللغة العبرية فى معاهد اللاهوت بأسپانیا المسیحیة ، وساعده فی هـــذا یهودی متنصر یدعی پول المسیحی Paul the Christian ؟ وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحي واليهودي فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحانُ الحبروني أمام چيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ماكان يخشى الهزيمة . ودام الجلمل أربعة أيام كان الملك في أثنائها مبتهجاً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفي عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما في أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن في الدين المسيحي ثم. ردت الكتب إلى أصحامها(٢٠) ؛ وتحدث ابن نحان عن الدين المسيحي في تقريره الذي كتبه للمعابد المهودية في أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين (٢١) ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، واكن چيمس لم يحرك ساكناً إلا ُ عام ١٢٦٦ حن خضع لإلحاح البابا فنفي ابن نحان من أسيانيا . وتوفى ذلك الحبر في فلسطين. بعد عام من نفيه .

## *الفصل الثالث* العلوم عندالہود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند الهود أن تنحصر كلها في بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين في البلاد المسيحية في العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين اللاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى النصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هي أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودي كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليمود في بابل في القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبة الساوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسمرا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور «كاملة » عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها « ناقصة » عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمرى والشمسي بإضاف: شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتاسعة عشرة في كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً. وكان بهود فى الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوق الذي يبدأ في عام ٢١٢ ق . م . أما في أوربا فقد اتخذوا فى القرن الناسع « التاريخ اليهودى » الحالى المعروف باسم « سنة العالم Anno mundi والذي يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون في عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح النقويم اليهودى لايقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن <sup>(\*)</sup> .

<sup>(</sup>ه) يريد التقويم المسيحي . ( المترجم )

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود في بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالى عام ١٨٥). وقد ترجم چيرار القريمونى Gerard of وقد ترجم چيرار القريمونى Gremona كتابه فى الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال العالم المسيحى ، ورسالته فى الأثمان هى أقدم مولف علمى موجود الآن باللغة العربية ، وكانت أعظم رسالة فى العلوم الرياضية فى ذلك العصر (٢٢٦) هى رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى ( ١٠٦٥ – ١١٣٦ ) فى الجير ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهى المعروفة باسم هيورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة فى علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيق ، كا ألف فى التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام البن عزرا ، فى الجيل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر فى التحليل التركيبيى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية التركيبي . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية . ويفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى اليهودية فى أوربا ووسعت نطاق حياتها الذهنية إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبو اعدة رسائل قيمة في الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا في أوربا المسيحية , ولقد ذاعت شهرة إسحق إسرائيلي ( ٨٥٥ – ٩٥٥ ؟) في طب العيون بمصر ذيوعاً عين بسببه الطبيب الخاص للأغالبة في القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية في أوربا بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة في سالرنو ، وباريس ، ونقل عنها بيرتن بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة في سالرنو ، وباريس ، ونقل عنها بيرتن وتصف الروايات المتوانرة إسحق بأنه كم يكن بأبه بالمال ، وبأنه عاز بعنيد في وتصف الروايات المتوانرة إسحق بأنه كم يكن بأبه بالمال ، وبأنه عاز بعنيد في

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه . آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت . قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ، ويشهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛ ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستبق بذلك هارف Harvey إلى . كشف الدورة اللموية بأكملها :

أنا وسيطر على فن الطب في مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥) الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم رسالة في الرمد في القرن الثاني عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥؟) كتاباً في الأقراباذين لا يزال يستعمل حتى الآن في العالم الإسلامي : وكان الأطباء اليهود في جنوبي إيطاليا وفي صقلية إحدى المسالك التي انتقل بها الطب العربي إلى سالرنو . ذلك أن شباتاى بن أبراهام (٩١٣ – ٩٧٠) المعروف باسم ونولو والمولود أثرانتو وقع أسيراً في يد المسلمين ، فدرس الطب العربي في بالرم ، ثم عاد ليمارس مهنته في إيطاليا . ودرس بنقنوتس جراسس ، أحد يهود أورشليم ، في سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفي منهليه وكتب رسالة في طب العيون ( ١٢٥٠ ؟ ) كان العالم الإسلامي والعالم المسيحي على السواء يريانها أهم رسالة في أمراض العين ، وقد اختيرت هذه الرسالة بعد ٢٢٤ عاما من نشرها أول كتاب يطبع في موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجا فى الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغيها من هذه الدراسة أن تمكن رجال الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين تدربوا فى منبليه على إتنامة مدرسة منبليه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديرا لتلك الكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منيلييه أن تغلق أبواجها فى وجه اليهود ( ١٣٠١ ) وننى الأطباء العبرانيون فيمن ننى من اليهود من فرنسا فى عام ١٣٠٦ . غير أن الطب المسيحى كان فى ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم بتأثير الأطباء اليهود والمسامين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التى تقول إن المرض ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلفات الأولياء والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبذية على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم وكنائسهم تلك المخلفات والتي تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ، غحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود في داخل بيوت المسيحيين ، فقد كانت تراب في أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى تأثيرهم فى العقول المريضة . وفى عام ١٧٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين استخدام أطباء يهود ؛ وفي عام ١٢٦٧ حرم مجلس ڤينا على الأطباء اليهود أن يعالجوا مسيحين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار المسيحيين من الانتفاع بمهارة المهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس B miface الثامن حين مرض بعينيه استدعى لعلاجه إسحق بن مردخاى (٢٤) ؛ وكان ريمند للي Raymond Lullys يشكو من أن بكل دير طبيبا بهوديا ، وهال مبعوث بابوى أن يجد أن هذه هي الحال أيضا في كثير من أديرة النساء ؛ وكذلك ظل ملوك أسپانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنڤنيست Sheshet Benveniste البرشلوني طبيب جيمس الأول ملك أرغونة ( ١٢٣١ ــ ١٢٧٦ ) أهم رسالة في أمراض النساء في زمانه ؛ ولم يفقد البهود زعامتهم الطيبة في البلاد المسيحية إلا بعد أن استخدمت الجامعات المسيحية في القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة على العقل.

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب المهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة في القُرْن الثاني عشر . وهذان هما يتاحيا الراتسبوني Petschya of Ratisbon وبنيمن التطيلي ، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما في أوربا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل بېرشلونة ، ومرسيلية ، وچنوا ، وپيرا ، ورومة ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأثرنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإبچية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعلبك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر . وصقلية ، وإبطاليا ومنها برآ إلى أسپانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجاعات الهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والحصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركو پولو التي كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها في أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً ، ولاتزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى المهود(٢٥).

# الفصلالرابغ

### نشأة الفلسفة المودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل في عهود الفقر والفوضي لأن الشجاعة في تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس ؛ أما في عهود الثراء فإن القوى الذهنية . تعرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقى والتقدم ؛ وعلى هذا فإن الحضارة في انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بن العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفي هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على النوفيق بين الاضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة في كلتبها ؛ ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفي عصر الإيمان حبن تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغبر أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدم العقُل في الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متنكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التي اقتسمت فيما بينها حضارة البيض في العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأيناه أكثر انطباقا على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء في بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى مصدر ان هما الدين العبر انى ، والتفكير الإسلامي . وكانت كثرة المفكرين المهود ترى أن الدين والفلسفة متشامان في محتوياتهما ونتيجهما ، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذي يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعلمه الفلسفة على أنه حقيقة يثبها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة في بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من النراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعرى وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية في الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذي غادر مصر إلى بابل في نفس العام (٩١٥) حين تحول الأشعرى من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبراني بطول جدله ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب المشكلمين المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها (٢٠٠) .

وكان لانتصار سعديا من الأثر في الدين اليهودي ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالي في الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسي والاضمحلال الاقتصادي ، على خنق روح الفلسفة العبر انية في الشرق . وكملت القصة في أفريقية وأسپانيا ، فني القبر وان وجد إسحق إسرائيلي بين مشاغله في الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة في التعاريف أفاد منها منطق المدرسيين مصطلحات جمة ، وعرَّفت رسالته في العناصر التفكير العبر اني بكتاب أرسطو في الطبيعة ، وأحل كتابه في النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلمي التقدى من الله إلى العالم المادي ، من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلمي التقدى من الله إلى العالم المادي ، أحل هذه النظرية محل قصة الحلق كما وردت في سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القبالمة المهودية .

وكان أثر ابن جبرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً. ولقد كان من الطرف التتاريخية أن المدرسين كانوا ينقلون أقواله في هائة من الإجلال والتقدير ويسمونه أقسبر ون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً. ولم يعرف الناس أن ابن جبير ول وأقسرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salumon Munk في عام وكاد ابن جبيرول نفسه أن يهي مقول الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين الهودى. فقد أخذ كل مقتبساته في مجموعة أمثاله المسهاه مختار اللآلي من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلا من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية الهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التي تعد من جوامع الكلم. ومن هذه اللآلي لوالوة كنفوشية إلى أبعد حد : لاكيف يستطيع الإنسان أن يثأر من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة هر(٢٨). وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته في إصلاح الصفات الحلقية التي ألفها ابن جبيرول كما يلوح وهو في من الرابعة والعشرين حين تكون الفلسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتى الشاعر الشاب بأساليب في الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والرذائل من الحواس الحمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية في السخف. ولكن الذي يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع في عصر الإيمان قانوناً ولكن الذي يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع في عصر الإيمان قانوناً ولكن الذي يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع في عصر الإيمان قانوناً ولكن الذي يمتمد على العقيدة الدينية (٢٩٠) .

وبهذه الجرأة عينها امتنع جبيرول عن أن يقتبس في أهم كتبه كلها وهو كتاب مقور حايم » من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هوالذي جعل الكتاب بغيضاً لأحبار البهود ، كما جعله في ترجمته اللاتينية المسهاة «منبع الحياة Fous Vitae » عظيم الأثر في العالم المسيحي . وقدقبل ابن جبيرول في هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التي تسرى في الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذي يؤكد عمل الإرادة عند التوالإنسان . ويقول ابن جبيرول في كتابه أن عليناأن نفترض وجود الله بوصفه الهيولي الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولي إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة في أي شيء على الإطلاق ، ولكننا لانستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون في زمان معيز ، بل هو ينساب في فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شيء في الكون ، ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداها عن الأخرى إلا فى الفكر وحده (٢٠٠). وقد رفض . أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هى المادية المقنعة ، ولكن الكسندر الهاليسي Alexander of Hales ، والقديس بوناڤنتور St. Bonaventure و دنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأولية الإرادة . وقال وليم الأوڤروني عن ابن جبرول إنه لا أنبل الفلاسفة أجمعن » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما بهودا هليني فقله رفض كل تفكير فلسنى وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالي أن تقوض الفلسفة دعامم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك في عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودي ، وتسرُّب الآراء الإسلامية إلى المهود ، وهجات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب في الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعمى به كتاب الخزرى ( ۱۱٤٠ ؟ ) الذي عرض فيه آراءه في صورة قصة شبهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين المهودى . وكان من حسن حظة هليفي أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلميز. ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفا . ومُلاً ، وكوهنا ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحي من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبقى الكوهن اليهودى ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعلم فيه ملكا مطواعا مختتناً أصول الدين اليهودى وشعاثره . ويقول التلميذ الملكي لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم إلا تفاصيل عن الجنة والنار (٢٦٠). ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا للهود ، وإن أنبياء الهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليني من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسموات لقياسهم المنطقي ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لا يعدو أن يكون جزءا من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه في الصغر . . والعاقل (وليس حمّا أن يكون متعلماً) هو الذي يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التي جاءه بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلي ببساطة الطفل (٢٣).

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بتى على الرغم من هليفي ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين الهودى . فلقد كان أبراهام بن داود ( ١١١٠ – ١١٨٠ ) مستمسكا بدينه استمساك هليثي ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القراثين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود في الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذي يخطئه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، والبهود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليڤي في طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليثي ف كتابه العربي كتاب العقيرة الرفيعة بمثل ما رد به أكويناس فها بعد على أعداء الفلسفة المسيحين ، فقال إن الدفاع السلمي عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب المحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن معتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمن قليل ( ١١٢٦ ــ ١١٩٨ ) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (١١٣٥ – ١٢٠٤) ؛ والقـــديس تومس أكويناس بعده بماثة عام ( ١٢٧٤ – ١٢٧٤ ) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليونانى شهد ذلك لسره أن يتلتى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة الهودية لم تعرفه إلا من ملخصات الفارابي وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق التجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس تومس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلي المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هي الحالدة (٢٢) . وهناكان يحق لهليثي أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هي ذي تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلي الذي وقفه ابن داود ، ويواجه في شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل في صراعه مع الدين .

### الفصل لخامس

#### ابن میمون ۱۱۳۵ – ۱۲۰۶

ولد أعظم عظاء اليهود في العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء المتازين هو الطبيب والقاضي ميمون بن يوسف. وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى ، وقد عرف بن الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميمونى . ولما أن أصبح من أحبار اليهود الذائعي الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رمم ، وعبر العالم المسيحي عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التي يغلب على الظن أنها من الخرافات الدائعة إن الغلام أفاهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذي خاب فيه رجاؤه سماه ر ابن الجزار ، وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الحاخام يوسف ابن مجاشن(٣٤) . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثاني في آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ؛ والهيئة ، والفلسفة . وكان ثانى اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه في علمه إلا ابن رشد . ومن أُغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين والدا فى مدينة واحدة ولم يكن بنن مولدها إلا تسع سنين لم بجتمع أحدهما بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه (٣٥) .

واستولى البربرعلى قرطبة فى عام ١٤٨ او هدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنبي ؛ فغادر ابن ميمون أسهانية فى عام ١١٥٩ هو و زوجته وأبناؤه ، وأقاموا فى فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون (٢٦) ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهره بالإسلام بين اليهود المهددين بالخطر فى مراكش. بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عمليًّا بل كل. ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم. يعرفون أنهم غير مخلصين في النطق بها وإنما يفعلون ذاك ليخادعوا جماعة من المتعصبين (٢٧) . لكن كبير أحبار اليهود في فاس لم يوافقه على هذا القول، وكان جزاؤه أن قتل في ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلتى هذا المصير نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية ( ١١٦٥) ومصر القديمة حيث عاش حتى وافته منبته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم أطباء زمانه ، فاختبر طبيباً خاصاً لنورالدين على أكبر أبنا. صلاح الدين ، وللقاضى الفاضل البيسانى وزير صلاح الذين . واستخدم ابن ميمون نفوذه فى بلاط السلطان لحاية مهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد (٢٨) . وفي عام ١١٧٧ عن ابن ميمون نجيداً أَو زعيا للبهود في القاهرة ، ثم أفهمه أحد الفقهاء المسلمين (١١٨٧) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه عقوبة القتل التي هي جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال إن الرجل الذي أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحن (٢٩) . وفى سنى العمل المتواصل التي أقامها بالقاهرة أالف معظم كتبه . ومن هذه المؤلفات عشرة كتب في الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازى وابن سينا . وقد اختصر في كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسائة عبارة قصرة تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه في أوربا ويصدر ما ينقل بتلك العبارة : « قال الحبر موسى » . ووضع مقالة في تدبير الصحة للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؟ ومقالة أخرى في الجاع لسلطان حماة الملك المظفر تني الدين أبي سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجاع من الوجهة الصحية ، وعن عجز القوة الجاعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها في موضوع واحد منها مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة (\*\*) ، ومقالة جامعة في الربو (\*\*\*) ، وأخرى في البواسير ، ورابعة في السوداء — ومقالة جامعة في شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، في شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تنفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل — المعصومة من الخطأ — كقوله إنه إذا كانت الحصية اليمني أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً (١١) ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة في مساعدة المرضى ، ببحثها الذي يمتاز بالتسامح والحجاملة في الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال في النصح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون عصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء (٢١٠) . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج (٢٠٠) . وكان يظن أن الحمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال (١٤٠) ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تلاب على الاتزان العقلي والحلقي وعلى الهدوء وهما الصفتان اللنان تواديان تلك صحة الحسم وطول العمر (١٤٠) .

وبدأ ابن ميمون في الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا، وظل يكدح في هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة براً وبحراً . ولما نشر هذا الشرح في القاهرة عام ١١٥٨ باسم كتاب السراج رفع ابن ميمون من فوره - وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره - إلى منزلة بين شراح التلمود لاتسمو علما إلا منزلة راشي ، وذلك

<sup>( . )</sup> تمرف بالمقالة الفاضلة لأنها موجهة إلى القاضي الفاضل . ( المترجم )

<sup>(﴿</sup> الْمُرْجَمِ ) وضمت لمريض تبيل . ( المُرْجَمِ )

يفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام ، وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسهاه متحدياً مستثيراً مشنا التوراة ، وقد رتب فيه فى نظام منطقى ، وإيجاز واضح ، كل ما حو ته أسفار موسى الحمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير . ويقول فى مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة ( تكرار الشريعة ) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة ( الأسفار الخمسة ) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج فى ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر الآئ ، وقد أغفل فيه بعض ماورد فى التلمود من قواعد خاصة بالفأل والطيرة ، والمهائم ، والتنجيم ، فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يومنوا بالتنجيم (٢٧٥) . وقد قسم الأو امر الواردة فى الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسها وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلاكتاب واحد ، وهو مجلد ضخم الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلاكتاب واحد ، وهو مجلد ضخم النوعية به أن نتبين ضحامة الكتاب الأصلى كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو: ورائة الحائرين ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين بجهرون بالإلحاد . بل إنه قد حاول جهده لكى يرجع المعجز ات الواردة فى الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ فى أسفار موسى الحمسة موحى به من الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل (٤٨). ولعله كان يشعر بأن الهود لايستطيعون أن يكون اعتقادهم فى الكتاب المقدس أقل شأنا من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هوأيضا كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعي بغير الاعتقاد فى قدسية أصل القانون

الأخلاق . وكان ابن ميمون وطنيا شديد الحب لوطنه لا يقبل في عقيدته جدلا « يجب على جميع بني إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلي ، وعلينا أن نرغم اليهود في جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التي قررها حكماء التلمود علاماً . وكان أكثر حرية إلى حدما من معظم المسلمين والمسيحيين في أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودي المتمسك بأهداب الفضيلة ، المومن بوحدانية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو التركمادا ؛ ويقول إن الهود الذين ينبذون الشريعة الهودية يجب أن يقتلوا ؛ و « من رأني أن جميع أذراد العشيرة اليهودية التي بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمرآ من أوامر الله يجب أن يعدموا ، (٠٠) . وقد استبق أكويناس في الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة ٥ أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والحيلاء إنما هي رحمة بالعالم ١٥١٥ ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التي يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقة بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت<sup>(٢٥)</sup> . ولعل أحوال المهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لاوطن لها ، تقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين. ولقد كانت حالة البهود المزعزعة المضطربة في أوربا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً في أغلب الأحيان ، كانت. أرحم من القوانين اليهودية في هذه الأمور ( قبل أيام محكمة التفتيش ) .

وإن فى نصيحة ابن ميمون التى يسديها إلى يهود زَمَانه بحانباً من هذه الروح أفضل من الحانب الصارم السائف الذكر: « إذا قال الكفرة لبنى إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إلهم واحداً من أبناء إسرائيل ه<sup>(٥٢)</sup> .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالم وهو ينحدر إلى الشيخوخة، فمّد أيد في هذه السن قول أحبار اليهود إن ﴿ اللقيط العالم ﴿ بالشريعة ﴾ يسبق الكوهن الأكبر الجاهل ﴾ . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات في كل يوم لكسب العيش وتسعا للراسة التوراة . وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس . وينصح طالب العلم بألا يتزوج حتى يكتمل علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشترى له منزلا(٥٥) ، وعندئذ يصح له أن يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة كل شهر .

1 نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، واكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة فى هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدى الواجب الزوجى فى ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا فى حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة فى ذلك الوقت (٥٦) .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذى :

و يتصف بالتواضع الجم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريف . . . يتجنب المبالغة والتصنع فى الحديث ، يعدل فى حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ، ولا يتحدث عن أحد بسوء (٥٧) ، .

ولا يذهب إلى المطاعم إلاعند الضرورة القصوى: « فالرجل الحكيم لا يأكل إلا في بيته ومن ماثدته »(٥٨) . وهو يدرس التوراة في كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا يخدعه أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتى ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق ، وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « تفيى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر »(٥٩).

وغضب أحبار اليهود من مشنا التوراة ، فقاما كان في وسع أحد مهم أن يعفوع ابرى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما في هذا من سجراة ، وقد اسناء كثيرون من الهود مما عزى إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً في عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس في جيل من الزمان أن الجاؤنية قد عادت إلى الوجود : ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالى ؛ فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجبة جهوده للعمل على أن يعيد إلى الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجبة جهوده للعمل على أن يعيد إلى اليهود القرائين في مصر ، وفلسطين ، وشهالى أفريقية ؛ وأصدر إلى العالم اليهود القرائين في مصر ، وفلسطين ، وشهالى أفريقية ؛ وأصدر إلى العالم اليهودي بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو : ولائة العبرية اليهودي بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو : ولائة العبرية وسمى : مودة نبوهم م ، ثم ترجم كذلك إلى اللانينية وأثار عاصفة من أشد المواصف الذهنية في القرن الثالث عشر .

• ويقول في مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة في الكتب المتنبئة ، أى في العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقر اته ذات معان متعددة ، حرفية ، ومجازية ، ور مزية . فنها ما إذا أخذ بمعناه الحرفي كان عقبة كؤوداً في سبيل الخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغى ألا يغبروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذ كان العقل قد غرسه الله في الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوسى الإلهى ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا – في رأى ابن ميمون – أننا تأخذ بمعناها الحرفي بعض العبارات الموائمة للعقلبة الحيالية التصويرية التي هي من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أحبارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً . . . ولقد وردت قصة هذا الحلق بعبارات مجازية حتى بستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهما غير فهم هؤلاء (١٦) .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث فى الذات الإلهية فيستنتج مما فى الكون من شواهد التنظيم المحكم أن عقلا سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان (۲۲) ؛ فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود : « ولو أمكننا أن نفرض أنه غير موجود لاستبع هذا أن لا شيء غيره ممكن الوجود ) . وإذ كان لابد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره . و « الشيء الذي يحتوى فى ذاته على ضرورة وجوده م لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت (١٤) وإذ كان الله عاقلا ، فلابد أن يكون لوجوده علة وعلى هذا فكل ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شيء من وعلى هذا فكل ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شيء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون ( ولعله يحذو فى قوله هذا حذو المعتزلة ) ، أننا لانستطيع

<sup>(</sup>ه) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ، وأخذها عنه القديس تومس أكويناس ثم كيفها اسهنورًا حتى تُوائِم فكرة الهيولي الذاتي الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التي نصفه بها 🗕 كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة ــ كلها من نوع الجناس فهي إذا وصف بها الله كان لها معنى غبر معناها إذا ما وصف مها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضَّبط إذا وصف بها الله ، وليس في وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغي لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئًا من أى نوع كان . فإذا قيل في الكتاب المقدس إن الله أو المالك « كلم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هي تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء » ، وهي فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرويا أو الحلم ، وعاينا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيراً مجازياً (٦٠) « ولقد قال بعض حكمائنا في وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق »(٥٠) . وهذا الإلهام التنبؤى في مقدور أي إنسان إذا نمتَّى مو أهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشرى إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة.

وبعد فهل خلق الله العالم فى زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلى ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يحتار فيه العقل ؛ فليس فى وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آبائنا القائلة بخلقه بخاقه (٢٦٠) ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة فى سفر التكوين تفسير آ مجازياً رمزيا : فآدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هى المادة المنفعلة وهى مصدر كل شر ، والأفعى هى الحيال (٢٧٠) . واكن الشر ليس له وجود ذاتى موجب ، وإنما هو انتفاء الحير ؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإلسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإلسان أو وجهة النظر الضيقة ؛

حاجة إليه (٢٨) . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التي تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذي يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال في كتاب دلالة الحاثرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التي تبتى بعد الموت ليست هي النفس التي تعيش في الإنسان حين يولد «٢٩٠ .. وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذي يبقى فهو : العقل المكتسب، أو « العقل الفعال » الذي وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق(٧٠) . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى. ولقد أنكر ابن ميمون في مشنا التوراة فكرة بعث الجسم وسمحر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقوريا ، وقال إن تصويرها على هذا النحو في الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلًا لها يما يناسب خيال جهرة الناس وحاجاتهم(٧١) . وأضاف في دلالة الحائرين إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاوِّها إلا حين تكون قوى كائنة فی الجسم(۷۲)(\*) ؛ وینطوی قوله هذا ، کما یبدو ، علی أن الروح غیر المادية التي تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن يعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية في الإسلام واليهودية . ولما كتب ولالة الحائرين بالحروفالعربية أثار عقولالعلماء في العالم الإنتلامي ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفهه لأنه و سدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل الي يخيل إلى الناس أنه يدعمها بها ٥٢٣٥ . وكان صلاح الدين وقتال منهمكا في حرب حياة أو موتمن الصليبين ؛ وكان السلطانمن المستمسكين طول حياته بأصوال

<sup>( \* )</sup> وقد استمد أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هي ﴿ أَصَلَ الانفرادية » ؟ ( ٩ – ج ٣ – مجلد ٤ )

الله بن ، وكان في هذا الوقت ، بموع خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه في أي وقت آخر لأن الإلحاد في ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون مهمكون في حرب مقدسة ، بأشد الانخطار . ولهذا أمر في عام والمسلمون مهمكون في حرب مقدسة ، وهو صوفي زنديق ؛ ونشر ابن ميمون في الشهر نفسه مقالة في بعث الموتى عبر فيها مرة أخرى عن تشككه في عقيدة الحلود الحسنى ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب .

وسكنت هذه الزوبعة إلى خن ، وانصرف هو إلى عمله الطبي وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئد يترجم دلالة الحائرين إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب في ريارته حدره من أن يظن أنه سيحدثه في أي موضوع علمي وأو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومي يجرى على النحو الأتى : , فأنا أقيم في الفسطاط بينا يقيم السلطان في القاهرة على بعد مسرة يومى سنبت (\*) (ميل واحد ونصف ميل) . وواجباتي نحو ناثب السلطان جذ ثقيلة ؛ فعلى أن أزوره في كل يوم في الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد في داخل حريمه ، منحرف المزاج ؛ فلن أُجرو على مغادرة القاهرة بل على " أن أقيم معظم النهار في القصر . . . ولا أعود إلى الفسطاط إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكني أجد غرفة الاستقبال، ودحمة بالناس ، من رجال اللبين ، وموظفي النبولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابقی ، وأغسل یدی ، وأرجو مرضای أن يصبروا علی حتی أتناول بعض المرطبات ــ وتاك هي الوجبة الوحيدة التي أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبسل مرضاى . . : وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

<sup>(</sup>و) منيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وهى التى يصرح اليهودى أن يمشيها في يوم السبت وتعادل المسافة بين النهاية القصوى للمعسكر والتابوت ( الآية الزابعة من الأصنحاح الثالث من سقر يشوع ) . ( المترجم ) .

وقد أستمر على ذلك فى بعض الأحيان حتى تمضى من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصف لهم الدواء وأنا مستلق على ظهرى من فرط التعب ، حتى إذا جن الليل تكون قواى قد خارت حتى لا أستطيع المكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيلى أن يجتمع بى على انفراد إلا فى يوم السبت . فنى ذلك اليوم يقبل على جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة مهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا على بعض العلم . . . ونظل ندرس معا حتى الظهر ثم نفترق (٧٤) .

وقد أنهك هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طلب إليه رتشرد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الحاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه .

وأدرك وزير صلاح الدين ١٠ حل به من الضعف فسمح له أن يعبّزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفى عام ١٢٠٤ فى التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبرد قائما فى طبرية .

# الفيرالتاس

#### الحرب الميمونية

لقد أحس العالم الإسلامي والعالم المسيحي بتأثير ابن ميمون كما أحس به العالم الهودي ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون ولالة الحائمين بإشراف معلمين من الهود ؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس في جامعتي منبلييه ويدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسي ووليم الأوڤرني يقتبسان منه في جامعة باريس . واقتني ألبرنس ماجنس أثر ابن ميمون في كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر في آراء الحبر موسي ليفندها إن لم يكن لغرض آخر . وكان اسپنوزا ينتقد التفسير المجازي ملكتاب المقدس الذي يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهويفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه «أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل »(٧٠) ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله (٢٠٠) .

أما قى الدين اليهو دى نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى فى منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ؛ وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليان بن أبراهام فى زعامة يهود مصر . واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون فى الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آرآء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام الحجاز والاستعارة في نفسره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفُّض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، نقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث. فقيل مثلا إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثلُ المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس الهودية ليس لها إلا غرض رمزى وحقيقة رمزية (٧٧) . وبدا أن صرح الدين البهودى كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار المهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلسطيني ، وأبراهام بن داو د البسكويىرى of Posqières ، ومإير بن تادرس هليمي أبو العافيــة الطليطي ، ودون أستروك اللونلي Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من بهود منبليه ، وجناح بن أبراهام چيروندى الأسپانى ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التي تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون فى عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازى لا يحرك أية نفسَ نحو التنى والصلاح . وانضم أتباع القبلة الصوفية إلى المهاجمين ودنسوا قبر ابن ميمون(٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية في جنوبي فرنسا في الوقت الذي أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد في الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليان ابن أبراهام من بهود منيلييه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنت على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرسهون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً عبازياً ـ ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحين على الجاعات اليهودية بخجة أنها تحمى جماعة العقلين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعامة داود قمحى ، ويعقوب بن مخبر تبون بأن أقنعوا يهود لونل ، وبزيير ونربونة في پروڤانس ، ويهود سرقسطة في أسپانيا بأن يحرموا سليان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليان خطوة أجرأ من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشي إلى محكمة التفتيش في منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التي أمكن الحصول علمها في احتفال عام في منبلييه عام ١٢٤٤ وفي باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرق التلمود نفسه في باريس بعد أربعن يوماً .

وأثارت هذه الحوادث حتى أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشابعين لسليان فى منيلييسه ، والهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ، ويلوح أن سليان نفسه قد قتل (٢٩٠) . وندم الكوهن جناح على اشتراكه فى إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً فى كنيسها ، وحبح تائباً إلى قبر موسى بن ميمون : ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده فى هذا ابن نجان وآشر بن يحيل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليان بن أبراهام بن أردوط ، الزعم القوى المبجل ليهود برشلونه ، أصدر سليان بن أبراهام بن أردوط ، الزعم القوى المبجل ليهود برشلونه ، قراراً بحرمان كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجرو على دراسة شيء مها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره : وكان رد أحرار منبليه أن حرموا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية (٨٠). ولم يكن لكلا القرارين أثر فى دائرة واسعة ، فقد ظل شبأن اليهود فى أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة ، غير أن ماكان لأردوط وأشر فى أسپانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف فى جميع أنحاء أوربا الحاضعة وقتئد لحجاكم التفتيش ، دفعا الجاليات اليهودية إلى ماكانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هى المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الدينى والعداء الشامل ، توارت هذه الروح فى الصوفية والتقوى الدينية .

## الفصلاليابع

### القبلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أيناكانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عبأه راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الحرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرق والتمائم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا فى الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودى قدم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثنينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهى بعملية الحلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسرارا ، وبالثيوصوفية الغنوسطية (ملهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله بالسائدة في سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك في صحتها (الأبوكريفا) ، وبالشعراء والمتصوفة في الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة في عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الحلق الواردة في سيفر التكوين وفي الأصحاحين الأول والعاشر من سيفر حزقيال ؛ وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفر دموثوق به . وكان الخيال حرّا طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلُون القائلة بأن الحكمة الإلهية هي أداة الله الحالقة. للكون مثلا ساميًّا لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسينيين كتابات سرية ، يحرصون على كيَّانها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعبَّرف بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بن الناس أقوالا خفية عن خلق العالم بم وجعلت أسماء يهوه التي لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه الأربعة ــ الترجرام ــ تهمس في الآذان على أن لها معنى خفيا ، وتأثيراً معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوى الأفهام الناضجة : وكان عقيبا يقول إن. أداة الله في خلق العالم هي التنوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفيا وقوة خفية ، وكان بعض الجأونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه القوى الخفية ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى. الطبيعة . وكان العلماء يعبثون بضروب السحر الأسود والأبيض – أى القوى العجيبة التي بحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح. بالملائكة أو الشياطين . وكان لا ستحضار الأرواح ومعرفة الحظ بفتح. الكتاب المقدس ، والتعاويذ ، والتماثم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ، والقرعة ، كان فلمه كلها شأنها في الحياة المسيحية : وقد شملت كتب. اليهود جميع عجائب التنجيم ؛ فكانت النجوم في هذه الكتب حروفاً هجائية. وكتابات في السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها (٨١) :

وظهر فى وقت ما فى القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات الأسرار الحفية فى بابل يعرف باسم سفر يصير الماى كتاب الحلق . وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفى يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله نفسه . ومما جاء فيه أن عملية الحلق قد تمت بوساطة عشرة سفروتات Sefiroth اعداد أو أصول هنى: روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هي التي حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة . والعشرون الصور والأشكال التي يستطيع بها العقل البشرى فهم عملية الحلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالي عام ١٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت مها إلى ألمانيا ، وپروڤانس ، وأسپانيا . وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر مها فى نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مولفا سفر هباهير أوكتاب الضوء (١١٩٠ ؟) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سفر التكوين . وقد استبدلا فى هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الرباني الواردة في سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهي بوصفه ثالوثاً بهوديا(٢٢٦) . وعرض العزر من بهود ورمز (١٢٧٦ – ١٢٣٨) ، وأبر اهام بن شهويل أبو العافية ( ١٢٤٠ – ١٢٩١ ) هذه العقيدة السرية على وأبر اهام بن شهويل أبو العافية ( ١٢٤٠ – ١٢٩١ ) هذه العقيدة السرية على بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهواني والزواج التي كان يستخدمها . المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشركانت كلمة قبلة قد عم استعالها لوصف العقيدة السرية فى جميع مظاهرها ونتائجها . وفى عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى سفر زوهر أو كتاب المجمد وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثانى ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لمقرائه المسترين الأسرار التى كانت من قبل محتفظا بها إلى أيام المسيح المنتظر ت

وقد جمعت في الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شيء الذي لا يعرف إلاعن طريق ألحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه ــ النتر اجوامتون – ، والأوساط الحالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الحاصة بالعالم الكبعر والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح بوكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعانى الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التي إذا جمعت كونت اسماً خاصاً ، وقراءة المكلمات عكساً لا طرداً ، والتفسير الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، والقول يأن كمثل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليوني عمله حبن جعل شمعون بن بوحاى يشبر إلى خسوف حدث فی رومة عام ۱۲٦٤ ویقول بعدة آراء لم تکن ، كما یلوح ، معروفة قبل القرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ، ولكنه لم يخدع زوجته ؛ وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى فى شمعون خدعة مالية بارعة (٨٣٦) . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبلين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل الزوهر وقتاً ما كتابا يدرسه البهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القبلين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال قديم ، مفرط في التقطيع المنطقى ؛ وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نجان العالم النحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحيمن عند الله انتشاراً واسعاً بين بهود أوربا (١٤٠٥) . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ في مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبي في سفف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة البهود إلى المسيحيين فافتن الذهبي في سفف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة البهود إلى المسيحيين فافتن

بها بعض مفكريهم ؛ فأخذ عنها ريمند الى Ars Magna وحسب ببكو — ١٤٦٥) أسرار الأعداد والحروف في كتابه Ars Magna وحسب ببكو دلا مير ندولا Pico della Mirandola ( ١٤٩٤ – ١٤٦٣) أنه قد وجد في القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح ( ١٤٩٠ ) و اغتذى براسلسس Pracelsus ، واغتذى براسلسس Pracelsus ، وكور نليوس Cornelius ، وأجر با Agrippa ، وأجر با Agrippa ، وأقر وهنرى مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر وهنرى مور وهلين الموسلة Robert Fludd ، وأقر وهنرى مور المسلمة الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم ومن القبلة بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم السلوى في الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نامها المهود ، وأرغمهم أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نامها المهود ، وأرغمهم والبائسون السيثو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد والبائسون السيثو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه :

# الفصل لشامن

### 

لقد وجد بهود العصور الوسطى فى عزلة جماعاتهم ، وفيا تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزُوال خداع عقيدة المسيح المنقد المنتظر، ومماكان ينتامهم من الاضطهاد حينا بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهرالتقي بالأعياد التي تذكرهم بتاريخهم ، واخطوبهم ، ومجدهم التليد ، وعدلوا فى صبر وأناة احتفالاتهم التي كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المنقرضون يحتفلون بالسبت في الىرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كاثوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرين ليبقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يغضون النظر عن هذه المخالفة ؛ وكانوا يغتنمون كل فرصة الإقامة المآدب يظهرون فيها سخاءهم وأبهتهم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفى خطبة ابن أو بنت أو زواجهما ، أو زبارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد ديتي . وأصدر رجال ُ الدين أو امر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنهوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلاً ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعي حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملا ، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر في طريقهما النقل والقمح ، وتنثر فوفهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب؛ وكانت الأغاني والنكات تصاحب كُل مرحلة من مراحل هذا الحادث ، وفى أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممهن يستأجر ليم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج فى بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة ، ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلل الظريف : « إن كل زوجة جميلة »(٨٦)

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويبتهج بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك البهود الشيوخ فى صور ربمرانت Rembrandt : نشاهد ملايحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكة ، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس فى صفات المسلمين والمسيحيين الحلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند البهود ، الحب الذي يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المجربة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التي تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، وها هي ذي وصية إلعزر (١٣٣٧) من أهل مينز تقول : « لا تتكلم في أثناء الصلاة ، وردد الاستجابات ، واعمل الحير بعد الصلاة » .

وها هي ذي آخر وصايا البودي :

غستلونی ، ومشطوا شعری ، ودرّموا أظافری ، كما كنت أفعل فى حياتی ، كی أسر طاهراً إلى مقرّی الأبدی كما كنت أسر إلى الكنيس. كل سبت . وضعونی فی الثری علی يد أبی اليمنی ، فإذا ضاق المكان قليلا فإنی واثق من أنه يحبنی حبا يجعله يفتسح لی مكاناً بجانبه (۸۷) .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقفل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأغمض عينه ، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف في قباش التيل النتي النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً في جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعني بها ، وتقوم بآخر الشعائر الدينية ، وتصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسبرون في الجنازة حفاة ، وتسبر النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدققن طبلة . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسبر فيها إلى المقبرة ، وكان تابوت الميت يوضع عادة بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجماع بالأهل ، . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بني إسرائيل لن يموتوا ،



الكتانيانع

العصور المظلمة

1.90 - 077

#### الحوادث التاريخية فى الكتاب الرابع

```
4٨٦ — ٧٥١ ؛ الأسرة المروثنجية في غالة .
٩٠٠ – ٣٠٥ ؛ القديس بندكت .
٩٢٥ – ٣٠٥ ؛ نشأة المجامع العلمية الأيراندية .
٣٢٥ – ٩٨٠ : القديس كولمبا .
```

۱۱۰ – ۲۱۰ : القديس كولمبان .

٨٢٥ -- ٧٧٤ : مملكة اللمبارد في إيطاليا .
 ٨٢٥ وما بمدها : تأسيس مدينة البندتية .

٨٥ - ٢٠٢ : موريق إمر اطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
 ٩٥ - ٢٠٤ : البابا جريجوري الأول العظيم .

٩٠ - ٦١٦ : إثلبرت ملك كنت . ٩٧ : أرغسطين ينشر المسيحية في إنجلترا .

، ۲۰۰ – ۱۱۰۰ : الترنيمة الجريجورية . ۲۰۲ – ۲۰۰ : اعتصاب فوتاس .

۱۱۰ – ۱۶۱ : هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
 ۲۲۰ – ۲۹۰ : بولس الإيچيني ، الطبيب .

٩٣٨ – ٩٣٨ : وجوبرت ملك الفرنجة . ٩٤٠ : الصقالبة يدخلون بلاد البلقان .

جوالی ۲۵۰ : بیوولف ؛ کیدمون ، اشاعر ۲۵۱ : تأدیس أو تل دیبه (فندق الله ) تی پاریس .

۹۷۳ – ۷۳۰ : بید الموقر ، المؤرخ . ۱۸۰ – ۷۵۶ : بنیفاس ، رسول إل ألمانیا .

٧١٧ – ٧١٤ : بهين الأصدر يحكم الفرنجة . ٧٩٧ : الدوج الأول في البندقية :

٧١٧ -- ٧١٧ : أناستيوس الثانى إمبر اطور الدولة الشرقية .
 ٧١٧ -- ٧٤٧ : ليو الثالث الإسورى ، إمبر اطور الشرق .
 ٧٢٧ وما بمدها : حركة محطمي الصور في بيز نطية .

۷۳۵ : مدرسة يورك . ۷۳۵ -- ۸۰۴ : الكوين ، المربى .

٧٠١ - ٧٦٨ : پيين القصير بحكم الفرنجة .

٩٨٧ — ٧٨١ : أسرة كرولنچيه من الموك الدرنجة . ٧٥٦ : هبة بهيين تثبت قوة البابوات الزمنية .

٨١٨ – ٨١٤ : شارلمان ملك الفرنجة .

٨٠٤ - ٧٧٢ : حروب شارلمان ضد السكسون .

؛ شارلمان يضم تاج لمباردية . 444

٧٧٤ - ١٢٠٠ : الطراز المجارى الرومائي .

يرابانوس موروس ، المربي . FYY - FOX

: شارلمان في أسيانيا ؛ رولان في ونسڤال . YYA

: إيريتي وصية على العرش في القسطنطينية . **V4.** - **VA.** 

: الدُّمرقيون يبدؤون غاراتهم على إنجلتر ا . **444** 

 الدېرقيون يېدؤون غاراتېم على أيرلندة . 44 à

: إيريني « إمبر اطور » الشرق . 1.4 - V4V

: البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية . A . .

: بلغاريا تحت حكم خان كروم . A . Y

و ليو الحامس إمير أطور الشرق الأرمى . AY+ - AIT

: لويس الأول ملك الفرنجة التقى . Att - Alt

٨١٥ – ٨٧٧ : چون اسكوتس أرچينا ، الفيلسوف .

: الڤرياجيون يدخلون الروسيا . حوالي ۸۲۰

: إجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكسونية ويصبح AYS ملكاً على إنجلترا .

: ثيونيلوس الأول إمبر اطور الشرق ·. A47 - A74

: غارات الشاليين على فرنسا . AYE - AES

؛ تجزئة فردون ؛ لدڤب يصبح أول ماوك ألمانيا . 711

؛ هنكار أسقت ريمس . AAY - Ato

٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .

حوالى ٨٥٠ : كتاب كل ؛ ليو السالونيكي ، العالم الرياضي .

٨٨٨ - ٨٨٨ : يوريس الخان والقديس البلغارى .

٨٩١ - ٨٩١ ؛ فوتيوس بطريق القسطنطينية .

: البابا فقولاس الأول . AOA - YFA

: روريك أمير الروسيا العظيم . 101

: كمرك هارفاجر أول ملوك النرويج . 474 - A4+

: الڤجْياريون ئى ئوفجرود . 171

: بمثة سييريل ومثوديوس إلى الموراڤيين . 177

: باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية . **AAR - ATV** 

: ألفرد الأكبر . 1 . 1 - AY

: الشاليون يستعمرون أيسلندة . **74** 

: شارل الأصلم ، إمير اطور الغرب . AYY - AYP

> ؛ الشاليون يحاصرون باريس . 887

: ليو السادس الحكيم ، إمبر اطور الفرب . 417 - 444 ٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزي – السكسوئي

٨٨٨ : أدو ملك قرنسا .

٨٩٣ - ٨٢٧ : مميون إمير أطور البلغار .

٨٩٩ – ٩٤٣ : الحبر يميثون في أوروبا فساداً .

ه . ٩ : سانكو الأول يؤسس مملكة نبرة .

۹۱۰ : تأسيس دير كلوني .

٩١١ : كثراد الأول ملك ألمانيا ، رُولو دوق تورمنديا .

٩١٢ – ٥٥٠ : تنسطنطين السابع يورفيرو جنتيوس .

حوالى ٩١٧ : الديوان اليوناني .

٩١٩ - ٩٣٦ : هنرى الأول الصياد ملك ألمانيا .

ە ۹ ۸ -- ۹۸۸ ؛ القديس دنستان .

٩٢٨ - ٩٣٥ : ڤنسسلاس الأول ملك بوهيميا .

. ٣٠ : تأسيس الألثنج الأيسلندى .

٩٣٤ - ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك الثرويج .

٩٣٦ - ٩٧٣ : أنو الأول ملك ألمانيا .

٥٥ : أوج الحضارة الأيراندية في العصور الوسطى ،

ه ٩٥٠ : أتو يهزم المجر على وادى لك .

٩٦١ : دير القديس لاڤرا على جبل أثوس .

٩٩٢ : أتو الأول إمبر اطوراً على الغرب.

٣ ، أتو يخلم البأبا يوحنا الثاني عشر .

٩٦٩ ــ ٩٦٩ : نقفور فوقاس إمبر أطور الشرق .

و ٩٦ ـ ه و و ماكون « الإيرال المظيم » ملك النرويج .

٩٩٨ : هرسويزا ، المؤلف المسرحي .

٩٧٣ - ٩٨٣ : أتو الثاني إمير اطور ألمانيا .

٩٧٥ - ١٠٣٥ : ساذكو العظيم ملك نبره .

٩٧٦ : معجم سريداس .

٩٧٦ - ١٠١٤ : بريان يورمها ملك منستر .

٩٧٦ – ١٠٢٦ : باسيل الثانى إمبر اطور الشرق .

١٠٧١ - ٩٧٦ : كنيسة القديس مرقس في البندقية .

٩٨٠ - ١٠١٥ : ڤلادمير الأول ملك كيڤ .

٩٨٣ -- ١٠٠٢ : أتو الثالث إمبر اطور ألمانيا .

٩٨٧ - ٩٩٦ : هيوكاپت يؤسس الأسرة الكاپتية من ملوك فرقسا .

٩٨٩ : الروسيا تعتنق المسيحية .

٩٩٢ – ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك پولندة .

ع ٩٩ وما بعدها : الإصلاح الكلوق للأديرة .

۱۰۳۸ - ۱۰۳۸ : القدیس استیفن ملک الحجر .

۱۰۳۸ - ۱۰۳۸ : البابا سلفستر الثانی ( جربرت ) .

۱۰۰۰ : لیف ارکسون فی « ثنلندة » .

۲۰۰۷ - ۲۰۲۵ : هنری الثانی امبر اطور المانیا .
۲۰۰۷ - ۲۰۲۸ : قلبرت أسقف شارتر .

١٠١٣ : سوين الدُّمرق يفتح إنجلتراً .

۱۰۱۶ : بریان بورمها یهزم الشهالیین فی کلنتادف . ۱۰۱۰ - ۱۰۳۰ : القدیس أولاف ملك النرویج . ۱۰۱۳ - ۱۰۳۵ : کنوت ملك إنجلترا .

۱۰۱۸ – ۱۰۸۰ : میخاثیل پسلوس ، المؤرخ . ۱۰۲۷ – ۱۰۸۷ : قسطنطین الأفریقی ، المترجم . ۱۰۲۵ – ۱۰۳۹ : کنراد الثانی إمبراطور ألمانیا . ۱۰۲۸ – ۱۰۵۰ : زوئی وثیودورا یحکمان الدولة الشرقیة .

۱۱۳۳ – ۱۱۰۹ : القديس أنسلم . ۱۰۳۶ – ۱۰۶۰ : دنكان الأول ملك اسكتلندة . ۱۳۵۵ - ۱۰۶۷ : مجنوس الصالح ملك الثرويج .

۱۰۳۹ – ۲۰۵۹ : هغری الثالث إمبر أطور ألمائیا . ۱۰۶۰ – ۲۰۵۲ : ماکبث المنتصب ملك اسكتلندة . ۱۰۶۰ – ۲۰۹۹ : ردریجو دیار السید .

، ۱۰۶۹ – ۱۰۹۹ ؛ ردوچو دیار استیه . ۱۰۶۳ – ۱۰۹۹ ؛ إدورد الممترث ملك إنجلترا . ۱۰۶۹ – ۱۰۷۱ ؛ كنیسة القدیس أمبروز فی میلان .

۱۰۹۸ وما بعدها : دير چوميوچ .

۱۰۶۹ -- ۱۰۵۴ : البابا ليوالتاسع . ۲۰۱۲ : وثاة إيرل جدون ، السياسي .

١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونائية عن الكنيسة الرومانية . ١٠٥٥ - ١٠٥٦ : ثيودورا إمراطورة على الشرق .

۱۰۵۳ – ۱۱۰۹ : هنری الرابع إمبر اطور آلمانیا . ۱۰۵۷ – ۱۰۵۹ : إسحق كمنينوس إمبر اطور الشرق .

۱۰۵۷ – ۱۰۷۲ : بطرس دمیان أسقف أستیا . ۱۰۵۸ : ملکلم الثالث ملك اسكتلندة يخلع مكبث .

١٠٩٨ - ١٠٩١ : البابا نقولاس الثانى ؛ تأسيس مجمع الكرادلة . ١٠٩٠ : ربرت جوسكارد دوق أبرانيا .

١٠٦١ - ١٠٩١ : فتح النورمان لصغلية .

١٠٦٣ : الأمير هاروله يفتح ويلز .

١٠٦٣ وما بمدها : كنيسة بيزا الوبرى .

١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ؛ واقبة هيستنجس ، لتح النورمان لإنجلتر أ -

۱۰۷۴ – ۱۰۸۵ : البابا جریجوری السابع هلدبراند د

١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنرى الرأيع -

۱۰۷۷ : هاری الرابع فی کنوسا .

١٠٨١ – ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمير اطور الشرق .

۱۰۸۵ : ئېب رېرت جوسكارد لمرومة .

### البابالثام عشر

العالم البيزنطي

050-09.1

### الفضل الأول

#### هرقل

إذا حولنا الآن. تظوتا من الجانب الشرق للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنتابها عنتان فى وقت واحد : تمزقها الانقسامات فى الداخل ، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات فى الحارج . فقد كان الآفار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضى الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسبة الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسهانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٥) . وفشا الطاعون فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى عام ٤٢٥ ؛ وعمها المجاعة فى عام ٥٦٥ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل المجاعة فى عام ٥٦٥ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل المجاعة فى عام ٥٦٥ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل المجاعة فى عام ٥٦٥ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل المجاعة فى عام ٥٦٥ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت فى سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والقنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية، ولكن المشاكل التي و اجهتهم. لم يكن فى وسع أحد أن يتغلب علمها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل چستىن الثانى ( ٥٦٥ – ٥٧٨ ). الفرس الساعن إلى التوسع قتال الأبطال ؛ ولم تكد الآلمة تضن على تيبيريوس الثانى بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم عادل قصير . وهاجم موريق الآڤار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق من الأمة إلا قليلا من التأبيد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة. فراراً من الحدمة العسكرية ؛ ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعم، فوقاس الذي عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامة على الأشراف. والحكومة (٣٠٢) ، وذبح أبناء موربق الخمسة أمام عينيه ؛ وأبي. الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل. ابنها هي به ؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع مها أعمن الشعب ، وألقيت جنثهم فى البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها ا الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً في العادة بضروب. من التعذيب ، بعد مح اكمة أو بغير محاكمة ، فسملت أعينهم ، واقتلعت ألسنتم من أفواهم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التي تكررت. فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية . .

وأفاد كسرى الثانى من هذا الاضطراب ، وجدد الحرب القديمة حرب. الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلحمع العرب ، ونقل الجيش البزنطى كله الى آسية ؛ ولكن الفرس هزموه فى كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار على جميع الأراضى الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلا مها ، دون أن يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليونانى ، ودعوه لينقذ الإمبراطورية وينجى أملاكهم . لكنه اعتذر محتجا بكبرسنه ، وأرسل إليهم ابنه . وجهز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء مها إلى البسفور ،

وخاع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ، ونودى به إمراطوراً ( ٦١٠ ) . .

وكان هرقل خليقاً باسمه ولقبه ، فقد شرع يعزيمة سميه هرقل الأسطورى بعيد تنظيم الدولة المحطمة ، وقضى عشر سنن يعمل لإحياء روح الشعب المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الحزانة ، ووهب الأرض للزراع على شريطة أن يودى أكبر أبناء الأسرة الحدمة العسكرية ، وقى هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم ( ٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون ( ٦١٥) ؛ ولم ينقد عاصمة الدولة وأوربا إلا الأسطول البزنطى ، ولم يمض بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبي ، وأغاروا على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء . وكانت نتيجة خسارة الأراضي الحصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى عسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة على قطع إعانات الغذاء عن الأهلين ( ٦١٨ ) ، وفكر هرقل في يأس أن ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منه السرجاع مصر . ولكن الأهلين والقساوسة منعوه من المسر ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة والقساوسة منعوه من المسر ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشلم الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشلم المؤسل .

وكانث الحروب التي أعقبت هذا الزحف آيات في التفكير والتنفيذ. فقد واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ، وحاصر في أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الأقار ، والبالخار والصقالبة مدينة القسطنطينية ( ٦٢٦ ) ، فسير هرقل جيشاً هزم الفرس في خلقدون ، ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثاني ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبر اطورية اليونانية ، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنن .

ولم يكن هرقل خليقاً بمضره الذي جلله العار في سن الشيخوخة . فبينا هو يبذل ما يتى لديه من نشاط فى إصلاح شئون الإدارة بعد أن هذ المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام ( ١٣٤ ) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس ( ٦٣٨ ) ، ثم استولت على مضر بينا كان الإمبراطور يعانى سكرات الموت ( ٩٤١ ) . وكانت فارس وبنزنطية قد جرت كلتاهما الحراب على الأخرى بحرومها العوان . ٦٦٨ ) ؛ وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبر اطورية ، فقضى آخر سنى حياته فى الغرب ثم قتل فى سرقوسة . وكان ابنه قسطنطن الرابع يجنونونس Pognonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى فى خلال السنىن الحمس الحاسمة ( ٦٧٣ ــ ٦٧٨ ) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا « النارُ الإغريقية ، التي ورد. ذِكرها وقتئذ لأول مرة . وكان هذا السلاح الجديد ، الذي يعزى اختراعه إلى كلسنيوس Calcinius السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة في هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجر الحي ، والكبريت ، والزفت ، يلتي على سفن العدو أو جيوشه في سهام ملتهبة ، أو يصب علمها من أنابيب ، أو يقذف في صورة كرات من الحديد مغطاة بالكتان ونسالته المغموسة في الزيت ، آو يوضع فى قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة المبر نطية في الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنىن من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثما دينياً ؛ غبرأن المسلمينكشفوا آخرالأمر هذا السر، واستخدموا « النار الإسلامية » في حرب الصليبيين. وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس في العصور الوسطى في العالم كله إلى أن اخترع البارود . وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى في عام ٧١٧ ، فعر جيش من العرب والفرس عدته ثماتون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب في الوقت نفسه عمارة بخرية موافقة من ألف وثما ثمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هده العارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإخباريين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عوش الإمر اطورية في هذه الأزمة ، بدل ثيو دوسيوس Theodosius الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو يو الإسورى ، Theodosius ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع يو الإسورى ، المنار الإغريقية ، وتأكد من أن كل سفينة قلد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار في كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكد تيقي على واحدة منها . المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

# الفصل لثاني

#### محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris في قليقية ؛ ويقول ثبوفان Theophanes إنه والمد في هذا الإقليم من أبوين أرمنين ؛ ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخد يربي الضأن ، وأرسل منها خميهائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمراطور چستنيان الثاني . وأصبح ليو فيا بعد جنديا في حرس القصر ، ثم قائداً لفيلق الأناضول ، ثم اختاره الحيش أمراطوراً ، والجيش كما لا يخفي لا يرد له اختيار ؛ وكان ليو رجلا طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ؛ كما كان بعد ذلك سياسيا محنكا ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشي من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضي على الفلاحين ، الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضي على الفلاحين ، وغر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر في القوانين ، ووضعها على أساس وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر في القوانين ، ووضعها على أساس إنشائي حكيم ، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطي .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو في صباه بآسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمانيين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس يولس، وكالها تذم عكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالحرافات. ولقد نهى العهد القديم في صراحة تامة (الآية الحامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية ) المؤمنين على أن يضعوا : «تمثالا منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنى شبه مبيمة ما مما على الأرض .... النح » . وكانت الكنيسة في أول أمر ها تكره الصور والتماثيل

وتعدها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي لهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة ـ والتقاليد والتماثيل اليونابية من أثر في القسط:طينية والشرق الهلنسي ، كل. هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد . القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظمرا معها خشبة الصليب - حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوى العقول الساذجة طلسها ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى ، معبودات ، يسجد الناس لها ، ويقاً لونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون . البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخني . وفى البلاد التى تتبع مذِهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، في كل مكان ـ في الكبنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والحوانيت ... ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل مها. وأخلت المدن التي تتهددها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لدمها من الآثار النينية أو على من فمها من الأواياء والقديسين بدل أن تعتمد على الحهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ؛ وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هي تذكير بها فحسب<sup>(1)</sup> ، ولكن الشعب لم يكن يأبه مهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط فى التدبن من جانب الشعب . وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسبحية وتتغلب عليها من جديد مهذهالوسيلة ، وحز فى نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، والمهود ، والشيع المسبحية المنشقة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسبحيين المتمسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فعقد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم في عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيــــل الدينية مبن، ١ الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعدُّواعِ ، وأمر بأن يغطي بالجص ما عليَّ. جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن الرهبان وصغار القساوسة الحتجوا عليه ، وثار عليه الشعب في وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار؛ غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز ومنوز دينهم . ونادت قوات الثوار في بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولا ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزلج زعماء معارضيه في السجون يم وفى إيطاليا ، التي لم تنمح منها في يوم من الآيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريبا على معارضة المرسوم ؛ وطردت مدائن البندقية ، وراڤنا، ، ورومة عمال الإمبراطورية. ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب. دعا إليه البابا جريجوري الثاني وصب اللعنة على محطمي الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإنسراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى: الثائرين ، وحاول بانضهامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن. الدولة ؛ فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رأفة الإمبراطور في تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته في عام ٧٤١ تحتفظ بمظلماتها وفسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس ( ٧٤١ – ٧٧٥) على بهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » ( المشتق من الدبال ) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية ( ٧٥٤) ، حرم عبادة المهتور والتماثيل ، ووصفها بأنها عمل « ممقوت» ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . ولمن « الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصبح أن يومن ولمن « الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصبح أن يومن

به الناس إلا بتلوبهم »(٥) ، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما فى الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقتلعت الألسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ؛ وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنرى الثامن فيا بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيا إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسيبه . وجمع عامل الإمبراطورية فى إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهبانها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٢٠ . وظل هذا الخصطهاد يجرى فى مجراه خمس سنين ( ٧٦٣ – ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع ( ٧٧٠ - ٧٨٠) على أن يقسم بالحرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيته الضيفة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً ( ٧٨٠ - ٧٩٧) ، ورشح أرملته إبريني وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إبريني الإبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، فأنهت في هدوء عهد تنفيذ المرسوم الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، وسمحت المرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين في العالم المسيحي إلى مجمع نيقية الثاني ومنابرهم ، ودعت رجال الدين في العالم المسيحي إلى مجمع نيقية الثاني الصرر المقدسة – لا عبادتها – وقالوا إنها تعبسير مشروع عن التي والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد في عام ٧٩٠ ؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب في أن تتخلي له عن سلطانها خلعها ونقاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على قعتله ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه في حكم

الإمراطورية ( ٧٩٢ ) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفقء عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها و إمراطوراً » لا إمراطورة وظلمت خمس سنين تصرف شئون الإمراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الفيرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الحبرية ، وجملت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها في عام ٢٠٨ محطمو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بنقفور وزير ماليبها إمراطوراً . واستسلمت إيريني لمصرها في هدوء ، ولم تطلب إلى الإمراطوراً كثر من ملجأ أمين يليق بمقامها ، فوعدها أن يجيب طلبها ، ولكنه نفاها إلى السبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالخياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهما أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعها الكنيسة إلى مقام القديسين .

## الفصل لثالث

### نظرة عامة فى أحوال الإمىراطورية

#### 1.0V - V. X

إذا أردنا أن نلقي نظرة شاملة على الحضارة البنزنطية نقدرها مها تقديراً صادقاً تطلّب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات ــ ولسنا نقصه بذلك ما دبروه ودبرنه من دسائس القصور، والثورات، والاغتيالات، بل نقصد سياستهم، وتشريعاتهم، وجهودهم الطويلة لحاية الإمىر اطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين في الجنوب، والصقالبة والبلغار فى الشمال . وتمثل هذه الصورة من بعض نواحمها البطولة. الصادقة : فقد حافظت الإمر اطورية خلال صروف تاريخها ، وتقلباته ؛ ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص ، على القسط الأكبر من النراث اليوناني : احتفظت بالنظام الاقتصادي ثابتاً متصلا ، وظلت الحضارة قائمة كأن من وراثها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة. لىركلىز وأغسطس ، ودقلديانوس وقسطنطين . هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرىفهبي صورة مؤسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمىراطورية على أشلاء منافسهم، ثم لايلبثون أن يقتلوا مثلهم، ولمظاهر الأمهة والترف، والعيون المسمولة ، والأنوفالمجدوعة ، والبخوروالتتي والغدر ، ومن أباطرة وبطارقة. لا ضمير لهم يناضلون اليقرروا هل تحكيمُ الإمبراطورية القوَّةُ أو الأساطيرُ ، السيف أو الكلام . وهكذا نمرّ بنقفور الأول ( ٨٠٢ ــ ٨١١ ) وحروبه مع · هارون الرشيد ، وميخاثيل الأول ( ٨١١ – ٨١٣ ) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلعار هزموه ، وليو الحامس الأرمني (٨١٣ ـ ٨٢٠) الذي حرم مرة أخرىعبادة الصور والتماثيلوالذي اغتيلوهو ينشد ترنيمة للكنيسة ، وميخائيل

الثانى ( ٨٢٠ – ٨٢٩) الأمى « المتلجلج » الذى عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها (٢٥) ، وثيوفيلس ( ٨٢٩ – ٨٢٩) المشيرع المصلح ، والملك البناء ، والإدارى الحى الضمير الذى أحيا سنة اضطهاد محطمى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التى حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً ( ٨٤٢ – ٨٥٦) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكتير » ( ٨٤٢ – ٨٥٧) الذى أسلم الإمبر اطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولا ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف بعجزه اللطيف إلى أمه أولا ثم إلى قيصر بارداس خلى حين غفلة شخصية فذة القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة المتدرة المقدونية القوية .

فقد والد باسيل المقدوني ( ٢٨٦٧ ) بالقرب من هدريانوبل المعدونية من أسرة أرمنية من الزراع . وأسره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب في البلاد التي كانت وقتئد معروفة باسم مقدونية . ثم فرمهم و هو في الحامسة والعشرين من عره ، واتخذ سيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لحيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده في بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلفت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور في خدمته ، وظل يرتق فيها حتى صاد رئيس التشريفات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديرا فيا يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة وكان باسيل على الدوام قديرا فيا يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة فأ ؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقته ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع باثنة طيبة ، وتزوج يودوسيا Eudocia التي ظلت في خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقته ، ولكن في خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقته ، ولكن بارداس ياتمربه ليخلعه ، ثم قتل يارداس بيديه الضخمتين ( ٨٦٦ ) ، وكان بارداس ياتمربه ليخلعه ، ثم قتل يارداس بيديه الضخمتين ( ٨٦٦ ) ، وكان بارداس ياتمربه ليخلعه ، ثم قتل يارداس بيديه الضخمتين ( ٨٦٦ ) ، وكان بارداس ياتمربه ليخلعه ، ثم قتل يارداس بيديه الضخمتين ( ٨٦٦ ) ، وكان

مبخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم , ولما هدده ميخائيل بعزاه ، دبر باسيل اغتياله وأشرف على هـذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوى الكفاية حتى في عهد الملكيات الوراثية المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأمى غير المثقف بتذلله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهدا ، وبدأ حكما دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ، والقضاء العادل ، والحزانة الغاصة بالمال ، وببناء الكنائس والقصور الجديدة في المدينة التي استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس ( ٩١٢ – ٩١٢) مكملا لما في أبيه من نقص : كان متعلما ، كثير القراءة ، ميالا لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ؛ ويقول الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب و الحكيم ، بشعره ولا برسالته في الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمي والكنسي ، وصياغة القوانين البيزنطية ، وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذا للبطريق العالم فوتيوس وجال الدين ، وسلي الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان دون أن تنجيا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له ولد لأن هذا هو السبيل دون أن تنجيا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له ولد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ايو على رأيه ، وتوجّت زوى Zoe زوجته للرابعة إصراره بولد .

وسمى قسطنطان السابع (٩١٢ ـ ٩٥٨ ) البرفيروچنتس ــ « المولود

الأرجون » - أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبر اطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم برث عنه كفايته الإدارية . وألف لأبته كتابين فى فن الحكم : أحدها فى ولايات الدولة وثانيها كناب فى الو منفالات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبر اطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخا للعالم مستمدا من المؤرخين » بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، واز دهرت الآداب البيز نطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان از دهار على طريقتها المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى ( ٩٥٨ – ٩٦٣ ) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دست السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة أغوت إلى أحضابها القائد الزاهد نففور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) ( ٩٦١ ) ؛ وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) ( ٩٦١ ) ؛ من أخرجهم من قبرص في عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية في عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هي التي زلزلت أركان الحلافة العباسية . وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود في حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ وأكن البابا لم يجبه إلى طلبه بمحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايبها الحقيقة بمائة عام . فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايبها الحقيقة بمائة عام . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشيهة بحياة الأدبرة فاتخذت لها خليلا وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشيهة بحياة الأدبرة فاتخذت لها خليلا القائد تزيميسيس Tzimisces . وقتل هذا القائد نقفور ( ٩٦٩ ) واستولى واستولى

بعد قتله على العرش وغضت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على قعلته ، ونبذ خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذي خلفه على العرش من أقوى الشخصيات في تاريخ بنز نطية . وقد ولد باسيل الثانى لرومانوس وثيوفانو في عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو فى الثامنة عشرة من عمره حكمًا منفرداً دام خمسن عاما . واكتنفته فى بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعترم أن يفرض علمهم الضرائب المتآمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Scierus قائل جيش الشرق ، فأخمد بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمىراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما الستولى عليه منهم تزيميسيس في بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار في عام ١٠١٤ وسمل عيون ٠٠٠ر١٥ أسير ، ولم يترك إلا عينًا واحدة لكل ماثة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة فى عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتلِ البلغار (بلغاراكتونوس Buigaroctonus ) ولعسل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على والذين أثروا على حساب الفقراء ، . فحاول بما سنه من القوانين في عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين في صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو فى الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبر اطورية منذ أيام هرقل ما بلغته فى فى أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد چستنيان مثل ماكان لها فى عهده من الفوة .

ودب الضعف مرة أخرى فى جسم الإمبراطورية فى عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ – ١٠٢٨). ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رمانوس أرجروس Romanus Argyros أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحكمت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمىراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع ( ۱۰۳۶ – ۱۰۲۲) ، وميخائيل الحامس (۱۰۶۲) ، وقسطنطين التاسع ﴿ ١٠٤٧ \_ ١٠٤٥ ) ؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصلح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شــعواء على الفساد في الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب ( ۲۲۲ ر۲ ریال أمریکی ) کان قد خبأها فی حوض ماء ؛ ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد في حجر اته مخبأ يحتوى مائة ألف رطل من الفضة ( ۲۷،۰۰۰ ۲۷ ريال أمريكي )(١) . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلستالأختان زوىوثيودورا قاضيتىن في أعلى محكمة فىالدولة،ووزعتا العدالة الصارمةبالقسطاسالمستقم . ولم يكن أحد يضارع زوى في نزاهتها ؛ من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهي ` الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها في تزيين نفسها بالأصباغ لاتكاد تحتفظ لها إلابالشيء القليل منجمالها الظاهري، سمحت لزوجها الجديد أن يأتى بعشيقته اسكلرينا لتعيش معه في القصر الإمبراطوري . والختار الإمر اطور حجراته بين حجراتهما ، ولم تكنزوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد آنه بمفرده(۱۰) . و لما ماتت زوی ( ۱۰۵۰ ) آوت ثیودورا إلی دیر للراهیات ؛

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعي فيها الحكمة وسلامة النوق ، فاختار لمعاونته رجالا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد بجميل كنيسة أياصوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات ( ١٠٥٥ ) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العدراء ثيودورا من مأواها في الدير ، وتوجها على الرغم من أبهر اطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ في الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت في عام ١٠٥٦ ميئة مفاجئة ، وضربت الفوضي على أثر موتها أطنابها في البلاد ، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد السحق كمنينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب المسحق كمنينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمنينوس العاصمة في عام ١٠٥٧ إمراطوراً . وهكدا قضي على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه المنف ، والحرب ، والزني ، والتي ، والإدارة الممتازة .

واعترل إسحق كنينوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوكاس Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما تولى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت تحتاج إلى قائد أعظم مها قوة ، وأشد حزماً ، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية الى م يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمنينوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمنينوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة ابن أخى إسحق كمنينوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذول يزحفون على آسسية الصغرى ، وكانت قبائل البتزيناك Patzinak والكومان بهاجون والكومان بهاجون

الحصون البرنطية الأمامية في البحر الأدرياوي. وكان الجيش والحكومة يفت في عضدهما الحبانة ، والعجز ، والفساد ، والجن . وواجه الكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجة عملاءه إلى إيطالبا الخاضعة للنورمان ليثبروا فها الفنن ؛ ومنح البندقية مبزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الحيش ، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر في عدة معارك بفضل مهارته في الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الحارجية وقتا استطاع أن يعيد فيه تنظم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا كلم الإمبراطورية المتداعية حياة دامتمائة عام أخرى . فلما كان عام ١٠٩٥ كلم الإمبراطورية المتداعية حياة دامتمائة عام أخرى . فلما كان عام ١٠٩٥ لما الونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه الونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه الاستغاثة هي وغيرها من العوامل التي أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية ، والتي قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضى آخر الأمر علها .

# الفصل لرابع

### الحياة فى بيزنطية (٥٦٦ – ١٠٩٥ )

وصلت الإمراطورية اليونانية مرة أخرى فى بداية القرن الحادى عشر اللى ماكانت عليه من القوة والبروة والثقافة فى أوج مجدها أيام چستنيان ، وذلك بفضل ماكان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية ، فانتزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشيالية ، وقبرص ، ورودس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كريت) ؛ وعاد جنوبى إيطاليا فأصبح بلاد البونان الكبرى Magna Grecia محكمه القسطنطينية ، واستردت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البرنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليوناني فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتمان المسيحى اليوناني فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتمان بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى

وكانت القسطنطينية نفسها في أوج عزها ، تفوق رومة القديمة و الإسكندرية ، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها في النجارة والثروة ، والترف و الجال ، والرقة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس (١٢) من الأسيويين والصقالبة – الأرمن ، والكيدوكيين ، والسوريين ، والبهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين ، والروس ، والطليان ، والمسلمين ، وتغشيهم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان قي داخل الإطار الحارجي المكون نصفه من الذهب ، ونصفه من الوحل ، والذي تدور فيه الحياة المنتجة الحصيبة في العاصمة البيز نطية ، ونصفه من الوحل ، والذي تدور فيه الحياة المنتجة الحصيبة في العاصمة البيز نطية

ألف نوع ونوع من المنازل - ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب - ذات شرفات ، وبوائك ، وحدائق أو عرائش ؛ وأسواق غاصة عاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر ؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب عروسة في أسوار حصينة ؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذي الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الجديد ، وقصر نقفور فوقاس الريني المؤدى بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ بحر مرمرة ؛ وكنائس « بعدد ما في السنة من أيام « كما يقول أحد الرحالة » ، بعضها تحف فنية غاية في الإبداع ، ومذابح تضم أثمن ما في العالم المسيحي من غلفات وأكثر ها تعظيا وإجلالا ؛ وأدبرة تضم أثمن ما في العالم المسيحي من غلفات وأكثر ها تعظيا وإجلالا ؛ وأدبرة لا يستحي من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقديسين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التي نجدد زينتها على الدوام ، تتلالاً فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد في الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد في الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد في جنباتها الترازم الرنانة التي لا تترك شكا في النفوس .

وكان في داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وبيوت الريف المقامة في موخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التي لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصى من الفضة ، وأقمشة سفورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والدهب ؛ في هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطي ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهن أثواب من الفراء والحرير الجعميل اللون الموشي بالمخرمات ، لاينقصن في رشاقتهن ، ومغامراتهن الحبية ، وحسائسهن عن أهل باريس وفرساى في عهد آل بوربون ، ولم تعرف الحبية ، ودسائسهن عن أهل باريس وفرساى في عهد آل بوربون ، ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق آبهى آو عطوراً أذكى أو جواهر أغن أو تصفيفاً للشعر أجل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبق متقدة في القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التي يتطلمها تعطير الملكات والأميرات (١٣٠) . ولم تكن الحياة في أى وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ؛ وألعاباً ، واستمساكا بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها في ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون في أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضهار السباق ، أو وجدوا في بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا في الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يبالون بالراجلين الفقراء فكسبوا بدلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا بالراجلين الفقراء فكسبوا بدلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى أروة العالم كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطلى « من أبوة العام كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطلى « من السكان اليونان وكأنهم كلهم أبناء ملوك » (١٥)

ووصفها أحد كتاب القرن الثانى عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن فى ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً فى رذائلها ٩ (١٦٠) . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكانا فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفى نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً فى بيوت الحريم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الذين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عبونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التى لا تنقطع . وكانت جماهير

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية ، والطائفية ، والدينية ، كانت هذه الجاهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ، تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشــوها الدولة بوجبات الطعام . المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن ؛ ويسلمها سباق الحيل ، ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيليات الصامتة الفاحشة البذيئة فى الملاهى ، والمراكب الإمير اطورية أو الكنسية فى الشوارع . وكانت قاعات الميسر لا يخلومنها مكان ، وتكاد بيوت العاهزات توجد في كل شارع ، بِل كانت في بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس «(١٧) . واشتهرت نساء بيزنطية بدعارتهن وورعهن ، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ، والننجيم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والانصال بالشياطين، والتماثم ذات القوة العجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعيضوا عنها إلا بالألفاظ الجوفاء . ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع المتطرف في دينه وشهواته كانوا مواطنين ومؤدبين وآباء محتشمين يسكنون يعد لهو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال الدنيوية وهم كارهون . وهوالاء الإباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسهم يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والعجزة ، ونزل المسافرين المجانية (١٨) . وكانت طبقة الأشراف ، التي يخيل إلى الناس أن الترف والراحة ديدتها وشغلها الشاغل كل يوم ، نضم مئات من الرجال يتمبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيرة يختلط بها الطمع في الكسب والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات وما يحاك حولم من الدسائس ، أن ينقلوا الدولة من كل كارثة تلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحي في العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التي أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت في مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة فى إدارة شئون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكرى ( استر اتيجوس Strategos ) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت مها الأنظمة البنزنطية لمواجهة الغزو الإسلامي . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتى وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً فى النظام دون أنْ يلتى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب سهما العاصمة ؛ فبينا كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطي . وبينا كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينا كان غرب أوربا يتعثر فى فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الهمجية ، كان العالم البيزنطى يعض بالنواجذ على تراث چستنيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانبن چستين الثانى Justin II و هرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التي سنها ليو النالث ، والمراسيم الملكية التي نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبر اطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كيفت مجموعات قوانين چستنيان كي تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . ووهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية في الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضياع ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليقة بأن يعتمد علمها ؛ وكانت مدرسة القانون في القسطنطينية في القرن الحادي عشر المركز الثقاقي للشئون غير الدينية في العالم المسيحي . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة ــ ألا وهو القانون الرومانى — خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثا جديداً فى بولونيا Bologna فى القرن الثانى عشر أحدث انقلابا عظيا فى القانون المدنى لأوربا اللاتينية والقانون الكنسى للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحرى البيزنطى الذى سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لرودس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ؛ وقد أصبح فى القرن الحادى عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه فى جمهوريتى ترانى Trani وأملنى Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانونى فى عالمنا الحاضر .

أما القانون الريني فكان محاولة صادقة جديرة بالثناء للوقوف في وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغ ة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم في داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم في خارجها ؛ وعلى هذا النحو. استقر القوط في تراقية وإليريا ، واللمبارد في پانونيا ، والصقالبة في تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كان الجنس الصقلى هو الجنس الغالب في اليلويونيز، وحتى كثر عدد الصقالبة في أتكا وتساليا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمراطورية بيع الأرقاء الذين يتضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد في القسطنطينية مقصوراً في الواقع على العمل في المنازل ، أما في غبر ها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد نه ق عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إلها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؟ ثم لا يلبث هذا النركبز على مر الزمن أن يتفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد . ولقدكانت معظم الأراضى الزراعية فى بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناتوى dynatoi أى « الرجال الأقوياء ، ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التي ينفق علمها من أرضين أوصى بها إليها الأنقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط مهم يطانة من الموالى ، والجراس ، وعبيد المنازل ، ويحيون حياة الترف المنعم فى بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما فى حياة أولئك الملاك من خبرُ وشرفى قصة السيدة دنييلسن Danielis محسنة باسيل الأول . ذلك أنها حن جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلثماثة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Patras . وحملت معها لمحسومها الإمر اطورى هدايا أثمن مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمر اطورالبيز نطى: منها أربعاثة شاب ، وماثة خصى ، وماثة عذراء . ومنها أربعاثة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً ، وماثة قطعة أخرى من التيل الرفيع ( تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تخلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير حن ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقي لدمها منها إلى ابن باسيل ، ووجد البوالسادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف، وأكداساً من النقود والجواهر والصحاف والأثاث الثمن ، والمنسوجات الغالبة ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد<sup>(١٩)</sup> .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور لهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملاين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطانا ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شديداً على أى ملك أو إمراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧ – ٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس ناثب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد قيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التي ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن الحبزى \* ، وأجاز لكل من باع أرضه أن يشترى في خلال ثلاث سنن ما باعه منها بالثمن الذي باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى في مجراه ، وزاد الطين بلَّة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن ـ إلى القسطنطينية إن استطاعوا ـ وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . وجدد باسيل الثانى النضال بن الأباطرة والأعيان ، فأصدر في عام ٩٩٦ مرسوماً يبيح للبائع أن يستعيد في أي وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذي باعه به. ؛ وألغى عقود الأراضي التي استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضي من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك فى الشرق البيزنطى فى أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإقطاع : لكن جهود الأباطرة لم تذهب كلها أدراج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت فى ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه فى العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة فى تلك البلاد .

واصطبغت الإمراطورية الشرقية فى ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوربا اللاتينية الواقعة في شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون بجد في الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلالها . وكانتالقسطنطينية وماثة مدينة غبرها ــ أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، وراجوسا ، وبتراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهدريانوبل ، وهرقلية ، وسليمبريا ـــ تَبْردد فها أصوات دابغي الجلود ، وصانعي الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصياغ ، وصناع الحليُّ ، وطارق المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الحشب ، وصانعي العجلات، والخبازين، والصباغين، والنساجين، والفخرانيين، وصانعي الفسيفساء ، والنقاشن . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فى القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع فى سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر فى هذه الأيام ﴿ وظلت العاصمة ـ اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تتزعم العالم الأبيض في إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية،ويلها في هذا أرجوس،وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غير ها من الصناعات فِكَانَتَ تَسْتَخَدُمُ صِنَاعًا أُحِرَارًا . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يولفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، عبدة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصنباعها ، وفنيانها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها في جماعات نقابية — سسمانا Sytemata — تعدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة في الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشرياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعها ، وشروط البيع ، بأنظمة خاصة بمشرياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعها ، وكانت القوانين في بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تشرك بعض الأحرار وللنشاط الفردى . وقد أفادت الصناعة البزنطية من هذا للصناع الأحرار والاختراع ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة (٢٠).

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعضيدها ، وبمراقبة الأهوسة ، والموانى وتنظيم التأمينات والقروض بضان السفن ، وتشين حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوربا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل فى جميع الأعمال التجارية – فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات (٢١) . وكادت هى تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها في سيادتها التجارية القديمة على بحرايجة والبحر الأسود بسياحها إلى التجار الأجانب – الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والأملفيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنويين ، والمورين ، والمورين ، والمطلانيين – بنقل والبنادةة ، والجنويين ، والمورين ، والمورين ، والموريين ، والموريين ، والمعلانيين – بنقل

معظم بضائعها هي ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة في العاصمة أو بالقرب منها . وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة بائبي عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر في المائة ، أو بأقل من ذلك في بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيرى العدد ، ولعل المرابين في القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل (٢٢) ، ووضعوا أوسع نظام للائمان عرفه العالم المسيحي قبل القرن النالث عشر .

# الفصل لخامس

## الهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، إحياء عجيب للآداب والفنون في القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الروماني . فأضحت اللغة اليونانية في الشرق البنزنطي من أيام هرقل هي لغة الحكومة ، والأدب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومي . وأصبح التعليم كله يونانيا ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدراً ما من التعليم ؛ وأحيا قيصر بارداس محل التي تركت لتضمحل ( ٨٦٣ ) Caesar Baradas وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات في عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج في فقه اللغة ، والفاسفة ، وعلوم الدين، والهيئة ، والرياضة، والأحياء ، والموسيقي ، والإداب ؛ وحتى ليبانيوس الوثني والوشيان الكافر كانا متعنمين . وكان النعليم في العادة من غير أجر للطلاب ذوى المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسن . وكثرت في البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ برواثع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التي جر عليها النسيان ذيوله في الغرب المضطرب.

وكان انتقال البر اث اليوناني في هذا النطاق الواسع منها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقوياً للتفكير وموسعاً لمداه ، ومشجعاً على الخروج من أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجدل الديني . ولكن ثراءه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توائم النساء المثقفات ذوات الفراغ ؛ والرجال المثقفين الذين لا يعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية ؛ ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلمها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسما في مراحله الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أتى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدى التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصراً آخر من عصور النهضة العلمية شبها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون في علم العروض ، ويؤلفون الكتب المجملة ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas الدووين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالي ٨١٤) وليو الشهاس (المولود في عام ٩٥٠) وألف ثيوفانيس (حوالي ٨١٤) وليو الشهاس (المولود في عام ٩٥٠) تاريخين قيمين الأيامهما والأيام القريبة منها ، وألف بولس الإيجيني تاريخين قيمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Coribasius ، المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Coribasius ، والتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ؛ ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام

وكان أعظم العلماء البيز نطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليو السلانيكي (حوالي ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظاء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك فى نقاش مسائل هندسية فى قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليو فى ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبر اطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعين ليو أستاذاً . وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف فى الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل فى الهندسة والهيئة وستر من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألنى رطل من الذهب إذ أعاره ليو إلى أجل قصر . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً الأساقفة سسلانيك لكى يبعده عن متناول يد المأمون وي

وكان ليو ، وفوتيوس Photius ، ويسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتيوس ( ٢٨٢٠ - ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتنى في خلال ستة أيام من رجل عادى إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الدينى ، وأما ميخائيل بسلوس ( ١٠١٨ ؟ – ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، في وسعه أن يبهر الناس في كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش ديني وكل ثورة في القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلم الفلسفة في جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهداً من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته منسعاً للكتابة في السياسة ، والعلوم ، والنحو، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيق والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان اللسائس والمخازى التى، حدثت فى ماثة عام ( ٩٧٦ – ٩٧٨ ) بصراحة ، وحماسة وكبرياء ( نقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس ، (٢٥٥) . وها هى. ذى فقرة من وصفه للثورة التى أعادت ثيودورا إلى العرش فى عام ١٠٥٥ . خصرها مثلا لما قلناه :

وكان كل (جندى في الجمع) مسلحاً: فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد، وآخر يحمل بلطة حرية، وثالث يحمل قوساً، ورابع يحمل حربة. وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة، وأخذوا جيعاً بهرولون ماضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة، وأصمت أذنها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصح ولجأوا معها إلى العنف، فاستل بعضهم خناجرهم، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوها ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس، وألبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوها جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظاؤهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم (٢٦).

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغته رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس في زمانه ، وكانت ملحه الحبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الجنم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتيوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin ، وبراباني Rabani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون في الغرب في أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحى النهضة الديزنطية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت فى خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و ٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت المجسم أو بالصور وإن كانت فى الثانية أقل صرامة

منها فى الأولى. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بان حررته من الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية ، ونهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية وتصويرها وتزييما. فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية ، والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ، ونبات الحقول وفاكهما ، وما يجرى فى البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ باسيل الأول فى قصره النيا هم أو الكنيسة الجديدة ، «وزيما كلها » على حد قول كاتب معاصر « باللالى الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء ، والحرير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه » (٢٧) .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التى أزيح عنها الستار حديثاً فى كنيسة أياصوفيا . وقد أعبد بناء قبنها الوسطى فى عام ٩٧٥ بعد أن دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتى تمثل المسيح جالساً على قوس قزح، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء فى عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما تنبعث فى الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتهرت أبوابها المرزية التى وضعت فيها عام ٨٣٨ بجالها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن يأمرون بأن تصنع فى القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتى كازينو Monte بأمرون بأن تصنع فى القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتى كازينو Monte رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع فى القسطنطينية عام رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع فى القسطنطينية عام ١٠٧٠ قائما حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصلاً ه مجموعة متز ايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحهامات ، والأجنحة المنعزلة ، و الحدائق ، والدهاليز ذات العدد، والأبهاء . وقلمًا جلس إمبر اطور على العرش إلاأضاف إليه شيئاً جديداً. وخلع ثيو فياس على هذه المجموعة مسحة شرقية جديدة بأن أضاف إلها حجرة للعرش تعرف باسم الثر يكنكوس Triconchos

وهو امم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتي تكوّن ثلاثة من جوانها ـــ وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسن . وتد شاد ف الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلوة وفي الجهة الجنوبية منها عدة إ من البلياقا Beliaka أو حجرات الشمس ، والكاملات وهي حجرات ذوات عسقف من الدهب، وعمد من الرخام الأخضر، وفسيفساء غاية في الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجالا ونـاء يجمعون الفاكهة . وهذا النقش تفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من وراثها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض سهو التوافق الذي تحسبه مرجاً مليثاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان لذوقه الغريب الشاذ وافتنانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان في قصره بمجنورا Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبي المقعد الملكي حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحت قدميه ، فإذا ما مثل بن يديه سفير أجنى قامت الحيوانات الحرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزأرت ، وغنت الطيور أغاني آلية(٢٨) . وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التي كانت في قصر هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذى ينفق فى تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية فى الدولة . ولكن ما بتى من هذا المال كان يكفى لتزيين عواصم الولايات زينة أقل من زينة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العدد ، وعاد إليها ثراؤها : فنى القرن العاشر أنشى دير لقرا Lavra ودبر العرون Athos فى آئوس Athos وفى القرن الحادى عشر أقيم دير دافنى المؤرون Daphn! وتعد فسيفساوه التى لا تكاد تتفترق عن الفسيفساء اليونانية واله ومائمة القديمة أجمل مثل للطراز البيزنطى

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغري في هذه الجركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البنزنطي . واستثارت المباني العامة في أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت في ببت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما يمض على انتصارات هرقل إلا قليل ؛ وفي مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العرفى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة فى حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبنزنطية من حذق فى أشغال المعادن ، والعاج ، والحشب ، والنسيج لم ينتقص منه شيء . وأخرج اضطهاد محطمي الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبي إبطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ، وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقين ازدهر الطراز المعارى والزخرق البيزنطي في باری ، وأترنتو ، وبنڤنتو ، ونابلی ، ورومة نفسها . وظلت راڤنا يونانية فى فنها ، وأخرجت فى القرن السابع الفسيفساء الضخمة التي نشاهدها فى سانت أيولينارس St. Appolinaris في كلاس Classe . وظلت سلانيك بمُ نطية ، وزيئت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من الفسيفساء نحيلة كالقديسين الدين صوّرهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية فى جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت فى العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية فى الفسيفساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والميناء ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها ، أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ، وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ، وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهداه الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة تمين. الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجبب الملاشية (\*) التي تبرز مفاخر فن النسيج البنزنطي . وكانت « عباءة شارلمان » في كنيسة متز والحرير الرقيق. الذي وجد بآخن Aachen في تابوت ذلك الملك من هذا الطراز . وكان مصدر نصف الفخامة التي تحيط بالإمىراطور البيزنطي ، وكثير من الرهبة التي ترفع من مقام البطريق ، وبعض الأبهة التي تكسور المُخَلِّصُ ﴾ والعذراء والشهداء في شعائر الكنيسة ؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التي أنفقت فها حياة عدد من الصناع ، وازدانت. بفن القرون الطوال، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلى الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفني حتى القرن الثالث. عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس باليندقية مليئة بثمار فنهم . · ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التي. وجدت في كنيسة القديس أوقا والمحفوظة في كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes في باريس ؛ ورأس المسيح المتوهيج المنقوش في فسيفساء ديسيز في كنيسة أياصوفيا ؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التي . تغطى أربعين ياردة مربعة ، والتي استخرجت في اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (٢٩). ولما خفّت حدة محطمي الأصنام ، وفي الأماكن التي لم تصل إلها حركتهم ، غذت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائي الفردي ، والتي تكتنفها أحياناً. أُطر منقوشة بالميناء أو الجواهر . وليس في تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « روئيا حزقيال » التي يحتولها مجلد من عظات جريجوري نزيانزين محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس (٣٠) ، أو الصور الإيضاحية الأربعائة التي يحتوبها مخطوط و المناجاة » (Monologus) المحفوظ في الفاتكان ( حوالي.

<sup>(\*)</sup> نوع من الجبب يلبسها شامسة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحياناً والاسم مشتقى من مقاطعة دلماشيا على البحر الأدرياوي . ( المترجم )

عام ١٠٠٠)؛ أو صور داود فى كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ١٠٠٠). نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإرراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوى البراق ، وبالحيال الحي ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجم المؤتلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، تتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساقى ، والعقود والإيوانات — فيها طبور تنقر الفاكهة ، ودببة ترقص ، ووعول وعجول تنشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الحبيثة ليمثل بها الحرف الأول من جملة دينيه (١٦).

ولقد عرف صانعو الفخار البيز نطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالميناء ، وذلك بأن يضعوا على. الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنيا إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقا ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور في القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال الميناء من رصائع للصور ، ومن صبور للقديسين ، وصلبان ، ومن علب لحفظ المخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرابين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيز نطية من فار س الساسانية منذ ذلك العهد البعيدو هو القرن السادس ، فن الميناء المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة في السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرنى. ومن أعظم الأمثلة لفن الميناء المقسم وأوسعها شهرة علبة لحفظ المخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطنين برفيروجنتس محفوظة الآن في لمبورج Lemburg وهي بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها و فى أمانة صانعها ، و فى نقوشها الزخرفية الموفورة . وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطي وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد في عام ٧٨٧ قلد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها »(٣٢) . ومن ثم، كانت النزعة الجدية المكتئبة لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل في أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته في عالم الواقعية ،. والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير في تنميقه ولألاثه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناضج من تنوع وقوة ، ومن نزعة دنيوية شائنة ﴿ ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا؛ من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحي على بكرة أبيه من كيف. إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت. بن الفينة والفينة تنحني له إجلالا وتكريما . ولقد كان في أشكاله السورية-نصيب مع الفن الفارسي في تكوين موضوعات الفن الإسلامي في العارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فنها على صورة فن القسطنطينية ، كما حذا الفن في كنيسة القديس مرقس حذوكنيسة الرسل في تلك المدينة ؛ وظهر فن العارة البيزنطية في فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن ، وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيز نطى. من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن ببز نطية دينُما وزخارفها ؛ ولما اعتنق ڤلادمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البنزنطي إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشرهى، السائدة في أوربا المسيحية في النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال هوفي الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها جيم عائلها في فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما في دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى . تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما في محاربها وقصورها من ذهب ورخام هو

عرق العال الذين يكدحون في الأرض قد تبدل وتجسم : وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها فى زمانها ، قاسية؛ وكان فى وسع الرجل الذى يخر راكعاً أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موربق أمام عيني أبهم . وكان في هذه الثقافة شيء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطى بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف (\*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ه ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب في الأدب البيزنطي أثار خيال بني الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليوناني في العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظم الذي انحدر إليه من الأيام الحالية ، وسجن في المتاهة الدينية التي فقدت فها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية. المسيح ، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعا لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أوعلى كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى فى كل خروج على الدين خيانة للدولة .

لكننا لانزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ع ترى ما هى الموارد الحفية ، وما هى القوة الحيوية الكامنة ، التى أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس فى آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسهانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التى . أضعفت الدفاع عن الدولة باعتهاد أهلها على غلفات القديسين ومعجز اتهم قد بثت . بعض النظام والتأديب فى شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته فى فترات نوبات من

<sup>(\*)</sup> طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية في عام ٦٦٩ أن يكون للإمبر اطورية ثلاثة أباطرة في وقت و احد ليتفق معذا مع الثالوث الديني(٣٧)

الاضطراب، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهما التبديل . وقد أكسبها البروقراطية الحالدة بهيئها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل مهما جميع الحروب والثورات، وحافظت على السلام فى الداخل، ونظمت اقتصادياتها ، وجبيت الضرائب التى أمكنت الإمبراطورية من أن توسع رقعها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام چستنيان . وأكبر الظن أن موارد الحلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة، ولقد كان ضعف نظام الحكرمة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوقاء بحاجات الدولة ، سبباً في تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت الف عام حصناً حصيناً وقى أوروبا هجات الفرس والدولة الإسلامية في المشرق ، وثانيها أنها احتفظت في أمانة بالنصوص التي أعيد فيها تسجيل آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوربا حيث بقيت حي نهما الصليبيون في عام ١٧٠٤ . وجاء الرهبان الفارون من وجه عطمي الصور والتماثيل المقدسة بالخطوطات اليونانية إلى جنوبي إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ؛ وغادر الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبين على السواء ، واستقروا أحياناً في إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبدور الآداب القديمة ؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاما بعد عام تستكشف بلاد اليونان من جديد ، وظل الناس يغترقون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى تملوا . وثالثها وآخرها أن بزنطية هي التي أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير الهمجية إلى المسبحية ، وصمت قوة الجسم الصقلي التي لا حد لها إلى روح ، أوربا وحياتها ومصائرها .

# الفصل لساس

#### البلقان ( ۱۰۵۷ – ۱۰۵۷ )

على بعد بضعة أميال لا أكثر في شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحتقرون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكد موجة المون تتراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبي الروسيا (٥٥٨) واسترقنوا جموعا من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٢٦٥) ، ودفعوا اللمبارد أمامهم إلى إيطاليا (٨٦٥) ، وعاثوا في بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحى منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآقار سلطانهم في وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطي إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية في عام ٢٢٦ وكادوا يستولون عليها ؛ وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم في عام ٥٠٨ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئا .

وكان البلغار ، وهم فى أصلهم خليط من اللهم الهونى ، والأجرى Ugrian والتركى ، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبر اطورية الهون فى المروسيا ؛ وأقام فرع منهم بعد موت أثلا Aiilla مملكة لهم ... و بلغاريا القديمة » ... على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مز دهرة حتى خرسها التتار فى القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم فى القرن الحامس نحو الجنوب الغربى الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم فى القرن الحامس نحو الجنوب الغربى إلى وادى الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهى قبيلة الميوتجر لاناوب ( ٦٧٩ ) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية فى موثية يا

Moesia واسترقتُّوا من فها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلى . وبلغت الدولة الجديدة أوَجها في عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة الهمج دهاء المتحضرين . وغزا الـاقان مقدونية ــ إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية ــ ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسهاة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكال له الإسراطور نقفور الصاع صاعن وأحرق بلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليوناني في كمين نصبه له في أحلم ممرات الجبال ، وقتل نقفور ، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية فى عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التي غزتها في عام ١٩١٣ . وبينا هو يعد العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية في عهد الخان بوريس Boris ( ۸۸۸ ــ ۸۵۲ ) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر ڤلادمبر ، ويُنجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simenn ( ٩٢٧ ــ ٩٢٧ ) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومى لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وستّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياوي ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكما مطلقا لجميع البلغار والبوذان ، ، وشن الحرب عدة مرار على بيزنطية ، لكنه حاول أن بدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجمل عاصمته في أقاليم الدانوب برواثع الفن اليوناني . ويصف أحد معاصريه مدينة برسبلاف Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، مليئة « بالقصور والكنائس الشامخة » الكثيرة الزخرف ؛ ولقد كانت في القرن الثالث عشر أكبر مدينة فى بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمن شيوعين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها فى عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمر اطور يوحنا تزيمسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمر اطورية اليونانية فى عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثانى بلغاريا الغربية فى عام ٩٧٢ ، وبندل المانى بلغاريا الغربية فى عام ١٠١٤ ) مرة أخرى ولاية تابعة لبرنطية .

وفى أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر. والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التي يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول ، والتي كانت تضرب في البلاد المصاقبة لحدود الصن الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هونى وتركى كثير لطول اختلاطهم مهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتي الفين ( أهل فنلندة ) والسمويد Somoyeds . وقد هاجروا في القرن التاسع الميلادي من سهوب الأورال وبحر الخزر ( قزوين ) إلى الأراضي المجاورة لنهرى الدن والدنير Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض في الصيف ، وصيد السمك في الشتاء ، واقتناص الصقالبة وبيعهم عبيداً إلى اليونان في حميع فصول العام . وبعد أن أقاموا في أكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى في اتجاه الغرب. وكانت أوربا وقتئذ في الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف في وجههم جيش قوى . لهذا اجتاح المجر بسرابيا Bessarabia وملدافيا McIdavia (البغدان) في عام ٨٨٩، وشرعوا في عام ٨٩٥ في فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا ( الحبر) بقيادة زعيمهم أرياد Arpad . وفعام ٨٩٩ عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إبطاليا ، وأحرقوا پاڤيا Pavia وكنائسها الثلاث والأربعين

جميعها ، وذبحوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملا يعيثون فى شبه الجزيرة فساداً ، ثم فتحوا پنونيا Pannonia ، وأغاروا على پاڤاريا Bavaria ( ٩٠٠ – ۹۰۷) ، وحربوا كارنثيا Carinthia ( ۹۰۱) ، واستولوا على موراثيا Moravia ( ٩٠٦ ) ، ونهبوا سكسوئيا ، وثورنجيا Thuringia ، وسوابيا Swabia ( ٩١٧ ) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace ) ، وانقضوا فجاءة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر الله Lech. أحد روافد الدانوب ( ٩٢٤ ) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا ٰإلى خالقهم بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا. لا يزالون أقواماً وثنيين ، . ولاح أن العالم المسيحي مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُـزموا عند جوثًا Gotha في عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا إيطاليا مرة أخرى في عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا في عام ٩٥٥ . وانتهى الأمر في ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أتو Otto الأول في معركة حاسمة في لكفلد Lect.feld أو وادى النَّك بالقرب من مدينة أُوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوربا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس الصعداء بين خرباتها بعد أن حاربت في قرن واحد ( ٨٤١ ــ ٩٥٥ ) النورمان في الشمال ، والمسلمين في الجنوب ، والمجر في الشرق .

وبعد أن خضع المجر أضحت أوربا أكثر أمناً مماكانت لاحتناقهم الدين المسيحى ( ٩٧٥ ) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا فى الإمير اطورية البيزنطية التى عادت وقتئذ توسع رقعها ، ولهذا اختار المذهب المسيحى اللاتيني لكى يسالمه الغرب، وزاد على ذلك بأن زوج ابنه استيفن من جزيلا Gisela ابنة هنرى الثانى دوق پاڤاريا . وأمسى استيفن الأول ( ٩٩٧ – جزيلا ١٠٣٨ ) شفيعاً لهنغاريا وراعها وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شئون المجرعلى غرار النظام الإقطاعي الألماني ، وقوى الأساس الديني الذي أقام عليه المجتمع الجديد بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلقستر Sylvester الثاني ( ١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده ، وأنشأوا الأدبرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليباً إلى صديق لها ألماني كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقالبة إقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كيف ، ومهيلف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندى أور في يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تجتاج بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرَكَتُونَ ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقروالظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نسائهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التي لم ينطني لها سعير . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؟ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ؛ ثم استسلموا آخر آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطارَدُون ويتُلفعون إلى المناقع والغابات التي يتعذر الوصول إليها ، ثم يؤمرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذ كانوا يعيشون في أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يدفئوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذي يحرم الحمور (٣٤) . وكانت أبرز عيومهم هي السكّر ، والقذارة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب. وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فيهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طببي القـــلوب ، أَسخياء ، حسى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقي ، والغناء . وكان زعماؤهم كثيرًى الازواج ، أما الفقراءفكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

ــ اللاتي يشترين بالمال أو يؤسرن في الحروب ليتخذن زوجات ــ وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن (٢٥) . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى في عشائر ثم تنتظم العشائر في قبائل . ولربما كان للشعاثر أملاك مشتركة في مراحل الرعى الأولى (٣١٠) ، ولكن قيام الزراعة - التى تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية فى التربة المختلفة الخصوبة : ثماراً غير متساوية ــ أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أوالأسر وكثيراً ما كان الصقالبة يتفرقون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : اليولندية والونديشية Wendish ، والتشكية ، والسلوقاكية في الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo·Croat ، والبلغارية فى الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانيةRurhenian & Ukrainian) في الغرب. على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قدظلوا يفهمون كل واحدة منها ؟ وكانتُ جامعة اللغة والعادات بين الصقالبة ، مضاقة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً في از دياد قوة الصقالبة الآخذة في الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوبا وغربا في هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان في شالى ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالبة نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة ، فانتشروا غربا وعبروا نهر اللهستيولا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ، وكانوا في هذه الأرض هم الوند Wend ، والهولنديين ، والتشك ، والفلاخ Viache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيا بعد . وحدث في أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقث المدن بامها دونه ، ولكن دما صقلبيا غزيراً امتزج بالدم الهليني . وجاءت حوالي عام ١٤٠ قبيلتان صقلبيتان ذواتي قربي هما الصربي Srbi ،

والكروباتي Chrobati ، واستوطنتا بانونيا والبركم Chrobati من جديد . واعتنق الصرب المذهب اليوناني المسبحي ، واعتنق الكروات المذهب الروماني . وأضعف هذا الانقسام الديني ، الذي عاق الوحدة الجنسية واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين الاستقلال تارة ، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلادمير الصربي ، وأسره ، مأم زوجه بابنته كسارا محتمل المسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Xita على أن يكون فيها أميراً من قبل فلدمير . ذلك هو موضوع أقدم الروابات على أن يكون فيها أميراً من قبل فلدمير . ذلك هو موضوع أقدم الروابات القصصية الصربية فلدمير وكسارا التي ألفت في القرن الثالث عشر . واحتفظت المدن الساحلية في دلماشيا القديمة — زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا مقلبية . وحرر الأمير فواسلاف صربياً في عام ١٠٤٢ ولكنها عادت فاعترفت بسيادة بيزنطية في القرن الثاني عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجيبة تمامها فى أواخر القرن الثامن أمست أوربا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بحراً صقلبياً تصطدم أمواجه بحدود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

## الفصلاليابع

## مولد الروسيا (٥٠٩ ــ ١٠٥٤)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقوام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون في تربة الروسيا الحصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ؛ ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعاقل الطبيعية التي تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جدباً آى على شاطئ البحر الأسود الغربي والشهالي نحو عشرين بلدة – ألبيا جدباً آى على شاطئ البحر الأسود الغربي والشهالي نحو عشرين بلدة – ألبيا مانقي من أصل وتانيس Kerch ، وأبودوسيا Theodocia ، وينتيكپيوم هده البلاد أو ناصروهم . وسرت إلى هؤلاء الأقوام – وأكبر الظن أنهم من أصل إيراني – بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم من أصل إيراني – بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف – أناخارسيس Anacharsis ق . م – قدم إلى أثينة وتناقش مع صواون .

ثم أقبلت في القرن الثاني قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هي قبيلة السرمانين ، هزمت السكوذين وسكنت ديارهم ؛ واضمحات المستعمرات اليونانية في هذا الاضطراب . ودخل البلاد القوط من الغرب القرن الثانى بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالى عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو حم البلغار ، والآثار ، والصقالبة ، والخزر ، والمجر ، والبريناك بدو حم الكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركى زحفوا في القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبي الروسيا ، وأنشأوا

مُلْكًا منظا امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا عاصمة لهم هي مدينة إنيل اtil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستر اخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودى. وكانت تحيط مهم الدولتان المسيحية والإسلامية ، ولكنهم فضلوا فى أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة مهما غضباً يعرضهم للخطر ، وأطلقوا في الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة ، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس ـــ اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للكفرة الوثنيين . وكان يسمح باستثناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين ، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى(٣٧) . واجتمع التجار على اختلاف أديانهم في مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنبرة ، فنشأت هناك من ذلك نجارة منتعشة بين البحر البلطى وبحر قزوين ، وأصبحت إنيل في القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية . وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria في القرن التاسع ؛ وعجزت. الحكومة عن أن تحمى مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة ، وذابت. مملكة الخزر في القرن العاشر وعادت إلى الفوضي العنصرية التي نشأت منها .

وجاءت من جبال الكربات فى القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الحليط الضارب فى روسيا الجنوبية والوسطى . واستقرت هذه القبائل فى واديي الدنيير والدن ، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن السمال ، الشمال ، وظل أفر ادها عدة قرون يتضاعفون ، وهم فى كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات ، ويقتلون الوحوش البرية ، وينشئون بلاد أكر انيا . وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشرى لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون ، ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقر هم قرار بها جرون إلى بلاد القفقاس والتركستان ، وإلى أقاليم أور الوسيبيريا ؛ ولا تزال

عملية الاستعار هذه في مجراها في هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلبي العجاج يدخل كل عام في خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلبي فى بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشهال الإسكنديناويين كان في وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونهما من هجههم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيركندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسيانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات موالفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون مها الجماعات الضاربة حول البحر البلطي، والفنانديين ، والصقالبة ، ثم يعودون بجر الحقائب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians ( « أتباع » الزعيم ) أنديحموا تلصصهم بالقانونِ والنظام فأقامُوا مراكز محصنة في طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج. وكانوا أقلية اسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعي . ويبدُّو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم (٣٨) ؛ ولم يكد ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نڤجورود « الحصن الجديد » ، وبسطوا ملكهم حتى وصلو إلى كيف في الجنوب . وارتبطت الطرق والمحلات التي كانوا يسيطرون عليها برباط غبر وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهي كلمة لايزال اشتقاقها مثاراً للجدلالشديد . وربطت الأنهار العظيمة التي تخترق البلاد البحرين الأبيض في الشمال والأسود في الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحوالجنوب. وسرعان ما أخذ تعؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم فى القسطنطينية نفسها . ثم حدثما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحت التجارة على أمهار الدنير ، والثلخوف Volkhov ، ودوينا الغربي أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أُقبل التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ، والكهرمان ، وعسل النحل ، وشعه ، والرقيق ، بالتوابل ، والحمور ، والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية واليزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفى اسكنديناوة نفسها . ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرق دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة في شرق هذا البحر ، واضمحلت مرسيليا ، وچنوا وبيزا في القرنين التاسع والعاشر ، وازدهرت في مقابل هذا في الروسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك وازدهرت في مقابل هذا في الروسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلبية ، والإسلامية ، والبزنطية .

وخلع السجل القريم الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن «الأمراء الثلاثة »: وخلاصها أن السكان الفنلنديين والصقالبة فى نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتون فيا بيهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن برسلوا لهم حاكما أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى القصة ، ثلاثة إخوة — روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروقور القصة مادقة رغم القصة ، ثلاثة إخوة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنيا لفتح تفجورود على يد الاسكنديناويين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من اعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir نيستوليا على القسطنطينية ، وأن عن روريك والحزر جميعاً .

وبلغت كيف فى عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ؛ وأخفقت الحملة فى مهمتها ، ولكن كيف بقيت كما كانت مركز آ لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً واسعة ممتدة خلفها . وفي وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين \_ أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإبجور الإروريك حاكم تفجورود ... هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإبجور ، وألجا Oelga الأميرة القديرة أرملة أولج ... وابنها المحارب اسفياتسلاف وألجا Sivatoslav ( ۹۷۲ - ۹۲۲ ) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوائها القبائل الصقلبية كلها تقريباً ، ومدائن پولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ، وشرنجوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين على ١٠٤٣ ، ١٠٤٣ ، ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .

واعتنقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم قلديمبر الخامس ( ٩٧٢ – ١٠١٥ ) « دوق كيڤ الأكبر » ، الدين المسيحي ( ٩٨٩ ) . وتزوج فلاديمبر أخت الإمبراطور باسيل الثاني ، وظلت الروسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية في دينها ، وحروفها الهجاثية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان المُلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع في تثبيت النظام الاجتماعي واستقرار الملكية المطلقة (٢٩) . وبلغت دولة كيف أوج عزها فی عهد يروسلاف Yaroslav ( ١٠٥١ – ١٠٥٤ ) بن ڤلاديمر ، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد المعتدة من بحيرة الموجا Ladoga والبحر البلطى إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ، والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تجبي إليها من هذه البلاد . وامتصت فى جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبي واللغة الصقلية . وكان نظامها الآجماعي أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبسلاء ، وطائفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكي dietski أو الأوتروكي Otroki أي الحدم أو الأتباع . ويلي هوالاء في المنزلة طبقة . التجار، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا پرافدا Raskaya Pravda أو الحق الروسى ، الثأر الشخصى والمبارزة القانونية ، وتبرئة المهم بناء على أيمان الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدى اثنى عشر محلفين من المواطنين (٢٠٠) . وأنشأ فلاديمبر مدرسة للأولاد في كيف، وأنشأ باروسلاف مدرسة أخرى في نفجورود . وكانت كيف وهي ملتق السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف ، ودفينا ، ودنيهر الأدنى تجي الضرائب على جميع المتاجر المارة مها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تشيد أربعائة كنيسة ، وكندرائية كبيرة – تضارع أياصوفيا – على الطراز البيزنطي . وجيء بالفنانين اليونان ليزينوا هذه المباني بالفسيقساء ، والمظلمات وغيرها من ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فها الموسيق اليونانية لتمهد السبيل إلى نصرة الأعاني الروسية الجاعية . وأخذت الروسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب ، وتبني القصور لأمرائها ، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم عل بناء جزائر صغرى من الحضارة في بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .

# الباب *الناسع عبشر* اضمحلال الغرب

### < - " 1.77 - 077

بيناكان الإسلام يشق طريقه في أنحاء العالم ، وبيناكانت بنزنطية نفيق من الضربات التي بدت قاصمة لظهرها ، كانت أوربا تكافح للخروج من دياجىر « العصور المظلمة » . وهذا تعبىر غير دقيق في وسع كل إنسان أن يعرُّفه كما يهوى ؛ أما نحن فسنقصره تعسفاً منا على أوربا غير الييزنطية في الفترة الواقعة بن موت بوثيثيوس Boethius عام ٧٤٥ ومولد أبيلار Abelard في عام ١٠٧٩ . وظلت الحضارة البيز نطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرته الدولة من أملاكها ومهابتها ؛ أما أوربا الغربية فكانت في القرن السادس الميلادي مسرحًا لفوضي الفتوح ، والانحلال ، والعودة إلى الهمجية . نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة تمد بني فمها ، وإن كأن معظمه صامتاً محبوءاً في عدد قليل من الأديرة والأسر ، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التي يقوم عامها النظام الاجتماعي كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال . ذلك أن الولع بالآداب ، والإخلاص للفن ، ووحدة الثقافة واتصالها ، وتجاوب العقول بعضها مع بعض تجاوباً يشحذها ويخصما ، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب وويلاتها ، وأخطار طرق النقل ، والأساليب الاقتصادية في البيئات الفقيرة ، ونشأة اللغات القومية ، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب. وعجلت في القرنين التاسع والعاشر سيطرة المسلمين على البحر المتوسط، وغارات النورمان ، والحجر، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعة التخصص في أساليب الحياة ووسائل الدفاع وبدائية الفكر والكلام . وكانت ألمانيا وأوربا الشرقية ملتى تيارات متعارضة من الحج ات ، واسكنديناوة معششاً للقراصنة ، وبريطانيا تجتاحها قبائل الإنجليز ، والسكسون ، والجوت ، والدنمرقين ؛ وغالة بهاجمها الفرنجة ، والنورمان ، والبرغنديون ، والقوط ؛ وأسيانيا يتنازعها القوط الغربيون والمسلمون ؛ وكانت إيطاليا قد حطمها الحروب الطوال التى دارت رحاها بين القوط والبنزنطيين ؛ وظلت البلاد التى وهبت نصف دارت رحاها بين القوط والبنزنطيين ؛ وظلت البلاد التى وهبت نصف العالم الأمن والنظام تعانى خمسة قرون طوال مساوئ الانحلال في الأخلاق. والاقتصاد ، وأنظمة الحكم .

ومع هذا فإن شارلمان ، وألفرد Alfred ، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا ، وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام ، وكانوا حافزاً على السير إلى الأمام ؛ وأحيت إرچينا Erigena موات الفلسفة ، وجدد ألكوين Alcuin وغيره ، نشاط النعليم ، وأدخل جربرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية ؛ وأصلح ليو التاسع وجريجورى السابع نظم الكنيسة وبعثا فيها القوة ، ونشأ في فن العارة طراز الزخرف الروماني ؛ وبدأت أوربا في القرن الحادى عشر رقيها البطيء إلى ما وصلت إليه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أي إلى أعظم ما بلغته في العصور الوسطى بأجمعها ،

## الفضل الأقل

### إيطاليا

#### ١ - اللمبارد: ٢٨٥ - ١٧٧٤

انطفأ سراج الحكم البيزنطى فى إيطاليا الشمالية بعد اللاث سنين من موت جستنيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد .

ويظن پولس الشاس – وهو واحد منهم – أن اللمبارد أو اللنجوباردی Longobardi قد سموا بهذا الاسم لطول لحاهم (۱) ، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصلى كان في اسكنديناوة (۱۲) ، ولحذا فإن دانتي ، وهو من نسلهم (۱۲) ، يوجه الخطاب إليهم بهدا الوصف (۱۱) . ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدنى في القرن الأول الميلادي ، وعلى ضفاف الدنواب في القرن السادس ، ويستخدمهم نارسيس Narses في حروبه الإيطالية التي دارت رحاها عام ۱۹۵ ، ثم يعيدهم إلى پانونيا بعد أن يحرز النصر . ثم يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشهال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشهال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون الألب إلى دلمبارديا ، سهول اليو الخصيبة . ولعل تارسيس كان يستطيع وقف سيرهم ، ولكنه كان قد خلع وجلله العار قبل عام من ذلك الوقت ؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآفار والقرس ؛ ولم يكن لديها من المال ما تنفقه في أعمال البطولة التي يفيد منها غيرها . ولهذا فإنه لم يحل عام ۱۳۷ حتى استولى اللمبارد على قرونا ، وميلان ، وفلورنس ، وبافيا – وقد أصبحت حتى استولى اللمبارد على قرونا ، وميلان ، وفلورنس ، وبافيا – وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم ؛ وفي عام ۱۰ ۱ استولوا على بدوا ، وفي المحاهم وفي عام ۱۰ ۱ استولوا على بدوا ، وفي المحاء وفي عام ۱۰ ۱ استولوا على بدوا ، وفي عام ۱۰ ۱ استولوا عام ۱ ۱ و الميار دا و القري الميار والغرور الميار الميار السيولوا و الميار المي

على كرمونا Cremona ومنتوا Mantua ؛ وفى ١٤٠ على چنوا ، وانتزع اليوتيراند Liutprand أعظم ملوكهم ( ٧١٧ – ٧٤٤) راڤنا فى شرقى إيطاليا ، واسپوليتو Spoleto فى وسطها ، وبنڤنتو فى جنوبها ، وكان يطمح إلى جمع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه . غير أن البابا جربجورى الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية ؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد ، وأعاد هولاء راڤنا إلى بيزنطية . ولم ير ليوتيراند بكداً من أن يقنع يحكم شمالى إيطاليا ووسطها أصلح حكم مر عليهما منذ أيام ثيودريك القرطى ، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة (٥٠) .

وأنشأ اللمبارد حضارة خطت فى مدارج الرقى . وكانوا يختارون ملكهم ؛ وكان هذا يستشير في شئون الحكم مجلساً من الأعيان ، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الحدمة العسكرية . ونشر ملیکهم راثاری Rathari ( ٦٤٣ ) کتاب قوانین جمعت بین البدائیة والتقدمية : فكانت تبيح أداء الدية المالية جراء للقتل ؛ وأرادت أن تحمى الفقراء من الأغنياء ، وكانت تسخر من السحر والشعوذة ، وتبيح حرية العبادة للكاثوليك ، والأريوسيين . ، والوثنيين على السواء (٦٠ . وامتص الدم الإيطالى الغزاة الألمان عن طريق الزواج ، وانخذوا اللسان اللاتني لغة لهم ، وترك اللمبارد آثارهم فى أماكن متفرقة : فى العيون الزرقاء ، والشعر الأشقر ، وفي قليل من الكلَّات التيوتونية في اللغة الإيطالية . ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون ، عادت التجارة ــ وهي العمل الطبيعي في وادى نهر اليو ــ سيرتها الأولى ؛ ولم يكه ينتهى عصر اللمبارد حتى أثرت مدائن شهالى إيطاليا وقويت واستعدت لتلقى الفنون وخوض الحروب عندما يلغت ذروتها في العصور الوسطى . أما الأدب فكانت سوقه راكدة ، خا شأن \_ هو كتاب تاريخ اللحبارد لبولس الشهاس (حولي عام ٧٤٨) ؛ (11-57-41.3)

وهو كتاب ممل ، مشوه الترتيب ، ليس فيه مثقال ذرة من الفلسفة . واكن لمبارديا طبعت اسمها على فن العارة وشئون المال ؛ وكانت حيرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين . وكان لاحدى الحاعات ، وهي جماعة ساوة كومو ، السبق في صياغة طراز لا لمباردى ، في العارة جمعته من أصول متعددة ، وازدهر فيا بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسي .

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللمباردية على صخرة البابوية . ثم استولى الملك إيستلف Aistulf على راڤنا في عام ٧٥١ ، وأنهى بذلك تبعيتها لبزنطية ، وإذ كانت دوقية رومة قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولى المقم فى راڤنا فإن أيستلف طالب بحقه فى ضم رومة إلى مملكته الآخذة فى الاتساع . واستغاث البابا استيفن. الثانى بقسطنطين كبرونيموس فبعث الإمبراطور اليوناني بمذكرة غبر ذات. خطر إلى أيستلف ؛ فما كان من استيفن إلا أن استغاث بييين القصر Pepin the Short ملك الفرنجة . وكان لهذه الاستغاثة نتائج ذات شأن لم نقف عند حد . ولاح لپيپن الأمل في بناء إمبراطورية .له فعبر جبال. الألب ، ونكل بإيستلف ، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة ، وأعطى جميع يطاليا الوسطى للبابوية . وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية لأباطرة. لشرق ؟ أما إبطالبا الشمالية فقد قضى فها على سلطان بنزنطية قضاء بهائيا . رقد حاول دسيدريوس Desiderius الملك اللسباردي التابع أن يسترد ستقلال لمبارديا وفتوحها و ولكن البابا هدريان الأول استدعى لمعونته فرنجيا جديداً ، وانقض شالمان على پاڤيا ، وأرسل دسيدريوس إلي أحد. لأدىرة وقضى على مملكة اللمبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة .

### ۲ ــ النورمان في إيطاليا (۱۰۳۶ ــ ۱۰۸۵)

وتركت إيطاليا الآن تعانى الانقسام والحكم الأجنبي مدى ألف عام ، لن نعني بتسجيل تفاصيل حوادثها . وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا فى ١٠٣٦ يفتحون إبطاليا الجنوبية وينتزعونها من الدولة البنزنطية . ذلك أنه كان من عادة أشراف نورمنديا أن يوزعوا أراضهم على أبنائهم بالتساوى كما يفعل الفرنسيون في هذه الأيام ، وكانت نتيجة هذا القانون في نورمنديا أن تجزأت أملاك الأسر في العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين أن نتيجته في فرنسا هي وجود أسر صغيرة . ولم يكن النورمان راغبين في حياة الفقر الهادئة ، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه آباؤهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب ، ولهذا أجَّر بعض شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إبطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين ، وأظهروا ضروباً من البسألة في حروبهم إلى جانب بنڤنتو ، وسلرنو ، ونابلي ، وكيوا ، وإلى جانب أعدائها ، وأعطوا مدينة أڤرسا Aversa جزاء لهم على أعمالهم. وترامى إلىمسامع غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن الأراضي تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم ، فغادروا نورمنديا إلى إيطاليا . وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاتل لحسابها ؛ ولم يحل عام ١٠٥٣ حتى أنشأ أجرأهم ربرت جوسكارد Robert Ouiscard (أى العاقل أو الماكر ) مملكة نورمندية في إيطاليا الجنوبية . وكان ربرت هذا يتصف بكل الصفات التي تخلعها الأساطير على الأبطال . كان أطول من جميع جنوده ، وكان قوى الساعدين ، صلب الرأى ، جميل الحيا ، أشقر الشعر ، أصهب اللحية ، فخم الثياب ، سخى اليد ينثر الذهب نثرًا ، قاسيًا في بعض الأحيان ، وباسلا على الدوام .

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والخداع ، فاجتاح كلمريا Calabria واستولى على بنڤنتو ، وكاد يمشى إلنها على جثة البابا ليو الناسع (١٠٥٤) ، وعقد حلفاً مع نقولا الثانى ، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأنْ يؤدى له الجزية ، وأقطعه نقولا في نظير ذلك كليريا ، وأبوليا Apulia وصقلية (١٠٥٩) . وترك ربرت أخاه الأصغر روچر ليفتح صقلیة ، واستولی هو علی باری Bari (۱۰۷۱) وطرد البنزنطین من أَبُولِياً . واغتاظ إذ وجد البحر الأدرياوى يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولى على القسطنطينية ، ويصبح أقوى ملوك أوربا جميعاً . وأنشأ من فوره عمارة بحرية ، هزم بها الأسطول البيزنطى في واقعة بحرية بالقرب من درزو ( ١٠٨١ ) ؛ واستغاثت بىزنطية بانبندقية ، فخفت هذه المدينة لمنجدتها لأنها لم تشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدرياوى ؛ وأوقعت سفائنها الماهرة في ضروب القتال هزيمة منكرة بعارة جوسكارد البحرية في عام ١٠٨٢ على بعد قليل من موضع نصره الذى ناله منذ وقت قصير . ولكن ربرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش الكسيوس الأول الإمبراطور اليوناني ، واخرق إبيروس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك . وبينا هو يوشك أن يحقق حلمه إذ تلتى دعوة حارة من البابا جريجورى السابع يستغيث به لينقذه من الإمىراطور هنرى الرابع . فما كان من ربرت إلا أن ترك جيشه في تساليا ، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا ، وحشد جيشاً من النورمان ، والطايان ، والمسلمين أنقذ به البابا، وانتزع رومة من الألمان ، وأخمد ثورة قام بها الشعب على جيشه ، وترك هذا الجبش الحانق يحرق المدينة وينهما ويخرمها تخريباً لايجاريه فيه تخريبالوندال أنفسهم لهذه المدينة ( ١٠٨٤ ) وعاد في هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذي كان في بلاد اليونان قد مزقه ألكسيوس شرممزق . وأنشأ القرصان القديم أسطولا ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو Corfu ( ١٠٨٤ ) ، واستولى على جزيرة

كفلونيا Cephalonia الأيونية ، ثم مات فيها ، بعدوى سرت إليه أو بالسم ، فى سن السبعين (١٠٨٥) . وكان هو أول القادة اللصوص فى إيطاليا (الكندتيرى Conedottieri) .

#### ٣ \_ البندقية : ( ١٠٩ \_ ١٠٩٥)

وبينا كانت هذه الأحداث تجرى في مجراها إذ ولدت دولة جديدة في الطرف الشهالى من شبه الجزيرة ، قدر لها أن تزداد قوة وعظمة حين كانت الفوضى تضرب بجرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا . وتفصيل ذلك أن سكان أكويليا Aquileia ، وبلونو Belluno ، وفلترى Feltre وغير ها من المدن فروا في أثناء غارات القبائل الهمجية في القرن الخامس والسادس و وبخاصة في أثناء غارة اللمبارد في عام ٢٥٠ لينجوا بأنفسهم من الهلاك وينضموا إلى صيادى السمك المقيمين في الجزائر الصغيرة التي كونها نهرا الهياف Piav والأدييج Adige في الطرف الشهالى من البحر الأدرياوى . هرا الهياف Piav وأنشأوا فيها مهرا الهياف Melamocco وبتي بعض هؤلاء اللاجئين في هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة ، وأنشأوا فيها محلات : هرقلية ، وملامكو Melamocco وجدادو Orado ، وليدو الخملة الأخيرة التي سميت فيها بعد ريالتو Rivo Alto عاصمة حكومتهم المتحدة المخلة الأخيرة التي سميت فيها بعد ريالتو Riato عاصمة حكومتهم المتحدة ( ٨١١ ) . وكانت قبيلة من الفنيتي Veneti عامة حكومتهم المتحدة يوليوس قيصر بزمن طويل ؛ وأطلق اسم فنيزيا Venezia في القرن الثالث عشر على المدينة الفذة التي نشأت حيثكان يقيم اللاجئون .

وكانت الحياة فيها شاقة في بادئ الأمر ، فكان من الصعب الحصول على الماء العذب، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الحمر. وأرغمت الظروف البنادقة ــ أهل قنيزيا ــ لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال القمح وغره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح ؛ وما لبثت

عجارة أوربا الشالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجاً عن طريق النغور البندقية . وأقر اتحاد المدن البندقية الجديد بسيادة بزنطية عليه ليحمى نفسه من الألمان واللمبارد ، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع في مياهها الضحلة وتعدر الهجوم عليها برآ أو بحرآ لهذا السبب ، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم ، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها ، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالا غير منقطعين مدى ألف عام .

وظل اثنا عشر تربيوناً ــ يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شئون جزيرة من الجزائر الاثني عشرة الكبيرة \_ يصرفون شئون الحكم حتى عام ٢٩٧ حين أحست هذه العشائر بحاجبها إلى سلطة عليا موحدة ، فاختارت أوّل دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شئون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشمه . ودافع اللوچ أجنلو بدور AYV -- ۸۰۹ ) Agnello Badoer عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأدواق فيما بعد يُسختارون من سلالته حتى عام ٩٤٢ . وثأرت البندقية لنفسها في عهد أرسلو Orsello الثاني ( ۱۹۹۱ – ۱۰۰۸ ) من غارات القراصنة الدلماشيين بأن هاجمت معاقلهم واستولت على دلماشيا ، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياوي . وشرع البنادقة في عام ٩٩٨ يحتفلون في عيد الصعود من كل عام لهذا النصر البحرى ﴿ وبهسذه السيادة الاحتفال الرمزى المعروف عندهم باسم اسهوزاليزيا (sposalisia) : فكان الدوج يقذف في البحر من سفينة مزينة زينة بهجة بخاتم مدشن ، وينادي باللغة اللانينية : « إنا نتزوجك أمها اليحر ، دليلا على سُلطاننا الحتى الدائم ه(٧٧) . وسَرَّ بيز نطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلا ، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية في القسطنطينية وغبرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها .

وحدث في عام ١٠٣٣ أن قضت أرستقراطية التجارعلي انتقال السلطة إلى

الأدواق عن طريق الوراثة ، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جمعية من المواطنين ، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ . وكانت البندقية في ذلك الحين فد أصبحت تلقب « بالذهبية » ( قنيسيا أوربا Venetia Aurea) ، واشتهر أهلها بثيامهم المترفة ، وبانتشار التعليم بينهم ، وبإخلاصهم اوطنهم وكبريائهم . وكانوا أقواماً نشطين راغبين في الكسب ، ماهرين ، دهاة ، شجعاناً ، ميالين للنزاع ، أتقياء ، لا يحرصون على مبدأ ، يبيعون العبيد المسيحيين للمسلمين (٨) ، وينفقون بعض مكاسهم في بناء الأضرحة للقديسين . وكان في حوانيت ريالتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعي ؛ وكانت تجارة محلية نشيطة تسمر في قنواتها ، هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ . وكانت موانئ الجزائر تجملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوربا وبلاد الشرق . وكانت قروض الرأسهاليين تموّل رحلات التجار البحرية . وتعود على أصحاب هذه الأموال بربح لا يقل عن عشرين في المائة في الأحوال العادية (٩) . واتسعت الهوة بين الأغنياء ( المحيوري ) والفتمراء (المينوري) حين ازداد ثراء الأثرياء ، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلاً . ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء ، فكان الكسب والبراء من نصيب الأسرع ، والظفر من نصبب الأقوى . فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية ، وتنساب فضلات بيوتهم فى الشوارع إلى القنوات ؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة ، وسعوا لكسب رضاء الله والناس بإقامة أفخم كنيسة كبرى في العالم اللانيبي ، وتبدلت واجهة قصر الدوج ، الني شيدتُ أول مرة في عام ٨١٤ واحترقت في عالم ٩٧٦ ، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذي هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامي والصورة التي هي من مميزات عصر النهضة .

وحدث في عام ٨٢٨ أن سرق بعض تجار البنادقة من إحدى كنائس

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس . واتخذت البندقية ذاك القديس شفيعاً لها وحامها ونهبت نصف العالم لتوارى عظامه . وبدئ بإنشاء كنبسة القديس مرقص الأولى " عام ٨٣٠ ثم دمرتها النارفي عام ٩٧٦. تدميراً رأى معه أرسيولو Orseolo الثانى أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها: رقعة . واستدعى لهذا الغرض فنانين من بيزنطية أقاموها على نمط كنيسة. الرسول المقدس في القسطنطينية \_ ذات سبع قباب فوق بناء صليى . وظل العمل فيها جاريا نحو قرن من الزمان ؟ وتم البناء الرئيسي بشكله الحاضر تقريباً في عام ١٠٧١ ، ودشن في عام ١٠٩٥ . ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار في الكنيسة عام ٩٧٦ ، وهدد فقدها. قداستها ، انفق على أن يجمع المصلون في الكنيسة في يوم تدشينها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات ، وتقول إحدى الروايات المأثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم ، وسقط على الأرض ، وكشف عن عظام القديس (١٠٠ . وتهدم البناء وأصلح مراراً ، وقلها مرت عشر سنبن دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسيناً . وليست كنيسة القديس بطرس التي نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد ، بل إنها سجل من الحجارة والجوهر لألف عام ؛ فقد أضيفت في القرن الثاني عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر ،. وجيء بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن ، وقام الفنانون البيز نطيون الدين اتخذوا البندقية وطنآ لهم بعمل فسيفساء الكنيسة في القرنيز َ الثانى عشر والثالث عشر ؛ وأخذت أربعة جياد برنزية من القسطنطينية حين استولى البنادقة عليها في عام ١٢٠٤ ، ووضعت فوق البوابة الرئيسية ٤. وأضاف الفنانون القوط في القرن الرابع عشر أبراجاً ، وشبابيك مفرغة ،. وستاراً للضريح المقدس ؛ وغطى مصورو عصر النهضة في القرن السابع. عشر نصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير . واحتفظ البناء العجيب في خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بمميزاته ووحدته ــ

فكان على الدوام بيزنطياً وعربياً ؛ منمقاً وشاذاً غير مألوف : فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس ، وأكتاف ، وأبراج مستدقة ، وأبواب ، والتفافات لوابية ، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن ، وطنف منحوتة ، وقباب بصلية الشكل . وهو من الداخل يحوى متاهة من العمد الملونة ، ومثلثات مطلية بين العقود ، ومظلات قائمة ، وحمسة آلاف ياردة موبعة من الفسيفساء ، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة ، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام ٩٧٦ في القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز ، مثقلة بألفين وأربعائة قطعة من الجواهر ، ومقاماً خلف المذبح الرئيسي منذ عام ١١٠٥ وقد عدت الرغبة الجاعة في الزخرف طورها في كنيسة القديس مرقس كما عدته في كنيسة الجاعة في الزخرف طورها في كنيسة القديس مرقس كما عدته في كنيسة وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة السيحية من ويوديه ، وتشجعه ، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة السيحية من بداية الحلق إلى نهاية العالم . وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص عليم مشاعرهم .

### ٤ \_ الحضارة الإيطالية ( ٥٦٦ \_ ١٠٩٥ )

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بيزنطية فى ثقافتها ، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تر اثالر ومان حضارة جديدة بعناصرها لغة جديدة ، ودين جديد، وفن جديد . ذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ماحل بالبلاد من غزو ، وفوضى ، وفقر . فأما اللغة الإيطالية فكانت هى اللاتينية الحشنة الى كانت تتكلم بها الجاهر فى العهد القديم ، وقد استحالت على مهل حى أضحت أكثر اللغات رخامة . وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية بجدابة ، وشرك عاطنى من القديسين الجاة المحلين ، وأساطير صريحة من جدابة ، وشرك عاطنى من القديسين الجاة المحلين ، وأساطير صريحة من

الخرافات والمعجزات. وكان الفن الإيطالي يرى أن الفن القوطى فن همجى ويستمسك بطراز الباسلفا ، (البناء الروماني المستطيل الشكل) ، ثم عاد آخر الأمر في عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطى . ولم يزدهر نظام الإقطاع . في إبطاليا مطلقاً ؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف ؛ وكانت الصناعة والتجارة ، لا الزراعة ، هما اللتن مهدتا السبيل إلى الثراء .

ولم تكن رومة في عهد من العهود مدينة تجارية ، ولذلك ظلت آخذة في الضعف ؛ فقد اندثر مجلس شيوخها في حروب القوط ، وأضحت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعاثة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلامآ تناقض روح الزمان ، ولم يكن في وسع عامتها المؤلفين من خليط من الأجناس ، والذين يعيشون عيشة قذرة يخفف من قدارتها بعض الشيء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية ، لم يكن في وسع هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابواتالبغيضين . وكانتالأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنازع مع البابوية للسيطرة على رومة . وببنا كان التربيونون \_ محامو الشعب \_ والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصى والحراب، أضحى النظام الاجتماعي يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة ، ووكلائهم ، والمثل المريبة يضربها آلاف الرهبان المختلفي الأمم ، وهم طائفة قلما كانت غير متعطلة ، ولم تكن على الدوام عازبة . وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسي في الحمامات العامة ، وهجر الناس الأمهاء العظمى وحمامات السباحة الساخنة ، وزال من الوجود فن الطهارة الوثني . وخُرِّبت قنوات الشرب الإمىراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التيبر (١١) ؛ وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maximus والكلسيوم  السابع مراعى للبقركما بدأت ، وغطى الوحل أرض الكبتول ، وهدمت الهياكل القديمة والمبانى العامة ليوخد من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد ، وعانت رومة من أبنائها أكثر مما عانته من الوندال والقوط (١٢) ، وملاك القول أن رومة يوليوس قيصر قد ماتت ، وأن رومة ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد .

وتشتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت ، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر في الكنيسة . وهوى العلم تحت أقدام الحرافات التي تهب الفقر خيالا ورواء ؛ وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس . ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين في سلرنو في القرن التاسع الميلادي ، فكانت هي التي سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى ، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهلنستية الثفرة التي قامت بنن ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان : وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام ؛ وقد وصفت الرواية المحلية المأثورة كلية أبقراط التي كانت بها ، فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يونا وآخر مسلم ، وثالث مهودى(١٣٦ . وجاء قسطنطين ٥ الأفريقي ٥ وهو مواطن يوناني درس الطب في مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد ـــ إلى مونتي كسينو Monte Cassino ( التي أصبح فيها راهباً ) ، وإلى سلرنو القريبة منها ، جاء إلهما ببضاعة عجيبة مشرة من المعارف الطبية الإسلامية . وأسهمت تراجمه للكتب البونانية والعربية في الطب وغيره من الميادين في إحياء العلم بإيطاليا ، حتى كانت مدرسة سلرنو حن وفاته حاملة لواء العلوم الطبية في بلاد الغرب المسيحية .

وكان أهم ما أثمرته الفنون في هذا العصر هو ابتداع الطراز الرومانسي Romanesque في العارة ( ٧٧٤ – ١٢٠٠ ) . ذلك أن البنائين الإيطاليين وارثى التقاليد الرومانية في الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسلةا ، وأنشأوا

فى الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن ، وأضافوا دعامات من أبراج أوعمد متلاصقة ؛ وأقاموا العقود التى يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة . وكان العقد الرومانسى الحالص يتكون من نصف دائرة بسيطة ، وهو شكل ذو مهابة عظيمة ، يصلح لجسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل . وكان الدهليز فى الطراز الرومانسى الأول – والصحن والدهليز فى الطراز الرومانسى المتأخر – تعلوه عقود أى يتكون سقفه من بناء ذى أقواس . وكان البناء من الحارج خالياً فى العادة من الزخرف ومبنياً من الآجر المكشوف . وكان داخل البناء يتحاشى الزخوف الكثير الذى يميز الطراز البيزنطى وإن كان يزدان بقسط غير كبير من الفسيفساء ، والمظلمات ، والنقوش المنحوتة . وفيا عدا هذا كان الطراز الرومانسى رومانيا ، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطى والرشاقة القوطية ؛ بهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدى فما لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها .

وأخرجت إيطاليا في هذه الفترة آيتين من روائع الفن الرومانسي : إحداهما كنيسة أمبر جيو Ambrogio المتواضعة في ميلان ، والثانية الكتدرائية الضخمة في بيزا . وقد أعاد الرهبان البندكتيون في عام ٧٨٩ البناء الذي منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه ، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى . ثم غير جيدو Quido كبير الأساقفة طرازه بين عامي ١٠٤٦ و ١٠٧١ تغييراً شاملا فبدله من باسلقا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود . وكان سقف دهلمزها وضحنها قبل أيامه من الحشب ، فأقام لهما هو سقفاً معقوداً من الآجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة . وكانت زوايا التقاطع الناشئة في السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية نفويها والعلاع » من الآجر ، وذلك أول مثل من السقف المعقود « المضلع » في أوربا كلها .

ويخيل إلى الراثى أن واجهة كنيسة أمبر جيوتختلف كل الاختلاف عن

واجهة كتدرائية پيزا الكثيرة التعقيد ، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة . وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التي انتصر فيها أسطول ببزا على أسطول العرب بالقرب من پالرم ( ١٠٦٣ ) ؛ إذ طلبت المدينة إلى المهندسين بوشتو Buschetto (اليوناني ؟ ) ورينلدو Rinaldo أن يخلدا ذكرى المعركة ، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العدراء ، وأن يقيا معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أيها . وقد شيد البناء كله تقريباً من الرخام . وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبواك مفتوحة تقوم في عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد ؛ وجعل طائفة كبيرة من العمد الرشيقة – وهي غنائم مختلفة الأصول – تقسم طائفة كبيرة من العمد الرشيقة – وهي غنائم مختلفة الأصول – تقسم الكنيسة إلى صحن ودهايزين ؛ وتقوم فوق ملتقي جناح الكنيسة وصحبا فيه إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التي أقامها الإنسان في إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التي أقامها الإنسان في العصور الوسطي .

# الفصل لثا في

### أسبانيا المسيحية (٧١١ – ١٠٩٥)

ليس تاريخ أسپانيا المسيحية في هذه الفترة إلا حربا صليبية طويلة الأمد. منشأها تصميمها المنزايد على إخراج المسلمين منها . وكان هولاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء ، يمتلكون معظم الأراضي الحصبة ، وتسيطر عليهم خير الحكومات ؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء ، وتربة بلادهم ضنينة ، وتفصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوربا ، وتقسمهم إلى ممالك صغيرة ، وتشجع النعرة القومية الإقليمية ، والتطاحن بين الإخوة ، حتى لقد أريق من دماء المسيحين على أيدى أهلها المسيحيين ذوى العواطف الثائرة أكثر من دماء المسيحين على أيدى المسلمين .

وكانت غارات المسلمين عليها في عام ٧١١ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط، والسويني Suevi، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي، والكلت من سكان شبه الجزيرة، دفعت هوالاء إلى جبال الكنتبريان في الشهال الغربي من أسهانيا وطاردهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت پلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفادنجا Covadonga بقيادة جوت پلايو والدي ذلك القائد بنفسه ملكا على أسترورياس، وأسس الملكية الأسهانية، واستطاع ألفنسو الأول (٧٣٧ – ٧٥٧) على أثر هزيمة المسلمين في تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Oalicia ولوزيتانيا وبسكايا Biscaya. وضم حفيده ألفنسو الثاني (٧٩١ – ٧٩١) ولاية ليون، واتخذ أويدو حاضرة لمملكته.

وفى عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث فى تاريخ أسپانيا . ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم – كما تقول الرواية – حتى وجد فى الجبال تابوتاً من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوى على بقايا والرسول يوحنا » أخى المسيح . وأقيم ضريح فى المكان الذى وجد فيه التابوت ، ثم شيدت فى مكان هذا الضريح كتدرائية فخمة فيا بعد ، وأضحى سنتياجو ده كميستيلا Sontoagio de Compostela — ويوحنا قديس ميدان النجم » كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفرقها فى قداستها إلا بيت المقدس ورومة ؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر فى إثارة الروح المعنوية عند الأسيان ، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين. وصار القديس يوحنا شفيع أسپانيا وحامها ، وأذاع اسم سنتياجو فى قارات ثلاث. وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة ؛ والأخطاء هى التى يموت من أجلها الناس أشرف ميتة .

وإلى شرق استوريا ، وفى جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نبرة Navarre وكان معظم أهلها من سلاسلة البشكنس ، وهم فى أغلب الظن خليط من كلت أسيانيا وبربر أفريقية . وقد أفاد هؤلاء من منعة جبالهم فنجحوا فى حماية استقلالهم من المسلمين ، والفرنجة ، والأسيان ، حتى أسس سانكو الأول جراسيا Sancaho Garacia مملكة نبرة واتخذ بميلونا عاصمة لها . وكسب سانكو لنفسه لقب « العظيم » (٩٩٤ — ٩٩٤) باستيلائه على ليون ، وقشتالة ، وأرغونة ؛ وأتى على أسپانيا المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد ، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة . ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونه ؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين فى الحنوب ، وأن تضم إليها بالسلم نبرة فى الشهال (٢٠٧٦) ، فلم يحل عام ١٩٩٠ حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسپانيا الشهالى . وفتح شارلمان فى عام ولاي من المواقعة قطلونيا — فى شهالى أسپانيا الشرف حول برشلونة ؛ وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم « حددوا أسپانية » ؛ وكانت لغته القطلانية أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم « حددوا أسپانية » ؛ وكانت لغته القطلانية أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم « حددوا أسپانية » ؛ وكانت لغته القطلانية أولول غيمها من فرنسية پروڤنسال ولغة قشتالة . وبدأت ليون الواقعة فى الشهال

الغربى تاريخها «بسانكو السمين Sancho the Fat الذى بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا منكثاً على تابع له . ولما خلعه الأشراف لجأ إلى قرطبة حيث شفاه حسداى بن شبروط الطبيب البهودى الشهير من شحمه ، ثم عاد سانكو إلى ليون يميس كما يميس دن كيشوت . واسترد عرشه (٩٥٩) (٩٥٩) . وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle) . وكانت تواجه الأندلس الإسلامية ونقضى حياتها تأهب للحرب . وفي عام ٩٣٠ رفض فرسانها أن يظلوا طائمين لملوك أستررياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة أستررياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس عليقية إلى قشتالة . وأرغم أميرى طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية ، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ؟ وقد واصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طبع عليه ملوك أسپانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً .

وأبق الفقر الزراعي والتمزق السياسي أسپانيا المسبحيه متأخرة أشد التأخر عن منافسها المسلمين في الجنوب ومنافسها الفرنجة في الشهال في نيم الحضارة وفنونها . ولم تكن الوحدة حتى في داخل كل مملكة من الماكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنقشع ؛ فكان النبلاء يتجاهلون الملوك إلا في أوقات الحرب ، ويحكمون من عندهم من رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع ؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف ؛ فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم في الحرب ، ويتجاهلون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم في الحرب ، ويتجاهلون كنيسة مستقلة . واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام ١٠٢٠ في مجالس قومية وأخلوا يشرعون المملكة ليون كما تشرع مجالس النواب. وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الداتي ، فجعلها بذلك أول مدينة تمكم نفسها مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الداتي ، فجعلها بذلك أول مدينة تمكم نفسها

فى أوربا أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسپانية هذا الحكم الذاتى نفسه ، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماستها وكسب أموالها فى الحروب القائمة مع المسلمين ، وبذلك قامت دمقر اطية حضرية محدودة فى وسط النظام الإقطاعى الأسپانى ، وتحت سلطان الملكية الأسپانية .

ویشهد تاریخ ردر بجو (رای ) دیاز Roderigo (Riy) Diaz بما کانت عليه أسپانيا المسيحية فى القرن الحادى عشر من بسالة ، وفروسية ، وفوضى ـ ور دریجو هذا یعرف عندنا باللقب الذی حباه به المسلمون و هو السیر أی الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحي وهو الكمپيدور El Campeador أي المهاجم أو البطل. وكان مولده في بيثمار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالى عام ١٠٤٠ ، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين ، يقاتل أينا وجد سبب للقتال يدر المال . ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجرأته في القتال ، وموضع ريبتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين في صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين في صف المسلمين ؛ ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء. وأبرسله ألفنسو السادس ملك قشتالة ليأتى بالخزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أم أشبيلية ، ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه . فنني من قشتالة ( ١٠٨١ ) وانضم إلى قطاع الطرق ، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين، وباع خدماته إلى من يشربها من الحكام المسيحيين والمسلمين. فقد ظل ثما' سنين في خدمة أمير سرقسطة ووسع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة . وفي عام ١٠٨٩ قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين ، واستولى على بلنسية وأرغمها على أداء جزية شهرية ، مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبي . وفي عام ١٠٩٠ قبض على كونت برشلونة ، ولم يطلقه إلا بعد أن افتدى بمانين ألف دينار. ولما وجد بعد رجوعه من تلك الحملة أن بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملا ؛ فلما استسلمت له (١٠٩٤) ، نكث بكل الشروط التي ألقت بمقتضاها سلاحها ، وحرق قاضي قضاتها حياً ، ووزع أملاك سكانها على أتباعه ، وكاد يحرق زوجة قاضي القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل (١٥٠) . وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التي يسلكها أبناء زمانه ، ولكنه كفتر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلا ، وجعلها حصناً منيعاً في وجه جيوش المرابطين المسلمين . وقد وحكمت زوجته يمينة imena ( ١٠٩٩) المدينة بعد موته ثلاث سنين . وقد أحاله أعقابه المعجبون به ، بما حاكوه حوله من أقاصيص ، فارساً لا تحركه أحاله أعقابه المعجبون به ، بما حاكوه حوله من أقاصيص ، فارساً لا تحركه يعظيمهم للقديسين (١٠) .

ولم تستطع أسهانيا المسيحية ، وهي على هذه الحال من الانقسام ، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسهانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر فى انترق والفوضى ، وكان ستموط خلافة قرطبة عام ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها ألفنسو السادس ملك قشتالة (الأذفنش) ، فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (١٠٨٥) واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين المغاوبين بما جبل عليه المسلمون من كرم ، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية في أسيانيا المسيخية .

## الفصل كثالث

#### فرنسا ( ۲۱۶ – ۲۰۲۰ )

مجىء الكارولنچيېن : ۲۱۶ ، ۷۲۸

لما جلس كلوتبر Clotaire الثاني على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المروڤنچية وطيد ؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته في الانساع والوحدة ؛ ولكن كلوتبر كان مديناً بقوته إلى أشراف أستراسيا وبرغندية ؛ وقد كافأهم على تأييدُهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم ، وبأن اختار واحداً منهم هو بيبين Pepin الأول الأكبر ليكون ﴿ نَاظِراً للقَصرِ ﴾ . وكبان ناظر القصر في بادى ۗ الأمر هو المشرف على القصر الملكي وناظراً على المزارع الملكية ؛ وزادت مهام منصبه حين عكف الملوك المروڤنچيون على الدعارة والدسائس ؛ وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم ، والجيش ، والمال . وحـَدَّ الملك داجوبرت Dagobert ) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتاما « فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء » كما يقول فرديجار Fredegart الإخبارى ، « وكان قليل النوم والطعام ، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممتلئة قلوبهم غبطة وإعجاباً (١٧) ». غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله : « وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبر من الحظايا ، كما كان « عبداً لشهو اته (١٨) » . وعادت السلطة في عهد خلفائه ـــ الملوك الذين لا يفعلون شيئاً ـ إلى ناظر القصر . وهزم پيپين الثانى الأصــغر منافسیه فی واقعة تستری Testry ( ۱۸۷ ) ، واستبدل بلقب « ناظر القصر » لقب دوق الفرَنجة وكبيرهم ، وحكم غالة جميعها ما عدا أكتين Aquitaine وحكم شارل مارتل Charles Martel (المطرقة) ، الذي كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق أستراسيا ، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (۷۱۷ – ۷۱۹) . وهو الذي صد بعزيمته غارات الغالبين مستعيناً بالفريزيين والسكسون ، وهو الذي صد المسلمين عند تور وردهم عن أوربا . وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضي الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش ، وأسكن جيوشه في الأديرة : وقطع عنق راهب بروتستنتي (۱۹) ، وحدُكيم عليه في ماثة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم .

وأرسل ابنه پيين الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل بأثم إذا خلع الإمعة المروڤنچى وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل . وكان زخرياس وقتئذ فى حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللمبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يأثم . فلما تلقى بيين الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة فى سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة ( ٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة ( ٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك المروڤنچين البلداء وأرسله إلى دير . وجاء البابا استيفن الثانى فى عام ٧٥٤ للى دير الفديس دنيس S1, Denis في أرباض باريس ، ومسح پيين « ملكاً بنعمة الله » . وهكذا انتهت الأسرة المروڤنجية ( ٤٨٦ ـ ٧٥١) وبدأت بنعمة الله » . وهكذا انتهت الأسرة المروڤنجية ( ٤٨٦ ـ ٧٥١) وبدأت الأسرة المروڤنجية ( ٤٨٦ ـ ٧٥١)

وكان بيين الثالث القصير » حاكماً صبوراً بعيد النظر ، تقياً ، عملياً ، عبا للسلم ، لابغلب في الحرب، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر في غالة في تلك القرون . وكان بيين هو الذي مهد لشار لمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال ؛ وفي خلال حكمهما الذي دام ثلاثا وستين سنة (٧٥١ - ٨١٤) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا . وأدرك بيين ما في الحكم بغير معونة الدين من صعاب ، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها ، وامتياز اتها

وحصانتها ، وجاء إلى فرنسا بالمخلفات المفلسة ، وحملها على كتفيه فى موكب فخم ؛ وأنقذ البابوية من الملوك اللمبارد ، ومنحها سلطات زمنية واسعة فى عهده المعروف باسم «عطية پيهين » (٧٥٦) ، وقنع بأن ينال فى نظير هذا لقب «النبيل الرومانى » وتحذيراً من البابا للفرنجة بألا يختاروا ملكاً إلا من سلالته . وتوفى بيپين فى عنفوان قوته عام ٧٦٨ بعد أن أوصى بمملكة الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثانى وشارل الذى أصبح فيا بعد شارلمان على أن يحكماها معاً .

#### ٣ ــ شارلان: ٧٦٨ - ١١٨

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام ٧٤٧ فى مكان غير معروف. وكان يجرى فى عروقه الدم الألمانى وينطق باللسان الألمانى ، ويشترك مع قومه فى بعض الصفات – قوة الجسم ، والبسالة ورباطة الجأش ، والافتخار بالأصل ، والبساطة الجشنة التى تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة . وكان قليل العلم بالكتب وما فيها ، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلا ، لكن ما قرأه منها كان من خيارها ، وحاول فى شيخوخته أن يتعلم الكتابة ولكنه لم يفلح فى ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع الكتابة ولكنه لم يفلح فى ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع التحدث باللغة التيوتونية القديمة واللاتينية الأدبية ، وكان مفهم اللغة اليونانية (٢٠) .

ولما مات كارلون الثانى فى عام ٧٧١ انفرد شارل بالحكم وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هدريان الثانى بدعوة عاجلة ليساعده على دسديريوس Desiderius اللمباردى الذى كان وقت لم يغزو الولايات البابوية . ولبى شارلمان الدعوة وحاصر باڤيا واستولى عليها، ولبس تاج لمباردى، وأيد عطية بيبين ، وارتضى أن يكون حامى الكنيسة فى جميع سلطاتها الزمنية . ولما عاد إلى عاصمته فى آخن بدأ سلسلة من الحروب عدمها ثلاث وخسون — قادها كلها تقريباً بنفسه — بهدف بها إلى تأمين

دولته بفتح باڤاريا وسكسونية وجعلهما مسيحيتين ، والقضاء على الآڤار المشاغبين المتعبين ، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين ، وتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف في وجه مسلمي أسپانيا الذين يبغون بسط سلطامهم عليها . وكان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلاده وثنيين ، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على غالة ؛ وكانت هذه الأسباب كافية في رأى شارلمان لأن يوجه إليهم تماني عشرة حملة (٧٧٧ – ٨٠٤) ، قاتل فيها الطرفان بمنهى الوحشيه . فلم هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب رتماب ١٥٠٠ منهم في يوم واحد (٢١٠) ، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيونڤيل ليحتفل بميلاد المسيح .

وبينا كان شارلمان فى پادر بورن Paderborn إذ استغاث به ابن العربى حاكم برشلونة المسلم فى عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة . فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس ، وحاصر مدينة يمپلونا المسيحية ، وعامل البشكنس مسيحيي أسپانيا الشهالية الذين لا يحصى عديدهم معاملة الأعداء ، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها . غير أن الفتن الإسلامية الى وعد ابن العربى بإثارتها على الحليفة والتي كانت جزءاً من الحطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر ، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة ، وترامى إليه أن السكسون ثاثرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولونى Cologce ؛ فرأى من حسن السياسية أن يعود بجيشه إلى بلاده ، واخترق مهم فى صف طويل رفيع ممرات جبال البرانس . وبينا كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسڤال Roncesvalles من أعمال نبرة إذ انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكانس ، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨) ؛ وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذي أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت أغنيه رولايه Chançon de Roland . وسير شارلمان في عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس ، واستولى به على شريط ضيق فى شمالى أسبانيا

الشرق وضمه إلى فرنسيا Francia . واستسلمت له برشلونة ، وأقرت أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦) . وكان شارلمان في هذه الاثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥) ، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (٧٨٩) ، وهزم الآقار وشتت شملهم (٧٩٠–٨٥) ، ثم أخلد في السنة الرابعة والثلاثين من حكمه والثائة والستين من عمره إلى السلام . والحق أنه كان على الدوام يحب شئون الإدارة والحكم أكثر مما يجب الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوربا الغربية ، الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القبائل والعقائد ، شيئاً من وحدة الحكم والعقيدة .

وكان فى أنناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة بين نهر الشستيولا Vistula والمحيط الأطلنطى ، وبين البحر البلطى وجبال البرانس ، وإبطاليا كلها تقريباً ، والجزء الأكبر من بلاد البلقان . ترى كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف؟ الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على عاتقه مئات التبعات ، والأخطار ، والأزمات ، وأن يتحمل ما هو أصعب على النفس من هذا كله وهو التمار أبنائه به ليقتلوه . وكان فى دمائه دم أو تعالم پيين الثالث الحذر الحكيم ، وشارل مارتل الذي لا يرحم ولا يلين ، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل الذي لا يرحم أملاكهما وحافظ عليها بما وضعه لها من نظام عسكرى قوى الدعائم ، وسندها بما أقاء عليها من ظل الدين وشعائره . وكان فى وسعه أن يضع لنفسه الأهداف الكبار ، وأن يهي الوسائل ويبتغى الغايات . وكان فى مقدوره أن يقود الجيوش ، ويقنع الجمعيات ، ويشرح صدور الأعيان ، ويسيطر على رجال الدين ، ويكبح جماح الحريم .

وقد جعل الحدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من الأملاك ، وجذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

وتوسيع رقعتها ، وأوجب على كل حر إذا دُعى لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت الحلى ، وكان كل عامل نبيل مسئولا أمامه عن كفاية وحداته . وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة يؤيدها كل عامل نفساني تخلعه علها قداسة صاحب الجلالة الذي باركه رجال الدين ، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية ، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطد الدعائم . وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال اللين ــ رثيس حدم البيت ، وقاضي القضاة وقضاة حاشية القصر ، وماثة من العلماء ، والحدم ، والكتبة . وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه في الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملاك المسلحون ، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشـــثون الحربية أو غيرها فى مدن ورمز ، وڤلنسن ، وآخن ، وچنيڤ ، وپادربورن . . . وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة في الهواء الطلق ـ وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية ؛ فكانت تبحثها وتعيدها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحهم ؛ وكان يحدث في بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأنين أو القباع الجاعي . وقد نقل إلينا هنكمار Hincmar كبير أساففة ريمس صورة دقيقة لشار لمان في أحد هذه الاجتماعات ، فقال إنه كان و يسلم على أكابر الحاضرين ، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلا ، ويظهر اهتماما ظريفًا بالكبار ، ويلهو مع الصغار » . وكان يطلب إلى أسقف كل إقابيم ورثيسه الإدارى أن يباغ الملك في هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت في إقليمه منذ الاجتماع السابق ، ويضيف هنكمار إلى أقواله السابقة أن ﴿ الملك كان يرغب في أن يعرف هل الأهلون في أي ركن من أركان مملكته قلقون مستاءون ، وما سبب قلقهم واستيائهم »(٢٢) . وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن « يعطوا بيانات صحيحة » معززة بالأيمان عما فى الإقليم الذى يزورونه من أملاك تفرض عليها الضرائب، وعن حالة النظام فى هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من فيه من المجرمين. وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الأيمان تستخدم فى أرض الفرنجة فى القرن العاشر للفصل فى كثير من المشاكل المحلية الحاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم. وقد نشأ من هذه الجماعات، بعد تطورها على يد النورمان والإنجليز، نظام المحلفين القائم فى هذه الأيام.

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة فى الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة ، وفي الشئون الدنيوية قومس Comes (رفيق للملك ) أوكونت . وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث. مراتكل سنة في عاصمة كل مقاطعة لتبدى رأيها في حكومة الإقليم وتكون بمثابة محكمة استثناف فيه . وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أومار جريف margravc ، أو مرخوزوج Markherzog ، فكان رولان المرسستڤالي Roland of Marcesvalics مثلا حاكم مقاطعة برتن Breton . وكانت كل. الإدارات المحلية خاضعة لسلطان « مبعوثى السيد » missi dominici ــ الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين ، ويطلعوذ على أعمالهم ، وأحكامهم ، وحساباتهم ، ويمنعون الرشا ، والاغتصاب ، والمحاباة ، واستغلال النفوذ ، ويتلقون الشكاوى ، ويردون المظالم ، ويحمون « الكنيسة ، والفقراء ، والذين تحت الوصاية ، والشعب أجمع » من سوء استعال السلطة أو الاستبداد ، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته . وكان العهد الذي عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن يوضع العهد الأعظم Magna Carta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون . ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا lstria ، إذ اتَّهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم ، واغتصاب الأموال ، فأرغمه الملك على أن يرد ما اختلسه ، وأن يعوض كل مظاوم عما وقع عليه من ظلم ، ويعترف علناً بجرائمه ، ويقدم الضمانات التي تمنعه من تكرارها . وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام اللين عرفهم أوربا منذ عهد ثيودريك القوطي وأكثرهم استنارة .

وتعد القوانين الستة والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في المصور الوسطى . فهي لا تكون مجموعة منتظمة ، بل هي توسبع للقوانين « الحمجية » الأقدم منها عهداً وتطبيقها على الظروف والمطالب الجديدة . ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللمباردي : فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى ، والتحكيم الإلهي ، والمحاكمة بالاقتتال ، والعقاب ببــــتر الأعضاء (٢١) ، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية ، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير ــ وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة (٢٥٠) . ولم تكن هذه كلها قوانين ، بل منها ما كان فتاوى ، ومنها ماكان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه ، ومنها ما هو نصائح أخلاقية . وقد جاء في إحدى المواد : « يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله واثباع أوامره ، لأن الإمبر اطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان في أخلاقه الخاصة »(٢٦) . وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بىن أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل ، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها ؛ ولكن القوانين والنصائح في مجموعها تنم عن جهود صادقة لتحويل الهمجية إلى حضارة .

وشرع شارلمان للزراعة ، والصناعة ، والشئون المالية ، والتعليم ، والدين ، كما شرع لشئون الحكم و لأخلاق . وكان حكمه فى فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية · جنوبى فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

البحر المتوسط. وفي هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن في وسعهم أن يسروا لوحا فوق البحر (٢٧) ، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غربي أوربا وأفريقية وشرق البحر المتوسط غاية في الاضطراب. وكان البهود وحدهم هم الذبن يربطون النصفين المتعاديين من البلاد التي كانت أيام حكم رومة عالما اقتصاديا موحدا . وبقيت التجارة قائمة في أوربا الخاضعة لحكم الصقالبة وبيزنطية ، وفي شمالها التيوتوني . كذلك كانت القناة الإنجلزية وكان بحر الشهال يموجان بالمتاجر ، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطربت أحوالها قبل موت شارلمان ، وقد أوقعتها في هذا الاضطراب غارات أهل الشهال وقرصتهم .

وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية ، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية ، حتى أضحت لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم ، وبلداً زراعياً ، واضمحلت فيها طبقة التجار الوسطى ، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك في الريف ؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الاقطاع في فرنسا هبات شارلمان الأراضي وانتصار الإسلام .

وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحاية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الآخذ في الانتشار . ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة الحيطة به أحبطت جهوده . وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكاروانچيين ضد القبائل الوثنية . وكانت أهم موارد المليك مزارعه الحاصة التي كانت مساحبها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة ، والهبات ، وعودة بعض الأراضي إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة ، واستصلاح الأراضي البور . وقد أصدر للعناية مهذه الأراضي قانونا زاعيا مفصلا أعظم تفصيل يشهد بعنايته التامة في بحث جميع موارد الدولة ومصروفاتها . وكانت الغابات والأراضي البور ، والطرق العامة ، والمواني وجميع ما في الأرض من معادن ميلكا للدولة (٢٨) . وشجع ما بتي والبلاد من تجارة بكافة السبل ؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق ، ووضع

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان ، وخُففت المكوس. ومُنعت المضاريات على المحاصيل قبل حصادها ، وأنشئت الطرق والجسور أو أصلحت ، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز ، وطهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام ، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود . وحافظت الدولة على بالمات النقد ، ولكن قلة الذهب فى فرنسا واصمحلال التجارة أديا إلى استبدال الجنيه الفضى بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus .

وامتدت جهود الملك وعتايته إلى كل ناحية من نواحي الحياة ، فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التي تعرف بها الآن ؛ ووضع نظاماً لإعانة الفقراء ، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع ، ثم حرم التسول وجعِله جريمة يعاقب عليها القانون(٢٩) . . وهاله انتشار الأمية في أيامه حين لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين ، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة ، فاستدعى علماء من الأجانب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها ؛ فأغرى بولس الشاس على أن يأتى إليه من منتى كسينو ، وألكوين من يورك (٧٨٢) ، ليعلما في المدرسة التي أنشأها شارلمان في القصر الملكى بآخن . وكان ألكوين هذا ( ٧٣٥ – ٨٠٤) رجلا سكسونياً ، ولد بالقرب من مدينة يورك ، وتعلم في مدرسة الكتدرائية وهي المدرسة التي أنشأها الأسقف إجبرت في تلك المدينة ؛ وقد كانت بريطانيا وأيرلندة في القرن الثاءن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا . ولما بعث أنا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين فى بعثة إلى شارلمان ألح شارِلمان على ألكوين أن يبتى عنده ، وسر ألكوين أن يخرج من إنجاترا حين كان ه الدنمرقيون يتلفون أرضها ، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى »(٣٠) ، فآثر البقاء ؛ وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد في طاب الكتب والمعلمين ، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

مراكز الدرس ، ومراجعة المخطوطات ونسخها ، كما أضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية إصلاحاً عم جميع المملكة . وكان من بين طلابها شارلمان نفسه ، وزوجته ليوتجارد Liutgard ، وأولاده وابنته جزيلا Oisela ، فأمين سره اجبهارد Eginhard ، وإحدى الراهبات ، وكثيرون غيرهم . وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم ؛ فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد ؛ يدرس البلاغة وعلوم الكلام ، والهيئة ؛ ويقول اجبهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة ووكان من عادته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته . حتى يستطيع في أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف ، ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلا من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود في آخر سني جهوده هذه لم تلق إلا قليلا من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود في آخر سني مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً في نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً في نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألماني القدم .

ولما ألح ألكوين على شارلمان . بعد أن قضى فى مدرسة القصر ثمانى سنين ، أن ينقله إلى بيئة أكثر منها هدوءاً ، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (٧٩٦) ؛ وهناك حشد ألكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التى قام بها چيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين ، ومن الكتب اللاتيتية القديمة ، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئل . وحدت الأديرة الأخرى حدو هذا الدير . وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة فى القرن التاسع الميلادى ؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنچى بما لدينا من الشعر اللاتيني كله تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus . وبروپرتيوس تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus . وبروپرتيوس المخطوطات الكارولنجية خيلة الزخرفة يزينها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛ Varro المخطوطات الكارولنچية خيلة الزخرفة يزينها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التي أخرجتها مدرسة القصر أناجيل « فينا » التي كان أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها أيمان تتويجهم .

وأصدر شارلمان في عام ٧٨٧ إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها « توجهات لدراسة الآداب » ، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من « اللغة الفظة » و « الألسنة غير المهذبة » ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغير رجال الدين على السواء القراءة والكتابة . ثم أصدر توجيهات أخرى في عام ٧٨٩ يدعو فيها مديرى هذه المدارس أن « يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار ، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرسوا النحو ، والموسيقي ، والحساب » . وفي عام ٨٠٥ صدرت تعلمات أخرى تهبي مله المدراس تعليم الطب، وتعليات غيرها تندد بالحرافات الطبية . وتما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشي ً في فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس في الكنائس والأديرة ؛ فلقد أنشأ ثيودلف Theodulf أسقف أورليان مدارس في كل أبرشية من أسقفيته ، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء ، وحرم على القساوسة الذين يتولون التدريس أُن يتناولوا أجوراً (٣٢) ، وذلك أول مثل للتعليم العام المجانى فى التاريخ كله . ونشأت مدارس هامة ، متصلة كلها تقريبا بالأديرة ، في خلال القرن الناسع في تور ، وأوكسير Auxer ، وباڤيا ، وسانت جول ، St. Gall ، وفلدا Fulda ، وغنت Ohent وغيرها من المدن . وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين ، فاستقدم العلماء من أيرلندة ، وبريطانيا ، وإيطاليا . ومن هذه المدارس نشأت في المستقبل الجامعات الأوربية .

على أننا يجب ألا نغالى فى تقدير القيمة العقلية لذلك العهد . فلقد كان هذا البعث المدرسي أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافي الذي كان قائما وقتئذ في القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فلم يشمر هذا البعث كتاباً كباراً من

آى نوع كان . وكتابات ألكوين الشكلية مملة ، مقبضة ، خانقة ؛ وايس فيها ما ينفى عنه تهمة التحلق والتباهى بالعلم ، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن بوفق بين السعادة والتبي ؛ وليس فيها ما يدل على هذا وينفى ذاك إلا يعض وسائله وأبيات من شعره . ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً في أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل ، منها قصائد ثيودلف التى فيها قلد كاف من الجال على طريقها الضعيفة الحاصة بها . غير أن الأثر الأدبى الحالد الوحيد الذى خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التي كتبها اجنهارد . وهي تحلو حلو كتاب سوتنيوس Seutonius هياة القياصرة Seutonius مياة فقرات من الثانى يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شيء فقرات من الثانى يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شيء فقرات من الثانى يصف نهسه في تواضع جم بأنه «همجي ، لا يعرف إلا للمؤلف الذي يصف نفسه في تواضع جم بأنه «همجي ، لا يعرف إلا رجل عظيم المواهب ، لأن شارلمان عينه أستاذاً لقصره ، وخازناً لبيت ماله ، واتحذه صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشرف على كثير من العائر في ماله ، واتحذه صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشرف على كثير من العائر في مله ، ولعله قد اختاره ليشرف على كثير من العائر في حكمه الإنساني العظيم ، ولعله قد اختاره لتخطيطها .

وشيدت قصور للإمراطور في أنجلهم Ingelheim ونجمجين Nijmegen ، وأقام في آخن عاصمته المحببة القصر والكنيسة الصغيرة اللهائعي الصيت اللذين تعرضا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حيى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية . وقد أقام المهندسون المجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان ثيتال San Vitale برافنا وهي التي أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية ؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة في الغرب . وقد أقيمت فوق البناء المثمن قبة مستديرة ، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة « وزينت بمصابيح من الدهب والفضة ، وحظار ، وأبواب من البرنز المصمت ، وأعمدة وبوارق جيء مها من رومة ورافنا ه (١٥٠٥) ، وبنقش فسيفساني وأعمدة وبوارق جيء مها من رومة ورافنا ه (١٥٠٥) ، وبنقش فسيفساني وأثم الصيت في القبة .

وكان شارلمان سخيا غاية السخاء على الكنيسة ، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها ، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم . وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين ، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس ؛ وإن ما فى أقواله من القوة لينفى عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة نسياسية . فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين في البلاد الأجنبية ، وكان يصر فى مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة فى معاملة رعاياهم المسيحيين (٣٦) . وكان للأساقفة شأن كبير في مجالسه ، وجمعياته ، ونظامه الإدارى ، واكنه كان ينظر إليهم ، رغم احترامه الشديد لهم ، على أنهم عماله بأمر الله ، ولم يكن يتردد فى أن يصدر أوامره لهم ، حتى فى المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق . ولقد ندد بعبادة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها ، وطاب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد في أبرشيته ، ولم تكن توجهاته للبابوات أقل من هداياه لهم ، وقضى على ما بحدث في الأديرة من تمرد ، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع « الدعارة ، والسكر ، والشره » بن الراهبات . سأل القساوسة في أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم . إنهم ينبذون العالم على حين « أننا نرى » بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل ، ليزيدوا أملاكهم ، فتارة يتخذون اللهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الحاصة ، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدى لهذه الأغراض نفسها ، وطورآ يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين ، ويلحقون بذلك أعطم الضرر بورثتهم الشرعين؛ . على أنه رغم هذا قد أبنى لرجال الدين محاكمهم الحاصة ، وأمر بأن يؤدى إلى الكنيسة عشر غلة الأرض ، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج ، والوصايا ، وأوصى هو نفسه بثاثى ضياعه لأسقفيات مملكته (٣٧) ، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا « هبات ، قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة .

وقد أنمر هذا النعاون الوثيق بن الكنيسة والدولة فكرة من أجـَل " الأفكار في تاريخ الحكم: ألا وهي استحالة دولة شارلمان إلى الإمبر اطورية الرومانية المقدسة التي تستند إلى كل ما كان لرومة الإمبر اطورية والبابوية من هيبة ، وقداسة ، واستقرار . ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التى لاتصدعها غارة ولا تقر فها أمناً ، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً . ولسنا نعرف من الذي لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو منذا الذي وضع خطة هذا التتويج ، وكل ما نعرفه أن ألكوين ، وثيودلف وغيرها من الملتفين حوله قد تناقشوا فى إمكانه ، ولعلهم هم اللَّدين خطوا فيه الخطوة الأولى ، أو لعل مستشارى البابا هم الذين فكروا في هذا الأمر . وقامتُ في سبيل تنفيذه صعاب شديدة : فقد كان إسراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الروماني ، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب، ولم يكن للكنيسة حق معترف به في حمل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر ، ولر بما كان منح اللقب لشخص منافس لبيز نطية سبباً في إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين في الشرق وإخوائهم في الغرب، حرب تترك أوربا المخربة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية . غير أن الأمر قاء يدر ه بعض التيسير أن إيربني جلست على عرش أباطرة الروم (٧٩٧)؛ فقد قال البعض وقئئذ إنه لم يعد هناك إمبر رطور روما ، وإن الباب أصبح مقتوحاً لكل من بطالب باللقب ، فإذا ما نفذت هذه الخطة الجريثة قام مرة أخرى إمبراطور روماني في الغرب، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد، فتستطيع مقاومة انشقاق برنطية وتهديد المسلمين ، ولعل ما في اللقب الإمر اطوري من رهبة وسحر يحكن

أوريا الهمجية من أن تعود أدراجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة المعالم القديم وثقافته وثنشر المسيحية في ربوعه .

وحدث في السادس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ؛ ولم يكن شعب رومة يحبه ، وكان يتهمه بعدة فعال خبيئة ، ثم هاجه العامة في الخامس والعشرين من إبريل عام ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنُّوه في دير . لكنه هرب من سجنه ، وفر إلى شارلمان فى پادربورن وطلب إليه أن يحميه . وأحسن الملك استقباله ، وأعاده إلى رومة مع حرس"مسلح"، وأمر البابا ومتهميه أن يمثلوا أمامه في تلك المدينة في العام المقبل . ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم في الرابع والعشرين من توفير عام ٨٠٠ ، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة والزومان ، واتفقت على إسقاط النَّهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها . وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة الخنفال فعم بعيد الميلاد . فلم أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين ، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان ، ثم أخرج ليو على حن غفلة تاجآ مطعماً بالجواهر ووضعه على رأس الملك . ولعل المصلمن كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجبه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج ، فنادوا ثلاث مرات : « ليحيي شارل الأفخم ، الذي توجه الله إمراطور آ عظيماً للرومان لينشر بينهم السلام 1 ، ومسح رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبر اطورآ وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التي ظلت محتفظاً بها للإمبر اطور ألشرق منذ عام ٤٧٦ .

وإذاجاز لنا أن نصدق اجهارد ، فإن شارلمان قد قال له إنه ماكان ليدخل الكنيسة لو أنه عرفأن ليوينوى تتويجه إمبراطوراً . ولربما كان قد عرف الحلطة بوجه عام ، ولكنه لم يرض عن السرعة التي تمت مها والظروف المخيطة

بها وقت إتمامها ؛ ولعله لم يكن يسره أن يتلق التاج من بابا ، فيفتخ بقبوله منه باباً للنزاع الذي دام قروناً طوالا بين البابا والإم اطور ، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً : المعطى أو آخد العطية ؛ ولعله فكر أيضاً فيا سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية في المستقبل . ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن يأسوا الجرح الذي أحدثته هذه الفعلة ، وظل زمناً طويلا لا ينتفع بلقبه الجديد ؛ حتى كان عام ٢٠٨ فعرض الزواج على إيريني ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقبيهما المشكوك فهما شرعيين (٢٩٠) ؛ ولكن سقوط إيريني عن عرشها أفسد هذه الحطة اللطيفة . وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودى مع هارون الرشيد ، وقد أبد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل اليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس . ورد الإمبراطور الشرق على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء ليغداد ، وانتهى الأمر في عام ١٨١٨ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً وانتهى الأمر في عام ١٨١٨ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية ،

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى الهابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهبة الكنسية ، وأتاحت حوادث عام ، ٨٠ لجربجورى السابع وإنوسنت الثالث أن يقيا على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة ، وقوت شارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته وليا لله فى أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهى فى الحكم ، ووسعت الهوة بين الكنيسة اليونائية والكنيسة اللاتينية ، لأن أولاها لم تكن ترغب فى الحضوع إلى كنيسة رومائية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبرنطية . ولقد كان استمراد شارلمان فى اتحاذ آخن لا رومة عاصمة له شاهداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوربا الشالية ، ومن الشعوب اللاتينية السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوربا الشالية ، ومن الشعوب اللاتينية السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوربا الشالية ، ومن الشعوب اللاتينية السياسية من وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

الرومانية المقدسة عملي وإن لم يقمها من الوجهة النظرية . وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبر اطورية القديمة ، على أن الصبغة الجديدة الحاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا فى عهد أتو ١٥١٥ الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حن ضم فر دريك باربرسا الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حن ضم فر دريك باربرسا القول أن الإمبر اطورية الرومانية المقدسة كانت — على الرغم من تهديدها للعقول والمواطنان — فكرة نبيلة ، وحلماً من أحلام الأمن والسلام ، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من برائن الهمجية ، والعنف ، والجهل .

وأصبحت المراسم الإمراطورية تكتنف الإمراطور في المهام الرسمية ؛ فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبي ، وحذاءين مرصعين بالجواهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه ليقبلوا قدمه أو ركبته ؛ هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطيه وما أخذته يزنطية عن طيسفون . غير أن إجهار ديو كد لنا أن ثيابه — إذ استثنينا ما ذكرناه عنها آنفاً — لم تكن تختلف إلا قليلا عن ثياب الفرنجة العادية : كانت تتألف من قيص من التيل ، وسروال قصر لاشيء تحته ، ومن فوق القميص والسروال القصير قماء من الصوف ربما كانت له أهداب من الجرير ، وجررب طويل مربوط بشريطين يغطي ساقيه ، وحذاءين من الجويد ، وحزرب طويل مربوط بشريطين يغطي ساقيه ، وحذاءين من الجويد ، وكان يضيف إليها في الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء(\*\*) أو الفنك(\*\*\*) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه من جلود ثعلب الماء(\*\*) أو الفنك(\*\*\*) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لايفارة وأبداً . وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات ، وكانت بنيته تتناسب مع هذا الطول . وكان أشقر الشعر ، شقذ العينين(-1) ، أشم الأنف ،

رث (ه) أو سبور الما. وهو حيوان يعيش في البر والبحر مماً وله من أصابع رجليه جلدةٍ. تعاونه على السباحة Otter (عن معجم الدكتور شرف ) . . .

<sup>(</sup>هه) أو ثبلب الصحراء masten (عن معجم الدكتور شرف ) .

<sup>( + )</sup> يقال رجل شقد إذا كان شديد البصر سريم الإصابة بالمين . (عن الفرا. ) . المترجم

له شاربان وليست له لحية « جليلا مهيب الطلعة على الدوام »(٤٠٠). وكان معتدلا في طعامه وشرابه ، يمقت السكر أشد المقت ، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجو ومهما قاسي من الصعاب. وكثيراً ماكان يخرج للصيد ، أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الحيل ؛ وكان سباحاً ماهراً ، يحب الاستحام في عيون آخن الدفيئة . وقلماكان يدعو الناس إلى الولائم ، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقي أو قراءة كتاب في أثناء الطعام . وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم : وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم في الصباح وهو يرتدي ثيابه أو يلبس حذاءيه ٠٠

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية ، ولكنه كان يسخر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجههما بذكائه وثاقب بصره . ولم تستنفد حروبه التي ترنى على نصف المائة قوته وحيويته . وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين ، والآداب ، وعلوم الدين لا تفتر حماسته لها على مر السنين ؛ وكان يسووه أن يبتى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أى فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم . وكان شريف النفس من بعض الوجوه ؛ وكان يز درى الحرافات ، ويحرم أعمال المتنبئن أوالعرافين ، ولكنه صداق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية ، وبالغ في مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم . ولقد كان لهذه السذاجة النفسية بعض المحاسن : فقد كان في تفكيره وحديثه صراحة ونبل قلما نراهما في رجال الحكم .

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة ، وأشد ماكانت قسوته فيما بدله من جهود لنشر الدين المسيحى ؛ ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة ، كثير الإحسان، وفياً مخلصاً لأصدقائه ، ولقد بكى بالدمع عندوفاة أولاده ، وبنته ، والبابا هدريان . ويرسم لنا ثيودلف فى قصيدة له عنوانها « مسكم شارل ، صورة لطيفة للإمبر اطور في بيته ، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

أحاط به أبناوه ، فيخلع عنه ابنه شارل عباءته ، ويأخد ابنه لويس سفه ، وتعانقه بناته الست ، ويأتين له بالحبز ، والحمر ، والتفاح ، والأزهار ، ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك ، ويقترب منه ألكوين ليبحث معه ما لديه من الرسائل ، ومهرول إجهارد الضئيل الجسم هنا وهناك كأنه نملة ، ويأتيه بكتب ضخمة (١٠) . وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج ، وقال إنه لا يطيق فراقهن ، ومن أجل هذا أخدن يواسين أنفسهن بالارتماء في أحضان العشاق وجن بعدة أبناء غير شرعين (٢٠) . وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة ، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه ، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات أو حظايا . ذلك أن حيويته الموفورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء ، وكانت نساوه يؤثرن أن يكون لما رجل آخر بمؤثرن أن يكون لما رجل آخر بمفردها . وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون (٢٠٠٠) . وغض من في حاشيته ومن في رومة من روجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية .

وكان شارلمان وقتئد على رأس دولة أعظم من الإمبر اطورية البزنطية لا يعلو عليها في عالم الرجل الأبيض إلا دولة الحلفاء العباسيين ، ولكن كل توسع في حدود الإمبر اطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة . فلقد حاولت أوربا الغربية أن تحمى نفسها من الألمان بإدماجهم في حضارتها ، غير أن ألمانيا كان عليها في هذا الوقت أن تحمى نفسها من أهل الشهال ومن الصقالبة ، وكان الملاحون من أهل الشهال قد أنشأوا لهم مملكة في چتلنده الصقالبة ، وكان الملاحون من أهل الشهال قد أنشأوا لهم مملكة في چتلنده وأسرع اليهم شارل من رومة ، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطي والأنهار ، وأقام حاميات في الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك والأنهار ، وأقام حاميات في الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك چتلندة على فريزيا عام ١٩٠٠ صدًا عنها ، ولكن شسارلمان هاله إن يشهد من قصره في نربونة بعد قليل من ذلك الوقت ، إذا جاز لنا أن

تصدق أخبار راهب سانت جول ، سفن القراصنة الدنمرقيين في خليج ليون ه ولعله قد تنبأ ، كما تنبأ دقلديانوس من قبل ، بأن إمبراطوريته الواسعة في حاجة إلى الدفاع السريع عنها في عدة مواضع في وقت واحد ، فقسمها في عام ٢٠٨ بن أولاده الثلاثة - پيپن ، ولويس ، وشارل . ولكن پيپن توفى في عام ٨١٠ ، وشارل في عام ٨١١ ، وم يبق من هولاء الآبناء إلا لويس ، وكان منهمكا في العبادة انهماكا بدا معه أنه غير خليق بأن يحكم عالما مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن أويس رغم هذا قد رفع باحتفال علما مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن أويس رغم هذا قد رفع باحتفال مهيب في عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا ؛ عبيب في عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا ؛ عبيب في عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا ؛ عبيب في عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا ؛ عبيب في عرشي ولدى يجلس عرشي ولدى يجلس عرشي وردن)

و بعد أربع سنين من ذلك الوقت أصيب الملك الشيخ وهو يقضى الشتاء في آخن بحمى شديدة نتج عنها النهاب البلورة ، وحاول أن يداوى نفسه بالاقتصار على السوائل ، ولكنه توفي بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن حكم سبعا وأربعين سنة وعاش اثنتين وسبعين (٨١٤) ، ودفن تحت قبة كندرائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية . وما لبث العالم كله أن أسماه كارولس ماجنس Carolus Magnus أو كارل درجروس Karl der Grosse أو شارلان بعيع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة اللي أحسن إليها الإحسان وعا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة اللي أحسن إليها الإحسان كله في زمرة الصالحين المنعمين .

### ٣ ــ اضمحلال الكارولنچيين

كانت النهضة الكارولنجية قرة من فرات البطولة المتعددة في العصور المظلمة ، ولولاما اتصف به خلفاء شارلمان من عجز وما شجر بينهم من نزاع لكان من المستطاع أن تقضى هذه الفرات قبل مجيء أبلار بثلاثة قرون على ظلمات تلك

العصور ، وعلى فوضى بارونات الإقطاع ، وعلى النزاع الذي قام بين الكنيسة والدولة ومزقها شر ممزق ، وعلى غارات النورمان ، والحجر ، والمسلمين النِّي أدى إليها هذا النزاع الأخرق . لكن رجلا بمفرده ، وحياة بمفردها لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة . يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصىرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق ، فلم يكن للمواطن العادى فيها نصيب ، وما أقل من كان يعنى بها من النبلاء ، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتجلم القراءة . وما من شك فى أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته . فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة ، بعد أن رفعت يده القوية عنهم ، يرجح سلطان الإمبراطور ؛ ولقد اضطرته أسباب حربية وإدارية أن يمنح المحاكم والبارونات في الأقاليم قدراً من الاستقلال شديد الخطورة . ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم ، وعلى ما تدره أراضيه ومناجمه من إيراد غىر كبير ، ولم يكن في وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشي ببروقر اطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها ، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه ، فلم يكله يمضى على وفاته جيل واحد حتى أقيل رسل الإمبر اطور الذين بسطوا سلطانه في الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم ، وألتى الأعيان المحليون عن كاهلهم سلطان الحكومة المركزية . وملاك القول أن حكم شارلمان كان عملا جليلا من أعمال العباقرة يمثل الرقى السياسي في عصر وفي رقعة من الأرض يعمهما الاضمحلال الاقتصادى.

وإن الألقاب التي أطلقها المعاصرون لحالفائه عليهم لتكنى وحدها لأن تقص علينا قصتهم : لويس التي Louis the Pious ، وشارل الأصلع Charles وشارل البدين Louis the Stammerer ، ولويس المتلعثم the Bald

the Fat ، وشارل الساذج Charles the Simple . فأما لويس « التقى » (\*\*)

( ١٤٠ – ١٤٠) فكان كأبيه طويل القامة ، جي الطلعة ؛ وكان متواضعاً ، رقيق الحاشية ، خيراً كريماً ، مفرطاً في اللين إفراط يوليوس قيصر . وكان قد تربى على أيدى القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ الأخلاقية التي كان يزاولها شارلمان باعتدال . من ذلك أنه لم تكن له إلا زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا ، وأنه طرد من حاشيته عشيقات أبيه وعشاق أخواته ، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن في أديرة الراهبات . وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم ، وأمر الرهبان أن يحيوا الحياة التي توجبها عليهم قواعد البندكة ن ، وحاول أن يقضي على المظالم والاستغلال أينا وجدا ، وأن يصلح ماكان فاسداً من قبل . وقد أعجب الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء في جميع الأحوال .

وأحس لويس أن عادات الفرنجة توجب عليه تقسيم دولته فقسمها إلى ممالك يحكمها أبناوه – بيبن ، ولوثير Lothaire ، واويس « الألمانى » (وسنسميه لدفيج فيها بعد) . وقد رزق له يس من يوديت Juidith زوجته الثانية ابناً رابعاً يعرف فى التاريخ باسم شارل الأصلع ؛ وكان لويس يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم ، ويريد أن يعطيه قسطاً من إمبراطوريته بعد أن يلغى التقسيم الذى عمله فى عام ٨١٧ ؛ لكن أولاده الثلاثة الكبار عارضوا فى هذا وشنوا على أبهم حرباً داخلية دامت ممانية أعوام . وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة ، ثم خرجت عليه القلة التى ظلت موالية له عند ما تأزمت الأحوال فى رُتفلد Rothfeld عليه القريبة من كلار Colmar ) والتى عرفت فيا بعبد باسم لوچنفلد ( القريبة من كلار ميدان الأكاذيب . فلما رأى ذلك لويس أمر من بتى من أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بجاية أنفسهم ، ثم استسلم لأبنائه

<sup>( ﴿ )</sup> وكلمة Pious الإنجليزية ( ومثلها تقى العربية ) ترجمة خاطئة تأيدها طول الزمن لكلمة pius اللاتينية التي تعني موقر ، أمين رحيم ، لطيف ، وكثيراً من المعانى الأخرى .

(۸۳۳) ، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها ، وأودعوا شارل الصغير في دير ، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علنا عما فعل . وجيء بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفا ، وأرغم في حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه ، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقرأ جهرة اعترافاً بجريمته . ثم لبس مسوّح الندم الرمادية اللون ، وقضى سنة في أحد الأديرة . وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بن الأسرة الكارولنچية المتفككة .

واشمار الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس ؛ واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بإلغاء قرار الحلع ، ودب النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وأطلق پيپين ولدفج أباهما ، وأجلساه على عرشه ، وأعادا يوديث وشارل إلى أحضانه (٨٣٤) . ولم يثأر لويس لنفسه ، بل عفا عن كل من أساءوا إليه . ولما مات پيپين (٨٣٨) قسمت الدولة تقسيا جديداً لم يرض عنه لدڤج ، وهجم على سكسونيا ، ونزل الإمبراطور الشيح مرة أخرى إلى ميدان القتال ، وصد المهاجمين ، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفى بالقرب من إنجلهام من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفى بالقرب من إنجلهام الله الله الله الله الله على من إنجلهام الله الله نطق ما رسالة يصفح بها عن لدڤج ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ، رسالة يصفح بها عن لدڤج ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ،

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدڤيج منزلة الأنباع ، ولكنهما هزماه عند فنتناى Fonteney ( ١٨٤١) ، وأقسها عنداستر اسبرج يمين الولاء المتبادلة المشهورة بأنها أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية . لكنهما وقعا مع لوثير في عام ٨٤٣ معاهدة قردون ، وقسموا فيابينهم إمبر اطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه النقريب على إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا الحالية . فاختص لدڤيج بالأراضي المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، واختص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

الحدود الأسهانية ، وأعطى لوثير إيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً ، والشلد Scheld ، والساءون Saône والرون غرباً . وسميت هذه الأراضي الغير المتجانسة ، والممتدة من هولندة إلى بروقانس باسم لوثير سفكانت أرض لوثير ، أو لوثر نجيا Lutharingia . أو لوثر نجار Lutharingar ، أو لورين Lorraine . ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية ، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا ، وكثيراً ما استبدلت سيداً بسيد فيما تقلب عليها من نصر وهزيمة أريقت فيهما الدماء أنهاراً .

وفى خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف ، والتي أضعفت الحكومة ، وأنقصت السكان ، والثروة ً ، والروح المعنوية في أوربا الغربية ، غزت القبائل الإسكنديناوية في سعمها إلى التوسع وبسط السلطان يلاد فرنسا فاكتسحتها بموجة همجية واصلت وأنمت الخراب والدعر اللدين جاءا في أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون . فبيناكان أهل السويد يتسربون إلى الروسيا والنرويجيون يضعون أقدامهم فىأيرلندة ، والدنمر قيون يفتحون إنجاترا ، كان خليط من أهل اسكنديناوة ، في وسعنا أن نسمهم الشهالين أو أهل الشهال ، يغرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التى حملات قوية تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من ماثة سفينة ، يسىرها ملاحون محاربون . وقاست فرنسا في القرنىن التاسم والعاشر سبعا وأربعين من هذه الهجات الشمالية ؛ ونهب المغيرون في عام ٨٤٠ مدينــة رون Rouen ، وبدأوا مائة عام من الهنجات على نورماندی ؛ وفی عام ۸٤٣ دخلوا مدينة نانت Nantes وذبحوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه ، وفي عام ٨٤٤ صعدوا في نهر الجارون Garonne إلى طلوشة Tculouse . وفي عام ٨٤٥ صعدوا في نهر السين إلى باريس ، واكمنهم تركوا المدينة وشأمها بعدأن أخذوا جزية مقدارهاسبعة آلاف رطل منالفضة .

وبينا كان المسلمون مهاجمون رومة استولى أهل الشهال على فريزيا فى عام ٨٤٦ وأحرقوا دوردرخت Dordreeht ، ونهبوا ليموج Limoges . ثم حاصروا بوردو Bordeaux في عام ٨٤٧ ، ولكنهم ردوا عنها . وأعادوا: الكرة عليها في عام ٨٤٨ ، واستولوا عليها في هذه المرة ، ونهبوها ،. وقتلوا أهلها ، وأحرقوها عن آخرها . وفي العام الذي تلاه وجهوا مثل. هذه الضربات إلى بوڤيه Beauvais وبايو Bayeux ، وسانت لو St. Lu ، ومو Meaux ، وإيفرو Evreux ، وتور Tours وفي وسعنا أن نصور ما حل سهذه البلاد من رعب إذا قلنا إن تور نهبت في أعوام ٨٥٣ ، و ٨٥٦ ، و ۸۲۲ ، ۸۷۲ ، و ۸۸۲ ، و ۹۰۳ ، و ۹۱۹ (۱۹) ، وإن باريس نهبت. ُ عامى ٨٥٦ ، و ٨٦١ ، وأحرقت في عام ٨٦٥ . وجهز الأساقفة في أورليان وشارتر Chartres جيشن صدوا سهما المغيرين (٨٥٥) ؛ ولكن. القراصنة الدنمرقيين خربوا أورليان في عام ٨٥٦ . وفي عام ٨٥٩ اخترق. أسطول شهالي مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط ، ونهب المدن. الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة ڤالنس Valence شمالا ، ثم عبر خليج چنوا ، ونهب پيزا وغيرها من المدن الإيطالية . ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة في أماكن متفرقة في طريقهم نهبوا أو أتلفوا كنور الكنائس والأديرة غير المحمية ، وكثيراً ما أحرقوها بما فها من مكتبات ، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل في بعض الأحيان . وكان الناس في تلك الأيام الحالكة يدعون ربهم في صلواتهم قائلين : « اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال ١٤٠٦ ! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية في عام ١٠٠ ، ونهبوا ساحل الرڤيىرا الفرنسي في عام ٨٢٠ ، وخربوا أرل Aries في ٨٤٧ ، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبتى فى أيديهم حتى عام ٩٧٢ .

ترى ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الحمسن

المليئة بالتدمير والتخريب ؟ فأما الأشراف فقد كان المهم من المشاغل ها يكفيهم ، ولم يكونوا يرغبون فى أن يخفوا لمساعدة أقاليمهم ، ولم يستجيبوا إلا استجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعي . وأما الملوك فكانوا في شغل شاغل بحروبهم فى سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية ، وكانوا أحياناً يشجعون الشماليين في غاراتهم على سواحل منافسيهم . وحدث في عام ٨٥٩ أن اتهم هنكمار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلع علناً بالإهمال في الدفاع عن فرنسا . وخلف شارل فيما بن ٨٧٧ و ٨٨٨ ملوك أكثر منه ضعفاً ــ لويس الثالث ، وكارلومان ، وشارل البدين . وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين ، وأتبحت للإمبراطورية المحتضرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها . ولكن أهل الشمال استولوا على نجمجن Njmegen وأحرقوها في عام ٨٨٠ ، وانخلوا من كورتراي Courtrai وغنت قلاعاً لهم حصينة ، وفي عام ٨٨٠١ أحرقوا لياج Llége ، وكولونى ، وبن Bonn وپروم Prüm ، وآخن ؛ وفي عام ۸۸۲ استولوا على تريير Trier ، وقتلوا كبير أساقفتها الذي قاد المدافعين عنها ؛ وفي السنة نفسها استولوا على ريمس ، وأرغموا هنكمار على أن يقاتل ويموت . وفي عام ٨٨٣ استولوا على أمين Amiens ، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخلوا اثني عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان . وفي عام ٨٨٥ استولوا على رون ، وساروا فى النهر صعداً إلى باريس فى سبعائة سفينة علما ثلاثون ألف رجل . وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أوأود Eudes ، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها ، وقاوموا المغيرين مقاومة باسلة . وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشرشهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثنتي عشرة مرة ؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين إلى الشهاليين ا ٧٠٠٠ رطل من الفضة بدل أن يخف لإنقاذ المدينة ، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا في نهر السين صعدا ويقضوا الشتاء في يرغندية التي نهبوها نهباً ( tite-15-11)

ترتضيه نفوسهم . ثم خلع شارل وتوفى عام ٨٨٨ ، واختبر أودو ملكا على فرنسا ، وصارت باريس بعد أن ثبتت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة .

وحمى شارل الساذج الذى خلف أودو على العرش ( ٨٩٥ – ٩٢٣ ) والحلم السين والساءون من المغيرين ، والكنه لم يرفع يده ضد غازات الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف سهذا بل أسلم إلى رولف Rolf الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف سهذا بل أسلم إلى رون ، وليزيو أو رولو Rollo أحد زعماء النورمان في عام ٩١١ أقاليم رون ، وليزيو ووافق النورمان على أن يودوا عنها للملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم ، ولكنهم كانوا يسخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية . وارتضى ليو أن يُعمَّد ، وحدًا رجاله حدوه ، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين . وهكذا بدأت نورمنديا بأن كانت ولاية في فرنسا فتحها أهل الشهال .

ولقد وجد الملك الساذج حلا لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل ؛ ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين . أما في غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشهاليين ، فنهت تشارتر في عام ٩١١ ، وأنجير Angers في عام ٩١٩ ، ونهبت آكتين Aquitaine ، وأوڤرني في عام ٩٢٣ ، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه في ٩٢٤ ، وفي هذا الوقت نفسه تقريباً دخل المجر برغندية في عام ٩١٧ بعد أن خربوا جنوبي ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها بعد أن خربوا جنوبي ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة ، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان وأحرقوا ضواحي كورتراي ، واخترقوا كأرجال الجراد الفتاك أكتين (١٥١) . وأحرقوا ضواحي كورتراي ، وليون ، وريمس (١٩٥٤) ، ونهبوا برغندية على مهل . وأوشك صرح النظام الاجتماعي في فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التي كالها له الشماليون والهون . وفي ذلك يقول أحد. المخامع الدينية المقدسة في عام ٩٠٩ :

لقد أقفرت المدن من السكان ، وخربت الأديرة وأحرقت ، وأضحت البلاد في عزلة . . . وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون . . . فكذلك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً في نظره غير آبه بالشرائع البشرية والدينية . . . فالأقوياء يظلمون الضعفاء ، والعالم ملىء بالعنث والقسوة على الفقراء ، وأملاك الكنائس تنهب . . . ويلتهم الناس بعضهم بعضاً كما يفعل السمك في البحر (٢٧) .

وكان آخر الملوك الكارولنچين ــ لويس الرابع ، ولوثير الرابع ، ولويس الحامس ملوكاً حسني النية ، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه لإقامة نظام دائم من ذلك الحراب الشامل . ولما مات لويس الحامس ولم يكن له أبناء ( ٩٨٧ ) ، بحث أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة أخرى غبر الكارولنچين ، حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو ربرت القوى Robert the Strong ( المتوفى عام ٩٦٦ ) . وكان أو دو منقذ باريس ابن هذا المركنز ؛ وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده ( المتوفى عام ٩٥٦ ) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمنديا ، والسن ، والاوار كله تقريباً وكان فيه أمراً إقطاعياً ، واجتمع له فيه من الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك . وورث هيوكابت Hugh Capet ابن هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان ؛ وورث ، كما يلوح ، العزيمة التي كسبتهما . وعرض أدلرو Adathero كبير الأساقفة ، بإرشاد العالم الداهية جربرت ، أن يكون هيو كابت ملكاً على فرنسا . فانحتم لهذا المنصب بالإجماع ( ٩٨٧ ) وبدأت بذلك الأسرة الكابئية التي حكمت ابناً أو أباً أو سحكم فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى.

### ٤ – الآداب والفنون ٨١٤ – ١٠٦٦

لعلنا قد غالينا فى وصف ما أحدثته غارات الشهاليين والمجر من أضرار ، خلك أن حشدها كلها فى حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة فى تلك فلأوقات قاتمة فوق ما تستحق ، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد فيها الأمن والسلام ؛ فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع الرهيب ، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة ، وازدادت مديتة رون قوة بفضل اتجارها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق ؛ وسيطرت كولونى ومينز على التجارة المارة بنهر الرين ؛ ونشأت فى فلاندر ، وسيطرت كولونى ومينز على التجارة المارة بنهر الرين ؛ ونشأت فى فلاندر ، مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت ، وإيبرس Ypres ، وليل عالم ، فلانون ، ودويه ، وآراس Arras ، وتورناى ، Tournai ، ودينان Dinami ،

وأصيبت مكتبات الأديرة بخسائر فادحة في كنوزها القديمة من جراء هذه الغارات ، وما من شك في أن كثيراً من الكنائس التي أنشئت فيها مدارس عملا بقرار شارلمان قد دمرت ، وإن كانت مكاتب قد بقيت على الأديرة أو الكنائس القائمة في فلدا ، ولورسن Lorson ، وريشنو . وريشنو . ومينز ، وتريير ، وكولوني ، ولييج ، ولأون Laon ، ومينز ، وتريير ، وكولوني ، ولييج ، ولأون وريس ، وكوريي Grbie ، وسانت دئيس ، وتور ، وبييو Bobbio ، ومونتي كسينو ، وسانت جول . . . واشتهر دير البندكتين في سانت جول بمن كان فيسه من الكتاب ، كما اشتهر عمرسته وكنها ، وفيه كتب نتكر يلبولوس Notker Balbulus — الألكن — (١٠٤٠) ترانيم بديعة ممتازة وسجل راهب سائت مول ، وفيه ترجم نتكر لبيئو Notker Labeo — الغليظ الشفة — (١٠٥٠ — الغليظ الشفة — (١٠٥٠ — الغليظ الشفة الكتب القديمة وفيه من الكتب القديمة وفيه كتب وأرسيط وغيرها من الكتب القديمة وفيه من الكتب القديمة وفيه كتب وأرسيط وغيرها من الكتب القديمة وأرسيد والمنائب وأرسيط وفيه كتب وأرسيط وأر

إلى اللغة الألمانية ؛ وأعانت هذه التراجع ـ وهي من أول ماكتب بالنبر · الألماني ـ على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها .

وحتى فى فرنسا الجربحة كانت مدارس الأدبرة تضيء حلكة هذه العصور المظلمة . فقد افتتح ريمي الأوكسرى Remy of Auxerre مدرسة عامة في باريس عام ٩٠٠ ؛ وأنشئت في القرن العاشر مدارس أخرى في أوكسير وكوربى ، وريمس ، وليبج . وأسس الأسقف فلبير Fulbert ( ۹۲۰ ـ ۱۰۲۸ ) بمدينة تشارتر حوالي ۱۰۰۲ مدرسة أصبحت أشهر مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار ؛ ففيها وضع سقراط المجيل - كما كان تلاميذه يسمونه ــ قواعد تدريس العلوم ، والطب ، والآداب القديمة ، بالإضافة إلى علوم الدين ، والكتاب المقدس ، والطقوس الدينية . وكان فلبير هذا رجلا كريم الطبع ، عظيم الإخلاص ، صبوراً صبر أولى العزم من الرسل ، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد . ولقد تخرج في مدرسته ــ قبل ختام القرن الحادي عشر \_ علماء أمثال جون السلزبوري John of Salisbury ، وولم الكنشي William of Conches ، وبرنجار التورى Berengar of Tours ، وجلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porréa . وفي هذه الأثناء وصلت مدرســة القصر التي أنشأها شارلمان أوَّج مجدها في كمپيني Compiègne تارة وفي لأون تارة أخرى بفضل ماحباها به شارل الأصلع من عزن وتشجيع .

فقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر فى عام ١٤٣ علماء أبرلندين والمجليز فى عام ١٤٣ علماء أبرلندين والمجليز فى بختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة فى العصور الوسطى ، رجل يبعث وجوده فى ذلك الوقت الشك فى صواب استبقاء اسم و العصور المظلمة » حتى على القرن التاسع نفسه ، يكنه غيره من القرون -

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاهفاً ، فهو چوهان أسكوتس إريوچينا ي Erin أى چون الأيرلندى المولود فى إرين Johannes Scotus Eriugina وسنسميه نحن إرچينا Erigena وكني . ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين ، ولكنه كان رجلا متبحراً في العلوم ، يجيد اللغة اليونانية ، مغرماً بأفلاطون. والآداب القديمة ، حلو الفكاهة إلى حد ما . وتحدثنا إحدى القصص ــــ التي يبدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء ــ أن شارل الأصلع ،. كان يطعم معه في يوم من الأيام فسأله : ما الفارق بين الأبله والأيرلندي. quid distat inter sottum et Scottum بأجابه چون – كما تروى القصة ـــ : ﴿ المنضدة ﴿ ﴿ ﴿ ﴿ ﴾ . وَلَكُنْ شَارِلُ رَغْمُ هَذَا كَانْ يُحْبِهُ حَبًّا ﴿ وَلَكُنْ شَارِلُ رَغْم وكان يشهد محاضراته ، وأكبر الظن أنه كان يستظرف إلحاده . ويفسر چون العشاء الزباني في كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزي ، ويتضمن هذا ارتيأبه في وجود المسيح بحق في الخبز والحمر المقلسين . ولما أخذ الراهب الألماني جتسشولك Oottschalk ينادى بمبدإ الجمرية المطلقة وينكر تبعاً لللك مبدأ حرية الإرادة في الإنسان ، طلب هنكمار كبير الأساقفة إلى إرجينا أن يرد عليه كتابة . فأجابه هذا إلى ما طلب وكتب. رسالته المسهاة الجيرية الإلهية De Divina praedestinatione (حوالى عام ١٥٥) . وقد بدأها ياطراء الفلسفة إطراء عظما فقال : ٥ من يشأ أن يبحث جادًا عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها ، يجد جميع الوسائل الموصلة إلى العقيدة الصالحة الكاملة في العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما. اليونان اسم الفلسفة » . وينكر الكتاب في واقع الأمر مبدأ الجرية ، ويقول. الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان ، وإن الله لا يعرف الشيء ، ولو . عرفه لكان هو سببه . وكان رد إرچينا أكثر إلحاداً من أقوال جنسشولك ، وأنكره مجلسان من مجالس الكنيسة في عامى ٨٥٥ و ٨٥٩ ، وأودع: بجتسشولك في دير قضي فيه بقية حياته ، أما إرچبنا فقد حماء الملك. وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس التي في عام ٨٧٤ مخطوطا يونانيا لكتاب يسمى الحكومة السكنونية السحاوية . ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس و الأريوپاجي » Disnysius the "Areopagite" وأحال لويس التي الخطوط إلى دير سانت دنيس ، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية ، فقام ارجينا بهذه المهمة إجابة لطلب الملك . وتأثر بالترجمة أعظم التأثر ، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التي ترسمها الأفلاطونية الحديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله في مراحل مختلفة أو درجات منفاوئة من الكمال آخدة في النقصان ، والذي يعود ببطء ويدرجات متفاوئة إلى الله مرة أخرى .

وأصبحت هذه هي الفكرة الرئيسية التي يدور حولها أعظم مؤلفات چون النقسيم الطبيعي (٨٦٧). فني هذا الكتاب نجد بين كثير من السخف ، وقبل أبلار بقرنين من الزمان ، إخضاعاً جريئاً لعاوم الدين والوحي إلى العقل ، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، وفيه يقر چون بصحة الكتاب المقدس ، ولكنه يقول إنه لما كان معناه في كثير من أجزائه غامضاً ، فإن الواجب يقضي بتفسيره حسبا يمليه العقل – ويكون في هذا : وإن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من العقل ولكن العقل السليم يبدو ضعيفا ، ولكن العقل السليم يبدو ضعيفا ، ولكن العقل السليم يبدو ضعيفا ، ولكن العقل السليم الإ يحتاج إلى تأبيد السلطان أيا كان نوعه لأنه يستند إلى قوته ه (١٤) . « ويجب ألا نحتج بآراء آباء الكنيسة ... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بآرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين كان لا بعنون الاستدلال ، ولهذا يخضعون للسلطان لا للعقل ه (١٠٠٠) . فهاهو كا عصر العقل يتحرك في أرحام عصر الإيمان .

ويعرف چون الطبيعة بأنها : ١ اسم عام َ يطلق على جميع الأشياء التي

تكون وغير التى تكون ۽ أى على جميع الأجسام ، والعمليات ، والمبادئ ، والعلل ، والأفكار . وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكاثنات :

(١) ذاك الذي يَخلُق ولكنه لا يُخلَق – أي الله . (٢) ذلك الذي يُخلَق ويَخلُق ــ أَى العلل الأولى ، والمبادئ ، والنماذج الأولى ، والأفكار الأفلاطونية ، والكلمة ؛ وهي التي يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة ، (٣) ذلك الذي يُخلَق ولا يَخلُق - أي عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر ، (٤) ذلك الذي لا يَخْلُقُ ولا يُخْلُق – أي الله بوصفه الغاية النهائية التي تستوعب كل شيء . فالله هو كل شيء كائن بحق ، لأنه يكوِّن الأشياء جميعها ويتكوّن من الأشياء جميعها ، وليس ثمة عملية خلق في وقت بذاته ، لأن هذا القول يتضمن تغيراً في الله. « فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شيء ، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال في كل شيء ــ أي يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء »(٥١) . « والله نفسه لا يدركه عقل من العقول ، وليس الجوهر المكنونُ لكل شيء والذي خاقه الله مما يمكن إدراكه ، وكل الذي نراه هو الأعراض لا الجواهر ١٥٢٥ -أى ضور الأشياء الني تدركها الحواس والعقول لاحقائقها الني لاتعرف ولايمكن معرفتها — كما يقول كانْت Kant فيما بعد . وليست الخصائص المحسوسة في الأشياء متأصلة في الأشياءِ نفسها ، وإنما تتكوّن من الأشكال التي ندركها مها . « فإذا قيل لنا إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويترى ، ويسمع ... فيجب ألا نفكر إلا في أن حقيقته وقوته اللتين لا يستطاع وصفهما يُعبَسِّر عنهما بمعان تتفق معنا في طبيعتها ﴾ ــ أي موائمة لطبيعتنا ، «حتى لا يجد المسيحي الحق التتي ما يقوله عن الحالق ، فلا يقول شيثا عنه ليعلم به النفوس الساذجة ه(٥٣٪ . ولمثل هذا الغرض لا الشيء سواه نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى ، وليس « هو » هذا ولا ذاك<sup>(١٥)</sup> . فإذا فهمنا لفظ « الأب » جمعني المادة الخلاقة أو جوهر الأشياء جميعها ، و « الابن » على أنه الحكمة الإلهية التى تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها ؛ والروح على أنه الحياة أو حيوية الحلق ، إذا فهمنا هذه الثلائة على هذا النحو جاز لنا أن نفكر فى الله على أنه ثالوث . وليست الجنة والنار مكانين ، بل هما أحوال النفس ، فالنار هى الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هى السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية ) التى تتكشف من الأشياء جميعها للنفس التقية (٥٠٥) . وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هى حالة كهذه من حالات النفس (٢٠٥) . والأشياء جميعها خالدة : فللحيوانات أيضاً ، كما للآدميين ، نفوس تعود بعد الموت إلى الله أو إلى الروح الخالق الذى انبعثت منه (٧٠٥) . والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، هموجة مدية لا تغلب من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، هموجة مدية لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها فى آخر الأمر إلى الله :

لقد وجدت فاسفات شر من هذه الفلسفة وفي عصور النور ، ولكن الدكنيسة حسبتها تموج بالإلحاد والزندقة . ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصلع في عام ٨٦٥ إما أن يبعث بچون إلى رومة ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر . « حتى لا يستمر في تسميم الذين يسعون لطلب الحبز »(٩٥) . ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب ، غير أن الجليزيا من أهل مالمزبري Malmsbury يروى « أن چوهان اسكوتس جاء إلى الجلترا وإلى ديرنا ، كما تقول الأخبار ؛ وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يشدُ كُنُونه بأقلامهم الحديدية » ، وأنه مات من أثر هذا العمل . وأكبر الظن أن هذه النصة حلم من أحلام تلميذ كان يتمنى تحقيقه . ولقد تأثر بإرچينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لاپوريه على غير بإرچينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لاپوريه على غير العصر المظلم . ولما أن رفع ستار النسبان عن كتابه في القرن الثالث عشر حكم على سنس Sens بتحريمه (١٢٧٥) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

بأن ترسل نسخه جميعها إلى رومة وأن تحرق فها .

ووقف الفن الفرنسيون بشيدون كنائسهم على نظام الباسلقا رخم ما ضربه لهم شارلمان فلل الفرنسيون بشيدون كنائسهم على نظام الباسلقا رخم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة . وفي عام ٩٩٦ أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم من أبناء فلهيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب Fécamp النورماني . وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورماني والرومانسي ، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذي بني دير چوميج Jumiéges الكنسي (٩٤٠ — ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذي بني دير چوميج Jumiéges الكنسي (١٠٤٧ — الدير النورماني في بك ١٠٤٢ دخل رجل إيطالي آخر يدعي لانفر انك Lanfranc الدير النورماني في بك عام ٢٠٤٢ دخل رجل إيطالي آخر يدعي لانفر انك عامياً نشطاً ، مهرع الدير النورماني في بك عام الكثرة ما اضطر القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطر القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له . وقد خطط لانفر انك هذه الأبنية ، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن مأكثر منه خبرة مهذا البناء ، هم أكثر منه خبرة مهذا البناء ، ولكن دير الرجال في جائن العمل . ولم يبتي حجر واحد من حجارة هذا البناء ، ولكن دير الرجال في جائن اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسي الذي تطور في تورماندي على أيدي لانفر الك ومن جاء بعده .

وشيدت في القرن الحادى عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز، زيبها الفنانون بصور الجدران وبنقوش الفسيفساء والتماثيل. وكان شارلمان قد أمريأن يطلى داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون ؛ وزينت قصور آخن وأنجلهم بالمظلمات، وما من شك في أن كثير آ من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور. وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن في عام ١٩٤٤، ولكن نقوشاً شبهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية في كنيسة سان جرمان St. Germain في أوكسير. ولا تختلف هذه النقوش في شكلها عن النقوش التي تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها.

وقد كتب رهبان مدينة تور في عهد شارل الأصلع نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك ؛ ولا تزال هذه النسخة محفوظة في قسم المخطوطات اللاتينية بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١ . وأجمل من هذا المخطوط إنجيل « لوثر » الذي كتبه في ذلك الوقت رهبان تور أيضاً . كذلك أخرج رهبان ريمس في هذا القرن التاسع كتاب تزاتيل ورقة من الجلد الرقيق ويحتوى على مزامر داود وعقيدة الرسل مزدانة يكثر من صور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبعدد لا يحصى من يكثر من صور المهن والأعمال . وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة بدلت فن التصوير الدقيق الذي كان من قبل جامداً مستمسكا بالتقاليد .

## ه ـ نشأة الأدواق: ٩٨٧ ـ ١٠٦٦

وبرزت فرنسا التي كان يحكمها هيوكابت ( ٩٨٧ – ٩٩٦) فأصبحت وقنئذ أمة منفصلة عن غيرها ، ولم تعد تعترف بسيادة الإمراطورية الرومانية المقدسة عليها ، ولم تعد قط إلى أوربا الغربية الوحدة التي وهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة في أيلم نابليون وهتلر . ولكن فرنسا التي كانت في أيام هيوكابت لم تكن فرنسا القائمة في أيامنا هذه ، فقد كانت أكتن وبرغندية دوقيتين مستقلتين بالفعل ، وظلت لورين بعدئد سبعة قرون جزءا من ألمانيا . وكانت فرنسا في ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة : فكانت فرنسا الشهالية فلمنكية أكثر منها فرنسية ، وكان في دمها عنصر ألماني كبير ؛ وكان مكان نورماندي من الشهالين ، وكانت بريطاني كلتيه غير ذات ضلة بسائر البلاد ، يسبطر عليها لاجئون من بريطانيا ؛ أما پروثانس فكانت فرنسا المجاورة بجنس أهلها ولغتهم « ولاية » رومانية غالية . كذلك كانت فرنسا المجاورة

لجبال البرانس قوطية ، وقطالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضاكما يدل على ذلك اسمها « قطالونيا » . وكان نهر اللوار يقسم فرنسا الى إقليمين ، مختلفين فى الثقافات واللغات . وكان العمل الذى اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج هذه الأجناس واللغات المختلفة ، لينشئوا من أكثر من عشرة شعوب أمة موحدة ؛ ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام .

وأراد هيوكابت أن يهيئ الظروف لورائة للعرش منظمة ، فتوج ابنه ربرت ملكا معه في السنة الأولى من حكمه . ويُعـَد « ربرت التتي » (١٠٣١ - ١٠٣١) من الملوك الأوساط غير الميرزين (١٠٠٠ ، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجد الحروب. مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا ، ووصل معه إلى انفاق سلمي . وكان ربرت رءوفاً بالضععاء والفقراء يحميهم. قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوى الضمير ، ومثله في هذا كمثل لويس التاسع ، وهنرى الرابع ، و أويس السادس عشر . وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (٩٩٨) ، وُصهر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة ، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدثذ باثساً حزيناً إلى آخر أيام حياته : ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته (۲۱۲ ، وشبت نار حرب للوراثة بین ولدیه ، انتصر فیها هنری الأول (١٠٣١ – ١٠٦٠) أكبرهما ، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندی . ولما انتهی هذا الصراع الطویل (۱۰۳۱ – ١٠٣٩) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر فى المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين .

وانقسمت فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ م ، بفعل كبار الملاك الذين كانوا بضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهممن الأراضى ، إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق . وهذه الأقسام هي أكتن ، وطلنُّوشة ، وبرغندية ، وأنجو ،

وشمبانيا ، وفلاندرز ، ونورمندية . وكان هؤلاء الأذواق أو الكونتات في جميع الحالات تقريباً ورثة زعماء أو قواد منحهم الملوك المروقنچيون أو الكارولنجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية . وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكراء في تجييش الجيوش وحماية ولايات الحدود ، ولم يكن بعد عام ٨٨٨ يسن القوانين للمملكة جميعها ، أو يجي منها الضرائب ، بل كان الأدواق والكونتات يسنون القوانين ، ويجبون الضرائب ، ويشنون الحروب ، ويفصلون في القضايا ويعاقبون ، ويكادون يكونون سادة مستقلين في ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمى ، يكونون سادة مستقلين في ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمى ، في وضع القوانين ، والفصل في القضايا ، وفي الشئون المالية ، على ضياعه في وضع القوانين ، والفصل في القضايا ، وفي الشئون المالية ، على ضياعه الملكنة الحاصة ، وهي التي سميت فيا بعد جزيزة فرنسا الوليان إلى بوقيه ومن وتشمل إقليمي الساءون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوقيه ومن تشارتر إلى ريمس .

وتقدمت نورمندية دون سائر الدوةيات المستقلة استقلالا نسبياً بأن نمت نموًا سريعاً إلى أقصى حدود السرعة في قوتها وسلطانها ، فلم يمض علها قرن واحد بعد نسليمها لأهل الشهال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة ـ ولعل السبب في ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إيجلترا وباريس . وكان أهل الشهال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية ، لهم أديرة ومدارس أديرة ، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شـباب النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة . ذلك أن بحارة الشهال كانوا حكاماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقيسة ولا يرعون في الوصول إلى أغراضهم ضميراً ، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً ، مضطرباً ، مكوناً من الغاليين والفرنجة ، والشهاليين . ولم يكن ربرت الأول (١٠٢٨ – ١٠٣٥) قد أصبح بعد دوقا لنورمندية حن وقعت عينه في عام ١٠٢٦ على هار لـ Harlette ابنة

حباغ فى فالمز Falaise ؟ فلما رآها أضحت عشيقته العزيزة جرياً على إحبدى السنن الدنمرقية القديمة ، وسرعان ما أنجبت له ولداً يعرف عند معاصريه باسم وليم النغل William the Bastard وعند دنا نحن باسم وليم الفاتح . ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الدنوب غادر نورمندية فى عام ١٠٣٥ لميحج حجة التوبة إلى أورشليم ، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم :

وتوفى ربرت فى طريقه إلى أورشليم ، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه . ولما شبت فتنة فى البلاد تحاول خلعه أخمدها بوحشية ممزوجة بالكرامة ، فقد كان رجلا يجمع بين الدهاء والبسالة ، بعيد النظر فى وضعه خطط المستقبل ، ملاكاً لأصدقائه ، وشيطاناً على أعدائه . وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا التهكم بصلو رحب ، وكان من حين إلى حين يمضى بعض ما يكتب باسم وليم النفل Guijelmus Nothus ؛ ولكنه حين حاصر ألنسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدى من وقع في يديه من الأسرى وآرجلهم ، وفقاً أعينهم ، وقذف المدينة من مجانيقه مهذه الأعضاء . وأعجبت نورمندية بوحشيته وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد وليم من استغلال الأشراف وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد وليم من استغلال الأشراف المفلاحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الأتقياء الصالحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الأتقياء الصالحين ، وأرضى أولئك الأشراف العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم بسبق

له مثيل ، وقد أولع بحب ماتلده Matilda الجميلة ابنة بلدوين الله على قيد الحياة كونت فلاندرز ؛ ولم يوثر فيه أن لها والدين وزوجا لا يزال على قيد الحياة وإن كان منفصلا عها . غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت « إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تتزوج بنغل الالالالالالالالالاله و ولاتب يرجع عن حنها ، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين ؛ وثر تب على ذلك أن جرَّد الأسقف مالجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير لأنهما ذما هذا الزواج ، وحرق في سورة غضبه جزءاً من دير بك . ثم أقنع لانفرانك البابا نقولاس الثاني بأن يصادق على الزواج ، وأراد وليم أن يكفر عما فرط منه فبني في جائن دير الرجال النورمندي الدائع الصيت ، وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ؛ وكان قد وقع قبل ذلك وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ؛ وكان قد وقع قبل ذلك الوقت في عام ١٠٤٨ اتفاقاً مع ملك فرنسا . وبعد أن حي جناحيه مهاتين الوسيلة في وزينهما شرع وهو في التاسعة والثلاثين من عمره في فتح إنجلترا .

# البابالغشرون

نهضية الشال

1.17 -- 017

الفضيل الأول انجلترا (۷۷ - ۱۰۶۶)

١ ــ ألفرد والدتمرقيون ( ٧٧٥ ــ ١٠١٦ )

لم يلق فتح الإنجايز والسكسون والجوت لإنجلترا بعد واقعة دورهام الملاد (٥٧٧) Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيا بينهم ؛ فأقام الجوت مملكة في كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك في مرسية ، ونور ثمر لاند ، وأنجليا الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى في وسكس Wessex ، وإسكس Sussex ، والسكس Sussex ، وكانت وسسكس Sussex أي في سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه المالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هي التي تكون فيها « تاريخ إنجلنرا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالحتل في مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة ـ مملكة الإنجليز ـ

عِدَأَت غِزُوات الدَّنمرقيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ؛ وفي ذلك يقول السجل الإنجليزي السكسوني: « جاءت في عام ٧٨٧ ثلات سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلىن ــ وكانت هذه أولى سفن الدنمرقيين التي جاءت. تطلب أرض شعب الإنجليز ، وأغارت على نوثمر لند Northumberland في عام ٧٩٣ حملة دنمرقية أخرى ، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفي عام ٧٩٤ دخل الدنمرقيون نهروير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وچرو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفي عام ٨٣٨ هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفي عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة في نهر التاميز ، بينا كان بحارته ينهبون كنتر برى Canterbury و اندن . وفي عام ٨٦٧ ــ فتحت قوة من الدنمرقيين والسويدين مقاطعة نور ثمير لند ، وقتلت آلاداً من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شتتها . وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهي البلدة التي حبت شارلمان بألكوين ؛ ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد في شمال نهر التاميز خاضعا للمغىرين . واتجه جيش دنمرق بقيادة جثر م Guthrum نحو الجنوب في ذلك العام نفسه ليهاجم ردنج Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى إثلرد Ethelfed مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمرقيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغبرين ؛ ولكن إثارد جرح جرحاً مميتاً في معركة ثانية عند مَرتن Merton وولى الإنجلىز الأديار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهوفى الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أمنيناً illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يه في خالفة اللاتينية! ويبدو أنه كان مصابا (١٨ - ج ٣ - محله ٤)

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء في يوم زفافه ، ولكنه كان صياداً قوياً ، وسيم الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته في الحكمة والمهارة الحربية ، فلما مضى شهر على تتوبجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمرقيين الله الله الله عند ولتن Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرته إلى شراء الصلح من عدوه لينقذ يذلك عرشه ، غير أنه انتصر في معركة حاسمة عند إثندون Ethandun (إدنجتن المناق الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ، بعدها نصف الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wcdmore على الايتجاوز رجاله شمالي إنجائرا الشرق في الهدلاد التي سميت فيا بعد دين لو Danelaw .

ويقول أسر وهوكاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد بهمها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس ، ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكى يقاوم بها الدنمرقيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته كأنه شارلمان صغير الى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيما جديدا ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانونا موحداً لمالكه الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدنا وبلدانا جديدة ، وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والحشب أبهاء وغرفا ملكية » ، لموظنى حكومته الآخدين في الازدياد(٢) . وقد خصص جزءا من أيراد الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءا آخر مثله للتعليم . وأنشأ في ردنج عاصمة ملكه مدرسة في قصره ، وجاد بالمال بسخاء على وأنشأ في ردنج عاصمة ملكه مدرسة في قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعال التعليم والدين التي تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباد حين كانت « الكنائس فاصة بالكنوز والكتب . . قبل أن تحرب وتحرق ، بفعل الدنمرقيين ؛ غاصة بالكنوز والكتب . . قبل أن تحرب وتحرق ، بفعل الدنمرقيين ؛

أن عدداً قليلا جداً منهم . . . هم اللبن يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجلمزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية »(٣) . وقد بعث إلى. البلاد الخارجية في طلب العلماء - بعث في طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرچينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم ــ ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلا من الوقت يخصصه للقراءة ، ولهذ فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال المرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة في القراءة ، ولكنه كان «يأمر رجالا يقرأون له ليلا ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمـــل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجلىزية ، وجد هو نفسة فى ترجمة كتاب سلوى الفلسفة The Consolation of Philosphy ابوثتيوس Boetius ، وكتاب العنام بالرعى Pastoral Care بلويجورى ، وكتاب الناريخ العام Pastoral Care History كأوروسيوس Orosius وتاريخ إنجامرا الكنسي Ecclesiastical History of England ؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغانى شعبه ، و علمها أولاده ، وشارك المغنى فى بلاطه فى إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت في عام ١٩٤٤ ، وبعث دنمرقبو والدين لوالى الغزاة بالمدد ، وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، الدين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، حلفا مع الدنمرقيين . وانقض إدور د ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجديد شمل الأسطول الدنمرقي ( ١٩٩٨ ) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس في وسعنا أن نوازنه برجل جبارمثل شارلمان لأن الرقعة التي كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، وإكنه ضرب

الأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية – تقواه ، واستقامته الحالية من التباهى ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعليم – ضرب لها بهذه الصفات مثلا ، وبعث فيها روحا ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل . وقد أعجب به قلتير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : «لست أظن أنه كان في العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر »(1) .

وواصل الإسكنديناويون هجومهم على إنجلترا في أواخر القرن العاشر، فأغارت قوة من الثميكنج ( القراصنة النرويجيين ) بقيادة أولاف تريجڤسون Olai Tryggvesson على سواحل انجلترا في عام ٩٩١ . وعجز الإنجلنز بقيادة الملك إثاره ( ۱۰۱۳ – ۹۷۸ ) ( الملقب بردلس Redeless أى غ المنتصح لأنه أبي أن يعمل بمشورة أحيان البلاد) فنفح الغزاة برشا سخية متتابعة ٠٠٠ر١٠ . ٠٠٠ر١٦ ، ٠٠٠ر٢٤ ، ٠٠٠ر٣٦ ، ٠٠٠ر٤٨ رطل من الفضة جمّعتها دينجلد Danegeld المخرب الوقع من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يْمَاوض نورمندية في عقد حلف معه ، وتزوج إما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندية ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمرقيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتنأجمور Witenagemor فأمر بقتل كافة من في الجزيرة من الدنمرقيين أينا وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر يحذافيره ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا في انجلَّرا من الذكؤر القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمرقة، وأقسم سوينأن يثأر لمقتلها، فغزا إنجلترا في عام٣٠٠، وأعاد الكرة عليها بحديم قواه في عام ١٠١٣ . وتخلى نبلاء إثار د عنه ، ففر إلى نور مندية ، وأصبح منبن الك إنجاترا وسيدها . غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت مرين ١٠ ، ١٠ ، وتخلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت Cnut بن سوین (۱۰۱۵). ومات إثار د فی لندن و هی محاصرة ، وحارب زادمند ذو الجانب الحدیدی Edmund Ironside ببسالة ولکن کنوت تغلب علیه عند أسندون Assandun (۱۰۱۹). وارتضت إنجلترا بأجمعها حمنوت ملکا علیها ، و تم بذلك للدنمرقین فتح إنجلترا.

## ٣ ـ الحضارة الإنجلمزية ــ السكسونية ٧٧٥ ــ ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ؛ فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها فى إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطاع معه فهم نظام الحكم فى البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولفد تبدلت فى أثناء الفترات الجالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والنجارة ، وبعثت الآداب بعثاً جديداً ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس في التاريخ أساس لذلك القول الحداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الدمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزي السكسوني قد استولوا على الأرض الزراعية، فلم يحل القرن السابع المبلادي حيى كان عددقليل من الأسر يمتلك ثلثي تلك الأراضي (م) ، ولم يحل القرن الحادي عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الحاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفي أثناء الغزو الدنمرق نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم في نظير حمايتهم ، الغزو الدنمرق نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم في نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من عصولهم أو من كدحهم إلى أحسد السادة الملاك(١) . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » ، « واجتماعات الات ، وهي اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمقاط . و خدن م وهي اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمقاط . و أخذ م يكن يسمح بخضورها إلا لملاك الأراضي ، وأخذت هساه ان

يضعف سلطانها ونقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويخل محل معظمه: محاكم النبلاء في ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا في يلد إلويتنأجوت Witenagemot القومى ــ «مجلس العقلاء » ــ وهو جمعية-صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ؛ وبغىر موافقة هذا المرلمان الأبئله لم يكن ملك إنجلمزى يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قبراطا إلى مزارعه الخاصة الني كان يستمل منها إيراده المستديم ؛ ولم يكن في وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائياً ، أر يشن حرباً ، أو يعقد صلحا إلا بموافقته (٧) . وكان أعظم سند للملكية. ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبن الكنيسة من حلف غبر رسمي. ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندىوبعده كانت نعتمد على رجال الدين في كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعي ، والوحدة. القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبری Glastonbury کبیر مستشاری الملکین إدمند Clastonbury ... ٩٤٦ ) وإدر د Edred ( ٩٤٦ – ٩٥٩ ) ، وقد حمى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئاً في نقله الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edwig ( ٩٥٩ ـ ٩٥٩ ) من البلاد ، ثم أعاده إدجر ٩٥٩ ( ٩٥٩ ـ ٩٧٥ ) إلها ، وهوالذي وضع الناج على رأس إدورد الشهيد Edward the ، وشاد کنیسة القدیس بطرس فی جلاستنبری ، 4۷٥ - 4۷٥ ) Martyr وشجع الفنون والتعليم ، وتوفى وهوكبير أساقفة كنتربرى فى عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونه أعظم قديسيهم قبل تومس آبكت . Thomas à Becket

ونشأت الشرائع ببطء فى هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت فى القانون. الألمانى القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت فى هذا القانون. عادات تبرئة المنهم بشهادة شهود يقسمون بأنه برىء ، كما بقيت فيه الدية ،

والتحكيم الإلهى ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ، وكانت الدية في القانون الإنجيلي (الإنجليزي) تختلف اختلافا له دلالته . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزا Thrimsas ( نحو ١٩٠٠ دولار أمريكي ) ، ودية الأسقف ، ١٩٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفن ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليسكسوني يقضي بأن يغرم الإنسان شلنا أو شلنن إذا تسبب في جرح إنسان جرحا يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلنا إذا قطع جزءاً من أذن ؛ على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكني لابتياع خروف . وكان قانون إثليرت يعاقب الزاني بأن يؤدي إلى زوج من زني بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى(١٨) . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودي به «خارجاً على القانون » فتصادر وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودي به «خارجاً على القانون » فتصادر وكانت توقع بدلامها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجلد ، والإخصاء ، أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية في بعض الحالات ، وبتر اليدين أو القدمين ، أو الشقة العليا ، أو جدع الأنف ، أو صلم الأذن ، وبتر اليدين أو إلقائه في هوة سحيقة (١٩) .

وكان النظام الاقتصادى شبيها بالقانون فى بدائيته ، وكان أقل تقدماً منه فى بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بدلت فى تقطيع الغابات وتجفيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال فى القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية الدبية ، والحلاليف ، والذئاب له تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق فى بعض الحالات مآل المذنين أو المجرمين ؛ وكان فى وسع الأزواج أو الآباء بيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ؛ وكان فى مقدور جميع أبناء الأمة أرقاء واو كان آباؤهم من الأحرار . وكان فى مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهى حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبت ديته القليلة إلى مالكه ، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطاع جلده حتى يموت (١٠) وكانت أهم تجارة فى برستل Bristol هى تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كفورا ، والمدن بالمنا غير كبيرة (\*) فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، وتشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، وونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نموا سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس فى عام ٢٠١ ليعظ فى لندن إحدى الحواضر فى أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء فى القرن الثامن بفضل مركزها الحربى المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت فى عهد بفضل مركزها الحربى المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت فى عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصَناعة تعمل عادة للسوق المحلية ؛ غير أن صناعتى النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدما من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجائهما إلى بلاد القارة الأوربية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سكوا في ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنبهات ؛ وكانت أربعة شلنات في إنجلئرا في القرن العاشر تكفي لشراء بقرة وتكفي ستة لشراء ثور (١٣) . وكانت الأجور منخفضة ملمذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون في أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الآحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

<sup>(،)</sup> وقد احفظ آخلط الزنجليزية بمقاطع أنجليسكسونية في بدايتها — tun (،) بدد به Thorp (قرية) منزل أو غور ، Thorp (قرية) ، المعاد ( د . . ) .

الساذجة الحشنة بستائر مصورة ، ويدنئون أجسامهم بالفراء ، ويجملون أثوامهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالجواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت في بعض العصور المتأخرة من تاريخ انجابرا ، فنحن نسمع الشيء الكثير عن الحشونة والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسرقة وغيرها من العادات المتأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان اللين أغاروا على انجلترا في عام المتأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان اللين أغاروا على انجلترا في عام المستوى الحلق والثقافي عند ضحاياهم . وكان جو انجلترا الرطب يغرى الإنجليز – السكسون بالإفراط في الطعام والشراب ، وكانت «حفلة الجعة ، الإنجليز – السكسون بالإفراط في الطعام والشراب ، وكانت «حفلة الجعة ، عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعباد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز في القرن الثامن وصفاً جميجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون بعيشون عيشة الدعارة والزني كما تعيش الحيل الصاهلة والحمر الناهقة ، (۱۳) ، يعيشون عيشة الدعارة والزني كما تعيش الحيل الصاهلة والحمر الناهقة ، (۱۳) ،

لا لو أن احتقارك للزواج المشروع كان مدف إلى الطهارة لكان آمراً محموداً ، أما وأنتم منغمسون فى الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحذون حذوكم ، فيهجرون أزواجهم الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . خذوا حذركم من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحتقر الزواج المشروع ، وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يؤدى هذا الاتصال إلى وجود شعب دنىء محقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد مهذا اللهتك وهذه الأخلاق المرذولة » .

وكان من حق الزوج فى القرون الأولى من حكم الإنجليز ــ السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غبر ها . وقله ندد مجمع هرتفورد Heriford الديمي (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن في بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم في الكتب ، ولكن لم يجدن في ذلك ما يحول بيهن وبين تأثير هن في الرجال واجتذابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشاعات ، ويستشيرون زوجاتهم في السياسة العامة (١٠٥٠) . وقد ظلت إثافلد ابنة ألفرد ، وهي ملكة ونائبة عن الملك ، جيلا من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحا ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانتزعت من الدتمرقيين دربي ، وليستر ، ويورك . ويقول عها وليم من أهل مالمزبري إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدي بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة هلاتك . وكانت تعيش في مرسية وقتئة (حوالي الى تلك العواقب المتعبة هلاتك . وكانت تعيش في مرسية وقتئة (حوالي حول اسمها جديفا Godgifa الذي اشهرت به فيا بعد كثير من القصص حول اسمها جديفا Godgifa الذي اشهرت به فيا بعد كثير من القصص حول اسمها جديفا Godgifa الذي اشتهرت به فيا بعد كثير من القصص حول اسمها جديفا Godgifa الذي اشتهرت به فيا بعد كثير من القصص حول اسمها جديفا Godgifa الذي اشتهرت به فيا بعد كثير من القصص حول اسمها جديفا Godgifa المثال في كوفيتري Coventry (\*\*)

وعانى التعليم ، كما عانى كل شيء سواه ، الأمرَّين من جراء الفتح الإنجليزى ـــ السكسونى ، ثم أخذ يبهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب محوالى عام ١٦٠ ، كان بيد Bede مدرسة فى دير ويرزموث Wearsmouth حوالى عام ١٦٠ ، كان بيد مارت من جريجها : وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة فى كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للنعليم الثانوى فى انجلترا ، وأضحت انجلترا فى النصف الثانى من

<sup>( ۽ )</sup> وقد ورد في هذه القصة أن ليوفريك رضي أن يعني المدينة من ضريبة باهظة إذا خرجت هي إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم في أوربا الواقعة شمال جيال الألب .

ويتجلى إخلاص معلمى الأديرة وظرفهم فى شــخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه ( ٣٧٣ ــ ٧٣٥ ) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، يطرس وبولس ، القائم في وبرزموث وجرو . وإذ كنت قد ولدت في إقليم ذلك الدير فقد أدخلني أهلي فيه وأنا في السابعة من عمرى لأربى على يدى رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتي كلها بعد ذلك الوقت في هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والمحافظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية في الكنيسة ؛ وكنت أستمتع على الدوام بتلتي العلم أو بالكتابة . . . حتى عينت شماساً في التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً في سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . . (١٧) .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواعظ ، وثبتا بالحوادث العالمية و تواريخها ، ورسائل فى النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه فى القاريخ السكفسي للأمر الإنجليزية (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة فى أنه ليس سجلاج فا للحوادث ؛ وربحاكان فى الجزء الأخير منه مثقلا فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسداجته البريئة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ؛ ولكنه رغم هذا كله قصة و اضحة خلابة ، تسمو فى أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة ولكنه رغم هذا كله قصة و اضحة خلابة ، تسمو فى أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البسيطة ، كما نرى ذلك فى وصفه للفتع الأنجابسكسونى (١٨). وكان بيد رجلا مفكراً حى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو فى العادة دقيق فيا يورده منها ؛ يعن المراجع التى يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « استأريد أن يقرأ أبنائى أكدوبة واحدة »(١٩) ، ونرجوأن يكون قصده بأبنائه تلاميذه السمائة الذين علمهم . وقد توفى بعد ستسنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتى جمع فى سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل فى يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويذكربيد أن الناس في زمانه كانوا يتحدثون في إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية ( الكلتية ) ، والأيرلندية ، والبكتية ( الاسكتلندية ) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلا ، وكان يفهمها الفرنجة ، والنرويجيون ، والدنمرقيون ، فقد كان هولاء الأقوام الحمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة آدب أبجليسكسوني جدير بالاعتبار من التون السابع ، وليس لنا مصدر نعتمد عليه في تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية في إنجلترا الحروف اللاتيتية ( واستبدلتها بحروف شمالي أور با التي كانوا يكتبون بها من قبل ) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمرقية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مسهرون بعض الاستهتار في حيانهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إلىهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذي. كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجايسكسوني ـ وهي شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما في الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروى خروج آدم من الجنة . وهنا تسرى في الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبامها أن الشيطان يصوّر في صورة الثاثر المنفعل المتحدى ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لمحة بني عليها وصفه للشيطان فى قصيدته . ومن القصائد الأنجليسكسونية ما هو مراثٍ ؛ فقصيدة. « الحائل » مثلا تتحدث عن الأيام السعيدة الحالية في قضور الأشراف ؛ أَمَا الآن وقد مات النبيل « فقد أقفرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح. « أكثر ما يثىر الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة »(٢٠) ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذأ التعبير لا نستني من ذلك شعر دانتي نفسه . وأكثر ما تتغني به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهي حنن تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon (حوالي ١٠٠٠) لا ترى في هزيمة الإنجلىز شيئاً غير البطولة ؛ والمحاربالقديم برهتود Byrhtood ، وهو وا قف أمام جسد سيده القتيل « يبث الشجاعة » في قلوب السكسون حن أحدق العدو مهم بعبارات كعبارات مااورى Malory وتسبقها في الزمن:

كلما نقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه اللا فلتحل الأحزان والأشجان أبد الدهر بالرجل الذي يغادر وطيس القتال القد تقدمت بى السنون ، ولكننى لن أبرح هذا المكان ؛ إنى أريد أن أرقد إلى جانب مولاى ، إلى جانب الرجل الذي أعزه (٢١) .

و نظن أن بيولف Belowulf أطول القصائد الأنجليسكسونية وأنبلها قد ،

أنشلت في القرن السابع أو الثاءن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن في المتحف البريطاتي . ويبدو أن أبياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هي القصيدة بأكملها . والشعر غبر مقنى ولكنه موزون متجانسة أواثل ألفاظه ، مصوغ في لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها في هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط ( القوط؟ ) في جنوبي السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدتمرقة من التنن جرندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرندل وأم جرندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلا مدة خمسن عاماً . ويظهر وقتئذ تنبن ثالث يقذف باللهب ويعيث فساداً في أرض القيط ، فهاجمه بيولف ، ويصاب في هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجسلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التنهن. ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالتنن الذى تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان الىرى الذى بكمنّ فى الغابات المحيطة بمدن أوربا ، وفى وسعنا أن نعفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش فى تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقر ات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجز المها ، كأ بما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع فى أجز اء منفرقة منها سطراً يشعر بالتنى والصلاح. غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثنى خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب، والحياة، والمعارك الحربية على الأرض هي التي يعنى بهاأو لئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجئة هادلة وراء القبور. ويقول المؤلف في بداية القصيدة بعد

آن يدفن سلد Scyld الملك الدنمرق كما بدفن قراصنة الشهال في قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين: « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذي تلقي هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس يالجو الوثني المرح ، بل تسرى فيها من أولها إلى آخرها روح نكدة ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التي أقيمت في بهو هرثجار . وفي وسعنا أن نلمح في ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنن العازف على القيئار:

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ؛ وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ؛ فأخلوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة ببطولته في أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة المجيدة . . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رأفة ورحمة ، وأرقهم في معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثني على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بتى لدينا من القصائد فى أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ، ٦٨) هو أقدم الأسماء فى هذا الأدب . ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة فى كتاب بيد ، فقد جاء فى كتاب المتاريخ الكفسى (٢٣) أنه كان فى دير هو تبى Whitby أخ ساذج يجد فى الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبى فيه كلما جاء دوره فى الغناء . وخيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر فى مرقده أن ملكا قد جاءه وقال له : «غن لى شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ؟ وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ فى

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ؛ ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين ، والحروج ، والأناجيل شعرا «صاغه» كما يقول بيد « بألفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب » . ولم يبق من هذه الأشعار كلها الا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf ( ولد حوالى عام ٧٥٠ ) وهو شاعر مغن في بلاط نور ثمر لند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة — « المسيح » و « أندرياس Andreas » و « يوليانا » ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ميتة لاحياة فيها لكثرة ما يها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجيء النثر الأدبى في جميع الآداب بعد الشعر في الترتيب الزمنى ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الحيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً « وهم لا يعرفون » قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية في نثر إنجلترا الأدبي هي شخصية ألفرد ، فتراجمه ومقدماته يضفي علمها الإخلاص والبساطة كثيراً من البلاغة ، وهو الذي بذل من الجهد في نشر «ملف الأسقف كثيراً من البلاغة ، وهو الذي بذل من الجهد في نشر «ملف الأسقف على يديه أقوى وأوضح أقسام السجل الأنجليسكسولي أول كتاب قيم في النثر الإنجليزي . وليس ببعيد أن يكون معلمه أسر Asser هو الذي كتب الجزء الأكر من حياة ألفرد ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيا بعد (حوالي عام عهره) ؛ ومهما يكن من شأنها فهي مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية في الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية الى كانت لا تزال التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية الى كانت لا تزال التستحى من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة «العامية» .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعانى ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن فى أثلني Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحدقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروبه الكثيرة » كما يقول أسر ﴿ عن أن يعلمُ عماله في صناعة الذهب وصناعه في جميع الحيرف، (٢٥). ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ يمارس بجد صناعي الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقيا بارعا ، صنع لكنيسة \* جلاستنبرى أرغناً ذا مزامير. وقامت في البلاد الصناعات الفنية الدقيقة في الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو الجواهر مع الحفارين في صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر في رثول Ruthwetl وبيو كاسل Bewcastle (حوالي عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال من الشبه للماك كدولو Caḍwallo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممتظ صهوة جواد بالقرب من للجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغطية الفراش ، والأقشة التي تزدان ما الجدران، والمطرزات، من الحيوط البالغة غاية الدقة(٢٦٠) . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية في القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر مند عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوپ بالطراز اللمباردى إلى إنجلترا من الكنيسة التي أقامها في ويرزموث عام ٦٧٤ ؛ وأعادت كنتربري في عام ٥٥٠ بناء الكنيسة التي بقيت فها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوپ قد ازدانت بالنقوش المصنوعة في إيطاليا ، « وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلا لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف ، لا يسعه أينها ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه التي لا يبلي جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من و اجبه محاسبة نفسة حساباً عسمراً ، (٢٢٧) . وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة في البناء في بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أتموا فتوحهم، والدنمرقيون لم يبدءوها ،وأصبح البناءون الدين كانوا من قبل يبنون (14-37-14)

بالحشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التى تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن يندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصائعى الزجاج ، وصائغى الدهب ؛ وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمثالين والنقاشين من إيظاليا لزخرفة كنيسته التى شادها فى هكسهام بالمثالين والنقاشين من إيظاليا لزخرفة كنيسته التى شادها فى هكسهام عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحسيهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبر لاند . وقضى مجىء الدنمرقيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والحلال حتى استقر سلطان الملك كنوت فى إنجلترا على أساس مكين .

#### ۳ - بن فتحن ۱۰۱۹ - ۱۰۲۹

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكنى ، بل كان إلى هذا حاكما قديراً . ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيد Edmund ironside وأمر بذبح أخى إدمند ليمنع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء في رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه ( ١٠١٧ ) . وكانت هي وقتثذ في الثالثة والثلاثين من عرها ، وقبلت الحطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندية أخى إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وفرةوا وحدتها ، ووقى وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وفرةوا وحدتها ، ووقى الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرةوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة في المستقبل ، ووهمها اثني عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحى ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارياً

في أسندون Assandun إحياء الذكرى الأنجليسكسون والذيمرقيين الذين حاربوا في ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمتد ، ووعد بأن يتبع قوانين انجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفي بوعده فيا عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التي أفسدها الأعيان الأنوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبر مستشارى التاج ، وأنشأ طائفة من العال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل في جعل حكومة البلاد ثابئة مستمرة ؛ والموظفين المدنيين كان لهم الفضل في جعل حكومة البلاد ثابئة مستمرة ؛ وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنى حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز . وقد جمع بين تاجى الدنمرقة وانجلترا ، ثم أصبح في عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الدنمرق حلقة في سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفي الامتزاج العنصرى اللذين انتهيا بالفتح النورمندى وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزى. فقد امتزجت دماء الكلت والغاليين ، والإنجليز والسكسون والجوت ، والدنمرقيين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد في زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قراصنة عهد الملكة إلزبث الصخابين ، وفاتحى العالم الصامتين في القرون التالية . ولقد جاء الدنمرقيون الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار في أقاصى المبلاد ، أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمرقيين كارثة في أقاصى المبلاد ، أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمرقيين كارثة فن زخرفة الكتب فيا بين عامى ٥٠٠ ، ٩٠ ، كما وقفت النهضة العلمية فن زخرفة الكتب فيا بين عامى ٥٠٠ ، ٩٠ ، كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التي شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشاليين ما فعلته في غالة نفسها فأخذت تقضى على أعمال شلولمان المجيدة .

واو أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التي أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلقا مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ؛ وخلعت النرويج نير الدنمرقيين على الفور ، واضطر هار ثكنوت المدى المدنمرقيين على الفور ، واضطر هار ثكنوت المدى عينه قبل موته ولياً لعهده أن يكرس كل جهوده لحياية الدنمرقة من غزو النرويجيين ؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت عامين توفى المنافريين ؛ وحكمها هار ثكنوت عامين توفى بعدها سنة ١٠٤٧ ؛ واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن إثرل وإما الباقر، على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسونى غير الشقيق وارثاً لعرش المجاترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor كان غريباً عنها . فقله كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أى دنمرقى آخر غريباً عنها . فقله فابوه إلى نورمندية وهو فى العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً فى بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدى أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التي والصراحة . وجاء الملك الجد إلى انجلترا بلغته وغاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظنى الدولة ورؤسائها الدينيين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا فى انجلترا قصوراً نورمندية منيعة ، ولم بخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح ولم بخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندي قبل وليم الفاتح بجيل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم فى التأثير فى الملك الرقيق المطواع إلا وجل واحد هو إبرل جدون ومستشارالدولة الأول فى عهد كنوت وهرلد وهار ثكنوت. وكان إيرل جدون واسع الثراء حكيما ، داهية فى الديبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، بارعاً فى الأعمال الإدارية ؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين فى التاريخ

الإنجليزى . وقد رفعت تجاربه فى شئون الحكم منزلته فوق منزلة الْملك ُ تَفْسَه . وأضحت ابنته إديث Edith زوجة إدورد ، ولولا أن إذورد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك. ولما أن تزوج تستج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إبرل جدون مهذه الضلات الزوجية حلفاً ثلاثيا جعله أقوى رجل فى أوربا الشهالية كلها لا نستثني من ذلك التعميم مليكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا في نفسه عوامل الغيرة ، فعزل جدون ، وفيرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف ﴿ ١٠٥١ ) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ، خطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعدوه بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبي الغربي وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفًا مَعاً إلى أعالى نَّهرُ التاميز ، وثار الشعب في لندن على حكامه واستقبل الغزاه بالترحاب ، وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتتأجمور (مجلس) من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين. ؛ واسترد جدون سلطانه السياسي وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه بيات يعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر :

وعُينَّن هروالد إبرل وسكس، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان . وكان وقتئد فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوى البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحرب ، كريماً فى السلم ، شن خلة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجابرا ، وقدام رأس جروفيد Orublydd خريم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته العاصفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولنام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التى نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذي لا يفترق في شيء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث في عهد إدورد من الناحية المعارية هو الشروع في بناء دير وستمنسر (١٠٥٥) : وكان الملك قد أليف الطراز المعارى النورمندى اثناء حياته في رُون Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذي أصبح فها بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندى الرومانسي على نسق كنيسة الدير العظيمة التي بدئ في تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر في چومييچ Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمنديا قبل أيام وليم . وكان بناء دير وستمنستر إيدانا ببداية بهضة معارية أوجدت في إنجترا أجمل المباني الرومانسية في أوربا بأجمعها .

وفى مقبرة وستمنستر دفن إدورد فى بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث. الجسام . واجتمع الويتناجور فى السادس من يناير واختار هرولد ملكا على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمندية يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة وليم أن إدورد قد وعده فى عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على ايوائه وهمايته فى نورمندية ثلاثين عاما . ويخبل إلينا أن هذا الوحد قد بذل حقالالم) ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفانه بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوحد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد — كما يقول وليم — قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له فى رون ( فى تازيخ لا نعرفه الآن ) ، فأصبح بذلك « رجل » وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارئاً امرش له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارئاً امرش أنه فى هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشىء ،

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريبهم ملكاً عليهم ، واعترم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . وبلحاً وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثانى بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعى في عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقبة ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوى على شعرة من رأس القديس بطرس في داخل ماسة (٣٠٠) . وقد ستر هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات في عروش الملوك وفي خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على هذه المابيا ، ولم تكن ثة ضعوبة في استخدامها مع الملك چون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرانك رئيس دير بك إلى وليم في دعوة أهل نورمندية ـ أو على الأصح أهل جميع الأقطار ـ لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد فى كهولته الحيرة جزاء ما ارتكبه فى شبابه من آثام . ذلك أن أخاه تستج الذى نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً فى شمال البلاد ، وأفنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعده فى نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينا كانت عمارة وليم البحرية المؤلفة من ١٤٠٠ سفينة تقلع من نورمندية إذ أغار تستج وهاردرادا على نور ثمير لند . واستسلمت لهما مدينة بورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على نور ثمير لند . واستسلمت لهما مدينة بورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على المجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزم الغزاة من الشهال عند جسر استامفورد Stamford Bridge ( فى ٢٥ سبتمبر ) ، وقتل فى هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف فى وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصيه بالتريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمى الأرض التى خربها هومن قبل والتى أصبح

يخبها اليوم . والتي الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستنجس يخبها اليوم . والتي الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب و الحرق المخترق المحدد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ، فقطع أحدهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أحشاء هرولد في ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ؛ وأعقبت هذه الهزيمة مذبحة وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيا بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزنك Edith Swansneck التي كانت عشيقته ، فتبيئت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفئت قطعها في كنيسة ولنام التي بناها في حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا في يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦.

### الفصل آمانی ویلز ۲۰ - ۱۰۶۳

فتح فرنتينس Frontinus وأجركولا Agrtcola بلاد ويلز وضهاها إلى رومة فى عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت وياز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربى ويلز مستعمرون أيرلنديون فى القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بغد آلاف من البريطانيين فارين من الأتجليسكسون الذين فنحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجآيسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذي لم يخضـ عوه اسم ويلهاس Wealhas - والأجانب ، . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون في ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم . وكان هوالاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعي كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم في هذا شأن معظم الشعوب الكلتية ــ البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنوول الحالية» ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شهالى إسكتلندة ، وقد بلغ من حرصهم على هذا ألنظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتياب في كل شخص أو شعب يجرى في عروقه الدم الأجنبي . ولم يكن سخاوُهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقي والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلا من كل فتاة أمبرة ومن نصف الرجال ملوكا .'

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم. ولم يكن هوالاء

الشعراء هم عرافی شعبم ومؤرخیه ومستشاری ملوکه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمى اثنين من هؤلاء الشعراء هما تلزن Talesin وأنورين Aneurin ؛ وقد عاش كلاهما في القرن السادس الميلادى . وكان هناك مثات غيرهما ، وعبرت القصص التي نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطاني ، ووصلت في صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينيين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق فى معارفه . وكان كل من يريد الدخول فى زمرتهم يسمى ما بينوج Mabinog ، وكانت الموضوعات التي يدرسها تسمى ما بينوجي Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بيتوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم (٣١) . ولا ترجع هذه القصص في صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت اللـى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد وياز . وهي قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنيه تشهد بأن الأهلن كانوا من عباد الطبيعة ، مليثة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من النفي ، والهزيمة ، والموت ؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف االذين نشهدهما في قصص الإدا Eddas الأيسلندية icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنليد Nibelungelied . وقد نشأ في عزلة جبال ويلز أدب خيالي يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن في نشأة الفروسنية ، والقصص العجيبة التي تتحدث عن المِلك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسنموا أن « يقضوا على الوثنين ويقيموا دين المسيح. ٩ .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت دافد وكنيسته فى مقاطعة بمبروك

## الفصل لثالث

#### الحبضارة الأيولندية ٢٦١ ــ ١٠٦٦

كانت أيرلندة في الفترة الواقعة بن موت القديس باترك والقرن الحادى. عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث في ألصبر Ulster ، أما الباقية فهي. كنوت Connought ، ولينستر Leinster ، ومنستر Munster ؛ وميث. Meath . وكانت هذه المالك تحارب بعضها بعضاً فى أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ؛ ولكننا، تسمع من بداية القرن الثالث الميلادى عن غارات يشها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية في هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots ــ ويبدو أن هذا· اللفظ لفظ أيرلندى معناه الجوالون ؛ وإذا ذكر هذا اللفظ متصلا مهذه. الفترة من الزمن فمعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب فى أثنائها ؛ وظلت النساء حتى عام ٩٠ ه يُطلن إلى الاشتراكِ في القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غير هم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يماثل ف جوهرة قوانين « العرابرة » الذين يسكنون القارة الأوربية ، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons – وهم قضاة من رجال القانون مدربون. أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلمون في مدارس الحقوق. ويوُّلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic) .

ونجت أيرلندة كما نجت اسكتلندة من الفتوح الرومانية ، ولهذا فإنها لم تتح. لها نعمة الاستمتاع بالقانون الروماني وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوما. من الأيام في استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب. بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلي ، ولم تفلح قط في

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائو قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، وأخذت. كثير من الأسر تضيف اسم الڤبيلة التي تنتمي إليها UI أو 'O (حفيد). للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلا تقول إنها تنسب إلى نيال جلندبه. Mial Glundubh ملك أيرلندة في عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضف إليه إلا لفظ ماك Mac أى ابن . وكانت معظم الأراضي فى القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العائر (٣٤) ، وكانت الأملاك الفردية. الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية(٥٦٠)؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت في البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادي ، وسرعان. ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يمتلك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجري. الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئكُ المستأجرين (٢٦٠) . وظل الأيرلنديون في القرون الثلاثة التي أعقبت دخول المسيحية في البلاد. ( ٤٦١ ــ ٥٧٠ ) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافنة فقد كانوا في أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التي تسكن فى شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة: تدفق العاماء الغاليين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية في القرن الحامس، واز دياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغاليين، ونجاة أيرلندة قبل القرن التاسع من الهجات الأجنبية. وقد افتتح فيها الرهبان، والقساوسة ، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ؛ منها مدرسة في كلونارد Clonard أنشئت في

هام ۲۰ كانت تضم ۳۰۰۰ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايعين الوطنهم (۲۷٪) ، ومدارس أخرى في كلما كنويس Clonmacnois (۵٪) ، وكلنفرت Clonfert (۵۰۰) ، وبنجور Bangor (۵۰۰) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد الطلاب مناهج تستنمر اثني عشر عاماً تؤدى الحلى من هذه المدارس يعد الطلاب مناهج تستنمر اثني عشر عاماً تؤدى الحلى درجة المدكتوراه في الفلسفة ، وتشمل دراسات المكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللانينية واليوانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدامها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيتي ، والظب والقانون (۲۸٪). وقدا بنفق على فقراء الطلبة كانت تعد نفسها لحدمة الدين ، ولهذا لم يكن العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لحدمة الدين ، ولهذا لم يكن المعامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لحدمة الدين ، ولهذا لم يكن هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم مهذه المهنة . وظلت أوريا الغربية بزمن طويل . وقد درس ألكوين في مدرسة كلماكنويس ، وفي أير لندة تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان الميوناني الذي جعله موضع إعجاب شارل الأصلع في فرنسا .

وكان مزاج هذا العصروآدابه يساعدان على نشأة الأقاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية في أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكى ، وقر جيل Fergil العالم في الهندسة النظرية الذي علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Diouil العالم الجغرافي الذي أعلن كشف أيسلندة على أيدى الرهبان الآير لنديين في عام ٧٩٥ ؛ والذي أوضح شدة الضوء في منتصف ليالى الصيف الآير لندي بقوله إن في وسع الإنسان أن يجد وقتئد من الضوء ما يمكنه من تنقية الراغيث من قبيصه (٢٦) . وكان النحويون كثيرى العدد ، ويكني سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض في أير لندة كان في ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه في الكثرة أن علم العروض في أير لندة كان في ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه في الكثرة أن علم العروض في أير لندة كان في ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه في الكثرة . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم في المجتمع منزلة عالية ،

بؤكانوا في العادة يجمعون إلى قرض الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والمحاماة ويجتمعون في مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً عما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية في البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد في العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين (٢٠٠) . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قومين مشهورين : فلان ماك لونين Flann Mac العاشر بأربعة شعراء قومين مشهورين : فلان ماك لونين O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

واتخذت قصص أيرلندة في ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولا قبل أيام پتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويا ثم صيغت وقتئذ قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائى ، وما من شك في أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها في قالبها الأدبى ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادى عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندى الأسطوريين . فنها طائفة « فينية Fenian » أو « أسيانية Ossianic » تقص في شعر ماسى مثير معامرات البطل الحرافي فن ماك حكهيل Finn Mac Cumhall وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنيين Ossianic ، وتعزو الروابات وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنين Ossiani ، الذي وتعزو الروابات عاش ، كما تقول الروايات ، ثلثمائة عام ومات أيام القديس پتريك ، بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثني . وتدور طائفة حماسية من بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثني . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولن Cuchulain الملك الأيرلندى ، الذي نشهده في مائة منظر داعر من معامرات الحرب والحب . وأجمل قصة في هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فلم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor تروى قصة ديردر والنة فلم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً مهي النكبات لبلادها ألصتر ؛ ويرفع الشعب عقيرته قائلا : « فلتذبح » ، ولكن الملك كونور يحممها من غضب الشعب ، ويربيها ، ويعتزم الزواج بها . وتزداد الفتاة جمالًا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise الوسم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدى وهو مبتهج » . وتوثر هذه الحادثة في عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الحاصة قائلة: « أي مربيتي الرقيقة ، إذا كنت تحبن لى الحياة ، فاحملي منى رسالة إليه ، وقولى له أن يأتى ليتحدث إلى سرًا في هذه الليلة » . ويقبل ناأويز ويغترف من حبها حتى يسكر ، ثم يأتى إليها هو وأخواه إينل Ainnle وأردان Ardan في الليلة الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك اسكتلندة أسىر هواها ، فيخفها الإخوة الثلاثة فى شعاب الجبال ، تم يبعث الملك كونور بعد حنن رسالة يقول فها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا إلى إبرين Erin . ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحنينه إلى وطنه ومسارح صباه ، وإن كانت ديردر تحذره عاقبة هذه العودة وتنذره بأن الملك سيغدر به . وما كادوا بصلون إلى أيرلندة حتى هاحمهم جنود كونور ؛ ويقاتل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ، ويطير لنُّب دير در من شدة الحزن ، فتلتى بنفسها على الأرض وتمتص دماء حبيبها ، وتنشد هذه الأغنية الحزينة :

بينا كان أعيان البا Aiba ( اسكتلندة ) ذات يوم يقصفون ويمرحون

إذ طبع ناأويز فى السر قُبلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،

ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب وتحت قدّمها خشف ، ثم أقبل علمها زائراً وهو عائله من جيش إنفرنس Inverness ، فلما سمعت هذا ، اكنوى قلبي بنار الغيرة ، ودفعت زورق الصغير فوق الموج ولم أبال هل قدّر لي أن أحيا أو أموت. ونزلا إلى الماء في إثرى إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ، وجاءا بى مرَّة أخرى إلى البر ، وهما فتيان يغلبان مائة من الأبطال ، وقطع لى ناأويز عهداً صادقاً وآقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة ألا يمس وجهي مرة أخرى حتى يذهب من عندى إلى جيس الموتى يا ويلها ، لو أنها سمعت في هذه الليلة أن ناأويز مسجى في البراب إذن لزرفت الدمع مدرارا ولبكيت معها سبع مرات .

وتختيم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية في سذاجها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر فتحطمت جمجمتها ولاقت حتفها ه(١١).

وكان الشعروالموسيقى وثيقى الصلة فى أيرلندة ، شأمهما فى غيرها من البلاد فى حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن يتسجن أو يغزلن فى حياة العصور الوسطى . • كانت الفتيات يغنين وهن يتسجن أو يغزلن

أو يحلن الأبقار؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسرون إلى ميدان القتال؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعهم، وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة، وكانت تتألف عادة من ستن وتراً، يعزف عليها بالأنامل، وكانت القيان timpan كماناً ذات سبعة أو تار تضرب بالريشة أو القوس؛ وكانت آلات موسيقي القرب تعلق في الكتف وتنفخ بالميم ، وكانت آلات موسيقي القرب تعلق في الكتف وتنفخ بالفم ، ووصف چير الدس كمير نسس Giraldus Cambrenais (١١٨٥). العازفين الأير لندين على البقيثارة بأنهم أحسن من سمع من العازفين، وهو إطراء عظم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقي.

وليس أجمل ما أثمره الفن الأبرلندى فى ذلك العصر كأس آرداع Ardagh الذائعة الصيت ( حوالى عام ١٠٠٠ ) التي اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أجمل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوى الأناجيل الأربعة مخطوطة في القرن التاسع على الرق بأيدى رهبان أيراندين في بلدة كلز من أعمال ميث Mcath أو في جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن. من أعظم ما تمتلكه كلية ترنثى Trinity College بدبلن , وجاء طراز تزين الكتب البيزنطي والإسلامي إلى أيرلندة عن طريق الانصال البطيء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فها درجة الكمال. فى فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان في تزيين الكتب بأيرلندة إلا شأن ضئيل ، مثله في هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوى نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية في هذا الفن هي أن يوخذ حرف من الحروف أو شكل زخرف واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مهج حتى يكاد يغطى الصفحة بهامها في نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . ولِيس في المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه چرلد Girld من كتاب ويلز ـ وهو الذى لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندة ـ بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أثواب البشر (٢٠).

وإذ كان هذا العصر الذهبي في أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التي أرجعت ساثر أوربا مثات السنىن إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التي قضت في فرنسا وانجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أُحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد ترامى إلى أهل النرويج والدنمرقة ــ وكانوا لا بزااون وثنيين ـــ أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب، والفضة، والحلى، وأن انقسام البلاد السياسي يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسبب للبلاد خسارة تذكر ، غبر أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؟ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وکلوین Cloyne ، وخربوا دیری بنجور Bangor وموثمیل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام. الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جبوش صغيرة باسلة أن تصلد فيها الغزاة في بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينها حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشمالين قرب شاطئ البحر ، وأنشأُوا مدائن دبلن ، ولمرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشهالى . واتخذ مليكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس بتريك عاصمة لملكه الوثنى ، وتوَّج زوجه الوثنيــة على مذبح كنيسة القديسكيران St. Kieran في كلونماكنيوس (٢٤٠) . وحارب ملوك أير لندة متفرقين غراة بلادهم ، ولكنهم كانوا في الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . مقد قبض ملاخي Melachi ميث على ثورجستوأمانه غرقاً ( ٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أجمد الأم اء النرويجيين أسس في عام ٨٥١

مملكة دبلن التي ظلت تابعة لأهل الشهال حتى القرن الثانى عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابعة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون فى خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشتتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقى فنه المعتاد فى تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندى قديم (١٤٠) .

وظات الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه المالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دلجاس Drigas. وحارب الأخوان جيشاً دنمرقياً بالقرب من تيريري Tipperary ( ٩٦٨ ) وَمَرْقَاهُ شُرَ مُمْزَقَ ، وَلَمْ يَرْحَا فَلُولُهُ الْمُهْزِمَةُ ؛ ثُمَّ استوليا على ﻠﺮك ، وقتلا كل من عثرا عليه فيها من الشهاليين . ولكن اثنين من صغار الملوك ـ ماوى ملك دزمند Molloy of Desmond ودوناڤان ملك هاى كاربيرى Donavan of Hy Carbery \_ خشيا أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتهما فعقدا حلفاً مع المهاجرين الدنمرقيين ، واختطفا ماهون وقتلاه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثانية بالدنمرقيين ، وقتل ملوى . وصمم على توجيد أبرلندة كلها ، ولم يتردد في اتباع أية وسيلة توصَّله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمرقيين مالكي دبلن ، وهزم يمعونهم ملك میث ، ونودی به ملکاً علی أیرلندة کلها (۱۰۱۳) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ` وبصلح الجسور والطرق ، وينشى المدارس والكليات ، ويفر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الحلف ذوو الحيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم الماكية » . قصة كثيراً ما نراها في غير هذه المناسبة ،

خقالوا إنه كان فى مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف فى أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشيال بأيرلندة فى هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن فى السن ، والتبى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن فى يوم الجمعة الحزينة فى الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل فى أثناء المعركة ثم ذبح بريان نقسه فى خيمته .

وحلّت السلم ـ وهي الترف الذي لا يستمتع به إلا المحظوظون ـ في البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد في القرن الحادي عشر ، وظهر في خلاله كتاب لينستر sine Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان في جمال زخرفهما عن كتاب كاز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير في مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة الوح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة وانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها في الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا في عام ١١٧٧ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقديسين » ـ وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

## الفيلالابع

#### اسكتلندة ٣٢٥ – ١٠٦٦

هاجرت في أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتى الجبليين من شالى أيرلندة إلى الجزء الجنوبي الغربي من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الحلابة الواقع في شال بر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك «كالدونية Caledonia » القديمة هذه : البكت Picts وهي قبيلة كلتبة استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون قبيلة كلتبة استقرت فوق خليج فورث الأنجليسكسون واستقروا بين بهر ومم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين بهر درونت Derwent وخليج كليد Tyne وخليج فورث . ومن هوالاء أو الإنجليز الضاربون بين بهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هوالاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهي أمة إنجليزية في لغنها ، مسيحية في ديبها ، نارية في مزاجها كالأيرلتديين ، عملية كالإنجليز ، ماكرة ، قوية الحيال ككل كلتي ».

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القربي، ولا يرغبون في أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات في شدته إلاولاوهم للقبيلة ، وفخرهم بولاثهم لها ، وشدة مقاوه بهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هدريان الذي أقيم بين سلواي Solway والتين ( ١٢٠ م ) ، وسور انطونينس بيوس Antoninus Pius ، الذي يبعد ستين ميلا نحو الشمال بين خليجي فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سيتميوس سفيرس Septimius Severus ) ، وحروب سيتميوس شفيرس علم كلها لم تجد نفعاً في القضاء أو ثيودوسيوس علم المناهم الم المحد نفعاً في القضاء

على الغزوات المتكررة الني كان يشنها البكت الجياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفي عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نور بريا على معقل البكت الجبلى الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج على معقل البكت الجبلى الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (w) وفي عام ٨٤٤ ضم كنث ماك ألبين المستردت القبائل إدنبره ، واتخلتها عاصمة لها ؛ وفي ١٠١٨ استولى ملكولم الثانى على لوثيان Lofhian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى الثانى على لوثيان Lofhian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى علكة البكت والاسكتلنديين . وبدا أن الكلت قد ضمنوا الأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمرقيين الإنجلترا دفع آلافاً من و الإنجليز ، الم جنوبي اسكتلندين . وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسوني قوى إلى دماء الأسكتلندين .

وجمع دنكان الأول Juncan I ( ١٠٤٠ – ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها – البكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأبجليسكسون – وكون منها مملكة واحدة هي مملكة اسكتلندة . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائده مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش مكبث Cruoch كانت حفيدة كنث الثالث . واغتال مكبث دنكان ( ١٠٤٠ ) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين على ١٠٥٧ . واغتيل اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً لغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندة في تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه تمرف الحضارة ونعمها ؛ وقارو بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه تمرف الحضارة ونعمها ؛ وقارو Faroes ، وشتلندة المغيرون الشهاليون جزائر. أوركني Orkney ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشهال ( الفيكنج Proces ) الشداد كانوا ببسطون سلطانهم وينشرون بني جنسهم في أنحاء العالم الغربي المداد

# الفصل لخامس

أهل الشمال The Northmen أهل الشمال

1 - قصص الملوك The Kings' Saga

ينوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيتي أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحاوا في البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شيبه باللاپلانديين والإسكيمو<sup>(١٥)</sup> . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاتى Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة ـ ومعناها منقع دان أوولايته ؛ وتركت قبيلة اسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التي وصفها تاستس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها في اسم بلاد السويد Sweden ( اسفريج Sverige ) ، وفي اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ؛ وليس معنى لفظ النرويج ( . نورج Norge ) إلا الطريق الشهالي . وأصبح لفط اسكاني Scané وهو الاسم الذي أطلقه پلني Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia في اللغة اللاتينية ، ونشأ منه افظ إسكنديناوه Scandinavia الذي يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة في دمائها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال في الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، نعمد الشبان أوغير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أوحدوداً للأقاليم ؛ فاجتاح أهل اللرويج اسكتلندة ، وأيراندة ، وأيسلندة وجرينلندة ؛ وأهل السويد الروسيا ؛ والدنمرقيون إنجلترا وفرنسا .

ولايسمنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكز في هذه العجالة آلهة تلك البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm ( ٨٦٠ – ٩٣٥ ) وهب دنمرقة وحدثها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث ( صاحب السن الزرقاء) Harald Bluetooth ( ٩٨٥ – ٩٨٥ ) جعل المسيحية دينها ٤ وإن سوين فورك بىرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard ( ٩٨٥ – ١٠١٤ ) فتح إنجلترا ورفع دنمرقة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول أوربا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skottconung ( ١٠٢٢ – ١٠٢٢ ) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة ملكه . وكانت بلاد النرويج في عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ، تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والحلجان الطويلة الضيقة العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المحاريين ، وظلت كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black أحد دولاء الزعماء من عاصمته ترندهيم Trondheim وأخضع لحكمه معظم اازعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على ولده هارلد هارفاجر Hurald Haarfager ) الزعماء المتمردون ، ورفضت جيدا Gyda الني خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد أن يفتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى يتم هذا الفتح ، وأنمه بالفعل في عشر سنين ، وتزوج بعدها بجيدا وبتسع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له ــ « ضاحب الشعر الأشقر »(٤٦). وحكم هاكون الصالح Haakon the Gnod (٩٣١ – ٩٣٥) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام سبعاً وعشرين سنة، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن «السلم طالتحتى أصبحت أخشى أن توافيني منيتني في شيخوختي وأنا على فراشي في عقر داري «(١٧) .

وحكم هاكون آخر - الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاما ( ٩٦٥ - ٩٩٥ ) ؛ ولكنه أغضب الزراع الأحرار في شيخوخته باتخاذه بناتهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزاع الأحرار أولاف ترجفسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً علهم .

وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هاراله ذا الشعر الأشقر بم وكان « رجلاً شديد المرح والمجون » – كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland - طروباً ، أنيساً ، محباً اللاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً في لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة في الرياضة البدئية من كل من سمعنا به من أهل الشمال »(٤٨). وكان في مقدوره أن يتنقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذنون ۽ وبلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بحربتين في وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة »(٤٩) . وكان كثعر المنازعات والمغامرات ؛ وقد اعتنق المسيحيــة وهو في الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاتها قسوة ؛ فلما جلس على عرش النرويج ( ٩٩٥ ) هدم المعابد الوثنية، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصروا على أن يقرّب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خبر قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحي . ولما استمسك واحد منهم يدعى رانذ Rand بدينه الوثني ، أمر أولاف بشد وثاقه و دفع ثعباناً ف حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته (٥٠٠ . وخطب أولاف لنفسه سجريد Sigrid ماكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثني ، فما كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه فى وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أنخذك زوجة وأنت عجوز شمطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجفريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السوبد والدنمرقة ، وإيرل إرك النه ويجي Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزماه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Riigen ، وألتى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠٠٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦)، كما أعاد النظام، وعدل في قضائه، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى. ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه وكان رجلا صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد، لا يتكلم إلا قليلا، سخياً، واكنه شره في جمع المال، مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسرارى (٥٠). ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحوار لأنه فضل الوثنية على المسيحية، وسمل عبى زارع آخر (٥٠). واثتمر الزراع به مع كنوت ملك الدنمرقة وإنجلترا، فسيراً عليه خسين سفينة وطردا أولاف من النرويج (١٠٢٨)؛ ولكن أولاف عاد إليها بحيش، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Sticklesand نفهزم ومات وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند الشفيع للنرويجين كنيسة في موضع المعركة تخليداً لذكره، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج. واسترد متوضع المعركة تخليداً لذكره، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج. واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good حفيسده هارلد الصارم وهما قوانين غادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيسده هارلد الصارم وقي استولى وليم النورمندي على إنجلترا.

وحديث في عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشهاليين قدموا من النرويج

أو الدنمرقة كشف جزيرة أيسلندة ، ولم يسوُّهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم في ضبامها وفيور دامها . وهاجرت جماعات من البرويجين إلى الحزيرة فى عام ٨٧٤ فراراً مماكانوا يعانونه من استبداد هار لد هارفاجر ، ولم يحل. عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها في جمبع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجها؛ thing أو جمعيتها ، ثم أنشى ً في عام ٩٣٠ ثنجها العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات في تاريخ الحكم النيابي ، وبفضله كانت أيسلندة في. ذلك الوقت هي الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية في العالم كله . ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سببًا في الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابي فهما ، أضعف من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم فى ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهى فى أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا فى أيسلندة المنازعات التي جعلت بلاد النرويج شوكة فى جانب ملوكها . وجعل الثنج العام (Allıhing) المسيحية الدين الرسمي للبلاد في عام ١٠٠٠ : ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلندة. لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويئدون أطفالهم . ولعل طول ليالى الشتاء وشدة. بردها كانا السبب في نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها نفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التي تروى في أرض. الشماليين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلندة شاهد-أحد ربابنة السفن بالنرويجين ويدعى جنبچورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلندة. وأنشأهما ثوروولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥. ثم كشف بچرن هر چلفسن Bjerne Herjulfsson لمرادور Labrador في عام، ٩٨٦ ، وفي عام، وفي ع

ولسنا نعرف أكان الموضع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند Newtoundland ، أم رأس كد Cod ؛ وقضى ليف إركسن Lief Ericsson الشتاء في « قناند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ؛ وفي عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثوروولد هو وثلاثون رجلا عاماً كاملا في قنلندة ، وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ في « قصة أولاف ترجفسون » التي كتبها استرى استرلوسون ١٣٩٥ في « قصة أولاف ترجفسون » التي كتبها استرى استرلوسون أهل الشهال على قارة أمريكا بين عامي ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرستقر كولمبس Christopher Columbous ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة (٢٥٠).

#### ٣ ـ الحضارة الڤيكنجية (حضارة القراصنة الشمالين)(\*)

كان النظام الاجتماعي يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلي ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الديني . وقد جاء في فقرة من بيولف أن « لاشيء يقضي على وشائج القربي عند صاحب البصيرة » (١٤٠) . وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلتى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب ؛ ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتني بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هرالدسون ، ماجنس أولا قسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكنديناوة

<sup>(•)</sup> لفط ڤيكنج مشتق من لفظ فيك في لفة أهل الثبال الأقدمين ومعناه شرم أو فيورد . وينظه لفظ ڤيك بهذا المعنى نفسه في نارڤيك Narvik ، وشازويج Schleawig ، وريكجافيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، ومعنى لفظ ڤيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للفيوردات ، وستمنى « الحضارة الڤيكنجية » في مذا الفصل ثقافة الشموب الأسكنديناوية في « عصر الثيكنج » بين على ٧٠٠ و و٠٠٠ من التاريخ المبلادي .

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمن طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلا صبوا عليه ماء رمزاً لدخوله في حظيرة الأسرة .

وكان التعلم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون في المنزل ، وكان منها عصر الجعة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشي على مزالق الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجذيف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولحان hockey ( والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الحطاف ) ، والقنص ، والرمى بالأقواس والسهام ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحراب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحبية ، وكان في وسع بعض الرويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامهم ، وأن يسبحوا في الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد (١٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهي عادة القيثارة . ونقرأ في الدر أدا Elder Adda على الآلات الموسيقية وهي عادة القيثارة . ونقرأ في الدر أدا Elder Adda أن يستطيع ما أن يسحر الأفاعي .

وظل أغنياوهم متعددى الزوجات حى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ماكان ذلك عن طريق الثراء ؛ غيران أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب (٢٥) ، فإذا تزوجت الفتاة بغيرارادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوها . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان فى مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق وية كان فى مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق بأحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل حكان تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قيصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلتي عقاباً ... أى دون أن يثبر خصاماً دموياً ... أى رجل يضبطه في علاقة غير شريفة بزوجته (٥٧). وكان النساء يكدحن ولكنهن بتى لديهن من الأناقة ما يكنى لأن يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان في الحياة العامة أذلاء كما هي العادة في بيوتهن . ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة في اسكنديناوة الموثنية كانت أعلى منها في اسكنديناوة المسيحية (٥٠) . فلم تكن فيها أم الخطيئة بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث وحق النصف بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث وحق النصف بعد عشرين عاماً من زواجها ... في كل ما يكسبه زوجها من مال ، وكان بيستشير ها في أعماله المالية ، وكانت تختلط في بينها مع الرجال بكامل حريبها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان بلحميع الطبقات منه نصيب ، وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات الحياة لا من أسباب متعها . ألا فليتصور القارى ما استلزمه من كدخ وقوة إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال الرويج المتجمدة وفلحها ، وليست حقول القمح في منسونا Minnesota إلا وليدة التربة الأمريكية ذللها صبر الرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ، وهي لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد في كثرة عدد ملاكها من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمن غير المكتوب يقلل من وقع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من و فعل الله ، منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالي تقريباً ذا حرفة ، منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالي تقريباً ذا حرفة ، وكان بارعاً بنوع خاص في النجارة ، غير أن الرجل الشهالي كان متأخراً في استخدام الحديد الذي لم يدخل بلادهم إلا في القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا منه أنواعاً غتلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جيلة من المرب والفضة ، والذهب (٥٩) ؛ وكثيراً ما كانت المدروع والسيوف المزخرفة المرب ، والفضة ، والمنات ، والمنات المدروع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبابيس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناء و السفن الشهاليون بينون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية الناع لمزيدها ثباتاً ، محددة في جوجوها لتدمر ، فن العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أفدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومانة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاذيف في معظم الأحيان ـ ويبلغ عددها في الجانب الواحد من جانبها عشرة بجاذيف أوستة عشر ، أو ستين مجذافاً . وهذه السفن الساذجة هي التي حمات الرواد ، والتجار ، والقراضنة ، والمحاربين من أهل الشهال في أنهار الروسيا منحدرة فيها إلى بحر الحرز والبحر الأسود ، وعرت بهم المحيط الأطلنطي إلى أيسلندة ولمرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الحارل إعدا والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلقنون أبناءهم في صراحة (كما يفعل الحراس في جمهورية أفلاطون) أن انهاء كل إنسان إلى طبقته أمر قررته الآلهة لا يجرو على تبديله إلا غير المؤمنين (٢٠٠٠) . وكان الملوك يختارون بمن يجرى في عروقهم الدم الملكي ، وولاة الأقاليم من طبقة الحارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وها من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسبر معه جنباً إلى جنب نظام دمقراطي عجيب يجعل من ملاك الأراضي مشترعين وقضاة في جمعيات علية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد في الولايات ، وجمعية تومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لاحكومة تومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لاحكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة ، والأحكام الفضائية هي القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليثة بحوادت الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى في عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردى ، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان دولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطوُّه الخيل حتى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه و هو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حي معلق بنفس الطريقة ، والثائر على الحكومة يشد إلى جوادين يسران في اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتى يقضي نحبه (٢١٦) . ولعل في هذا العقاب الوحشى دليلا على أن القانون لم يحل بعد تحل الانتقام الشخصى ، وكل ما في الأمر أنه جعله من حتى المجتمع نفسه . وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ؛ وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League. وقد كتبت قوانين النرويج في عهد مجنس الصالح ( ١٠٣٥ – ١٠٤٧ ) على رق سمى بسبب لونه « الإوزة الشهباء » ! ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنبرة للإشراف على الموازين والمقابيس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين(٦٢) .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين. ولم تكن الآلهة التيوتونية بجرد أساطير لأهل الشمال ، مواطنين أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالاً وثيقا بالآدميين بآلاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية في دهشها ورعها قد خولت جميع قوى الطبيعة وجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقواهم أن يسترضي على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدها بهم : كان فيه اثنا عشر إلها ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ؛ وكثير من مختلف المردة ( الجوتون Joiun ) وأرباب الأقدار ( نورب Norn ) ،

ورسل الآلمة والساقون ( الفلكبرى Valkyries ) ، وبينهم عدد من العرّافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلمة فلم يكونوا أكثر من آدمين مكبرين ، يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويحزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا في أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هولاء أودين Odin ( وودن وطول أعمارهم ) أبو الآلهة كلهم ، الذي كان يسكن بجوار بحر آزوف إلاراق ) محمد في أبو الآلهة كلهم ، الذي كان يسكن بجوار بحر آزوف الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة في تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشهالية . على أنه لم يسلم من التحدي ولم يكن قادراً على كل بلاد أوربا الشهالية . على أنه لم يسلم من التحدي ولم يكن قادراً على كل بيعاً به . فأخذ يذرع الأرض في طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة ، أم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشبر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهى حياته على ظهر والشوض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه في تسعة أماكن من جسمه ، فات ورجع إلى أسجار د ليعيش فيها إلها .

فيا يلقاه من العبادة. كان هذا مهاء في صورته وغلامه . . . وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحم لساناً (٢٥) ؛ وكادت هذه الصفات تغرى المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجا ينبثه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلمة فرجا Frigga إلى جميع أنواع الجاد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أخلظ الأيمان ألا يمسه أحدها بسوء ؛ فكان حسده الفخم الحيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام ، والفووس. والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك في جسده أثراً . غير أن فرجا قد فأتها أن تأخذ عهداً على د شجيرة صغيرة تدعى المقاس ه (٤٠٠٠) ألا تمسه بسوء فأتها أن تأخذ عهداً على د شجيرة صغيرة تدعى المقاس ه (٤٠٠٠) ألا تمسه بسوء للوقيعة بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على المدور ، ونفذ العسلوج في جسده فقضى عليه ، ثم ماتت زوجته نب Nep من فرط حزنها علية ، وحرقت جثها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة ٢٠٠٠).

وكان الفلكترى ــ الدين يحتارون القتلى ــ هم الدين يحق لهم أن يحدوا أجل كل نفس. وكان الدين يموتون ميتة دنيئة يلقون فى ممالك هل Hel الحقة الموتى ، أما الدين يموتون فى ميدان القتال فيأخذهم الفلكترى إلى فلهلا Valhalla ـ و بهو الصفوة ، ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرقد أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون بهارهم فى حروب البسالة وليلهم فى شرب الجعة . أخرى دوى قوة وجمال ، يقضون بهارهم فى حروب البسالة وليلهم فى شرب الجعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشهالية المتأخرة ) أعلنت فيه الحوتون مياطين الاضطراب والدمار الرهيبة ــ الحرب على الآلمة ، وقائلها قتالا ملكت فيه هذه و تلك عن آخرها . وفى هذا العصر ، عصر غسق الآلمة ، تهذم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ؛ والنجوم ،

<sup>( \* )</sup> وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletae . ( المترجم )

بل شمل فى النهاية الفلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ؟ ولم يبق إلا الأمل وحده ـ الأمل فى أن مر الوقت البطىء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور . ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التي كالها المليكان أولاف Olafs من أجل المسيح ؛ أو لعل شعراء الفيكنج قد أخدوا يشكون فى آلهتهم ريوارونهم النراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها فى جمالها وفتنها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هى صورتها فى تلك القصائد العجيبة التى سميت خطأ باسم الإدا Edda (\*\*). وخلاصة قصتها أن راهباً كشف فى عام ١٦٤٣ فى مكتبة كينهاجن الملكية مخطوطاً يحتوى عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ؛ ووقع هذا الراهب فى خطإ مز دوج فسهاها إدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالى عام ١٠٥٦ - الحكيم ١١٥٣) وهو عالم أيسلندى من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها فى النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين فى أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثانى عشر ، وأن معروفين فى أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثانى عشر ، وأن ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء وأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإدا الكبرى . وهي فى معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلمة الاسكنديناويين أو الألمان ؛ وفيها ثانتي لأول مرة بسيجورد الفلسنجى Sigurd the Volsung وغيره من الأيطال

<sup>(</sup>ه) وقد وردت هذه الكلمة أول ما وردت في جذاذة ترجع إلى القرن العاشر وتمنى في هذه الجذاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النروجي وإن استعملها بهذا المنى استرى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٧٢) . ومالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر ، وهذه الرسالة هي المعروفة لدينا ياسم الإدا النثرية أو الصغرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخلوا صورة أوضح من صورتهم هنا فى القولسنجساجا Volungasaga والنيبانجنايد Nibelungenlied. وأعظم قصائد الإدا قرة هى قصيدة القولسيا Voluspa التى تصف فيها البنية فولما فى صورة فخمة قائمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه فى آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة فى الأسلوب و أغنية الواحد الأعلى » التى يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتى بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكمته من أمثال ليست كلها من الأمشال الخليقة بالآلمة :

وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفُّويا حتى

<sup>( . )</sup> شبيه بهذا المعنى قول الشاعر العربي :

وأخو المقل يدق في النميم بمقله وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم (المرجم)

القرن الثانى عشر ، ثم دونت في ذلك القرن . وكانت الحروف الهجائية في عصر الڤيكنج هي حروف أوربا الشهالية كما كانت هي حروف ألمانيا وإنجائرا الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرفي « الأسرار الخفية » ) الأربع والعشرون تكوَّن أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية المائلة . وكان في وسع الأدب في ذلك العصر أن يستغني عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يوالفون قصائدهم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ؛ وكانوا في هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و « عصر الأبطال » ( من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذي بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطتع صغيرة من هذه الأغانى ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سجفات ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذى كان شاعراً ومستشاراً صريحا فى بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إچيل اسكلاجرمسون؟ - عالم أشهر رجال زمانه في أيسلندة (٩٨٣ – ٩٠٠) Egil Skallagrimsson كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردى النزعة ، وشاعراً جياش العاطفة . . وقد فقد في كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريةًا ، وكاد يقضى عليه الحزن لولاأن أفنعته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التي يندد فيها بالآلهة ويتجداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسفلأنه لايستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء. ثم بهدأ مزاجه حسن يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الاحزان وكفي بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر؛ ثم يرضى بحظه فيعتزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية في عجالس 1×20(14)

وما من شك في أن آداب ذلك العصر. تغالى في وصف ما كان يسود مجتمع الشركة من عنف ، شأنها في ذلك شأن الضجافة والتأريخ الللهين يخدعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادى ويهملان سبر الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التي كانت تغيش فها اسكنديناوة في الزمن القديم اضطرت الأهلىن إلى أن يخوضوا معركة حامية في سبيل العيش لا يبتى فيها إلا أصلبهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة في البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاق على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التي لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : ﴿ قُلْ لَيْ أَى دَيْنِ تَوَّمِنَ بِهِ ؟ ﴾ فأجابه بقوله « إني أومن بقوتي » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش النرويج ، ورأى أن يناله بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكَّر في أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريثاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه »(٨١) . ومن هؤلاء الناس من كانوا ليجدون في القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعتربهم وجد ونشوة في القتال تعرف عندهم باسم بوسركس جانجر berserksgangr أى و طريقة برسرك ، . وكان ال سركيون ــ أو أصحاب قمصان الدببة ــ مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قمصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعهم وخارت قواهم(٨٢) . وكانت الفلهالا محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت في القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياه .

وهكذا تعوّد « رجال الفيوردات» شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا فى سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك فى الروسيا ، وبمرانيا Pomerania ، وفريزيا ، ونورمندبة ، وإنجلترا ، وأيرلندة ، وأيسلندة ، وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان المجر ، بل كانت بمثابة الدفاع حفنات متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرماً ، وكل قوة عملاصالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والتراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فمنهم رولو Rolio الذي وهب نورمنديا نظاماً مبدعاً خلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذي وهب إنجلترا هذا النظام نفسه ، وروچر الثاني منشئه في صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشهالي الجديد بدماء الشعوب التي أضعفتها الحياة الريفية الرتيبة فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفني من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نفايات الزروع المتربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد .

## الفيرالتاس

ألمانيا: ٢٦٥ ــ ١١٠٦

### ١ - تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشهاليين المرحلة الأخيرة فى غارات البرابرة التى تدفقت من ألمانيا قبل الوقت الذى نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوربا الغربية ، وخليق بنا أن نسأل الآن عن مصبر الألمان الذين بقوا فى ألمانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة — القوط ، والونداك ، والبر غندين ، والفرنجة ، واللمبارد — إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند Wend الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطى ليماثوا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسى ، كما هو الآن الحد السياسى ، بن العالم الصقلبى والعالم الغربى . فقد كان فى غرب الإلب والسال Saale من بتى من القبائل الألمانية : السكسون فى شمالى المانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون فى حوض الرين الأدنى ، والثورنجيون بن هؤلاء وأولئك ، والبافاريون Bavarians (الذين كانوا يسمون المركونيين من قبل ) فى حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون المركونيين كانوا يسمون المركونيين كانوا يسمون المويفيين ) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعليين وفيا بينهما ، وعلى طول جبال چورا Jura الشرقية والألب الشهالية . ولم تكن في أوربا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشورها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهيا الإمبر اطورية الكارولنجية فكك هذه الروابط ، وظل الوعى القبلي والنزعة الحلية المجلمة والمنازعة الحلية المحالة والمحالة المحالة الكارولنجية فكك هذه الروابط ، وظل الوعى القبلي والنزعة الحلية المحالة المحالة والمحالة والمحال

يمنعان كل عامل يؤدى إلى المركزية حتى أيام بسارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذى يعانى الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى ؟

وأقامت معاهدة فردون ( ٨٤٣ ) فى واقع الأمر لويس أولدڤيچ Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersen ( ٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين بهرى الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات مينز ، وورمز ، واسبِر Speyer . وكان لويس حاكما وسياسيآ من الطراز الأول ، غبر أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطنامها فى أنحاء البلاد عشر سنن أغار فيها الشهاليون على مدائن الرين ، واختبر بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غیر شرعی لکارلومان Carloman ابن لویس ، ملکا علی « فرنسیا الشرقية Fast Francia » ( ۸۸۷ ) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لويس « الطفل » ( ٩٩٩ ــ ٩١١ ) الذي خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من . أن يصد المجر الذين اجتاحوا باڤاريا ( ٩٠٠) وكارنثيا ( ٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجيا (٩٠٨) ، وأليمانيا Alemannia (٩٠٨) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأدواق بفضل الجيوش الموالفة على هذا النحو استقلالهم الفعلى عن التاج ، وأنشئوا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كثراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ – ٩١٨ ) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا فى أن يكون لهم هم حتى اختيار الملك . وأنهك كنر اد قواه فى النزاع مع هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطبر ، قبائل الوند الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد الحير ، وهزمهم في عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه الحيدة .

وكان أتو الأول الأكبر ( ٩٣٦ ــ ٩٧٣ ) شارلمان ألمانيا ۽ ولم تكن سنه حنن جلس على العرش قد نجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكا بحق فى مظهره وغيره ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وباقارياً ، بأن يؤلفوا حاشيته في حفل تتويجه الفخم في آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى علمها ، وعفا عن هنرى ، ثم اثنمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ؛ وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة الأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا في العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحار الأساقفة الألمان إلى جانب الملك في هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه في الشئون الإدارية ، بل كان منهم في بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة وروساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظنى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية لهذه الوسيلة نظاما قومياً بحتا لاترتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط. واتخذ أتو الدين المسيحي قوة لتوحيد البلاد فصهر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرنحمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمرقة ودوقى پولندة وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعي . وكان يطمع في أن يتولى عرش الإمبر اطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التي وجهتها إليه أدليد الحسناء أرملة لوثىر ملك إيطاليا لينقذها مما لحق مها من الإهانة على يدى برنجار الثانى المليك الجديد . وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام ؛ فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألماني (٩٥١) . وأبي الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألماني إم اطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كبراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كنراد ، فعاد أتو إلى ألمــانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمير اطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا المجر ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكنراد وأمدهم بمن يرشدهم في غزوهم ، وقطع أتو دابرالفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظم جيشه ، وأوقع بالمجر عند الحفلد Lechfeld القريبة من أجز برج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ، أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدثذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية – فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على ، الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء فى تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبر اطورية حين استعانه البابا يوحنا الثانى عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، و دخل رومة من غير قتال ، و وجه يوحنا الثانى عشر إمبر اطوراً رومانياً على الغرب في عام ٩٦٧ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف ؟ ا وعده به من

إعادة إكسر خسية (\*\*) برا أنا إلى البابوية . وانخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فرحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئد على دوقية رومة وإقليم سابينا ، واند مجت بقية إيطاليا الوسطى والشالية في إمبراطورية رمانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الألماني . وكان ملوك ألمانيا يتخدون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها إدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً في الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتقى ما عسى أن يعقب موته من الفوضى ، فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثانى إمبر اطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثانى إمبر اطور بيز نطية (٩٧٧) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبر اطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفى أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام في هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) جهوده في ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات في هذه الحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣ — ١٠٠٢) وقتئذ طفلا في الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد نائبتين عنه مدة ثمان سنين , وأدخلت ثيافانو في أثناء نفوذها الذي دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنظية إلى البلاط الألماني ، وبثت روح النهضة التي بعض مظاهر الرقة البيزنظية إلى البلاط الألماني ، وبثت روح النهضة التي بدأها أتو في الآداب والفنون .

<sup>(</sup> پ ) الإكسرخسية Exarchate مقاطعة يحكها إكسرخس Exarch . والإكسرخس الرياد من يطالبا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . ( المترجم )

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره ( ٩٩٦ ) شرع يحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة لملكه، وبجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبر اطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك في حكمها الإمبر اطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولمباردية وسوقها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمى إلى إقامة حكم بزنطى ألمانى في إيطاليا ، ولهذا وقفوا في وجه أتو ، وأقاموا في البلاد وجمهورية رومانية ، وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عن جربرت بابا في عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التي لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التي دامت أربع سنين ، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيد سياسته بحدافيرها ؛ يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما، قد وقع في حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسرى في عروقه أخذ يبكي ويندم ، حتى قضي نحبه في ثمير بو والعشرين من عمره (٨٢).

وبدل هنرى الثانى ( ١٠٠٢ – ١٠٠٢ ) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملاقوته فى إيطالياو ألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغير بن سلطان الأدواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لهل . وبدأ بكتر اد الثانى ( ٢٤ - ١ - ١٠٣٩) حكم الأسرة الفرنكنونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إبطالياوضم إلى ألمانيا مملكة برغندية أو آرليس Aries . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنبه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و «كاد يفلح فى أن يبر بقسمه » (١٠٥٠ . وبلغت الإمبر اطورية فى عهد ابنه هنرى الثالث ( ١٠٣٩ – ١٠٥٠ ) ذروة مجدها . وقد عرض في « يوم الغفران » من عام ١٠٤٣ فى كنستانس Constance أن يعقو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغية فى الانتقام . وقد أقلح

بفضل مواعظه وقدوته الحسنة – وبفضل سلطانه فى أغلب الظن – فى أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع «الهدنة الإلهية » فى نشر ظل عهد ذهبى قصير الأجل على أوربا الوسطى . وقد ناصر العلوم ه وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمل للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب الحجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلع ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن فى أوربا كلها من يماثله فى سلطانه ، ولكنه اندفع بسلطانه فى آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف لهنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى في الرابعة من عمره حين توج ملكا في آخن وفي السادسة حين توفي أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حيى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو في الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبر اطورية كفيلة بلا ريب بأن تدهب بعقل أي شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يومن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه في خصام أو حرب مع هذا أو ذاك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . فلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليم ، وأبوا أن يردوا أراضي التاج التي يدعها لنفسه ، وظل يحاربهم حربا منقطعة دامت خمسة أراضي التاج التي يدعها لنفسه ، وظل يحاربهم حربا منقطعة دامت خمسة قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحربيين أن يمشوا عشر عاما (١٠٧٧ - ١٠٨٨) ؛ ولما أن هزمهم في عام ١٠٧٥ أرغم حفاة بجردين من السلاح بين صفين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند عقد يم رجال الدين في تعين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى عن حني رجال الدين في تعين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ ماثة عام ، ولم يشك مطلقا في أن تعين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنن يحارب جريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا في تاريخ العصور الوسطى . وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذبن استدلم الملوك إلى تورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس مينز مهرى الخامس ملكا في عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرعمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات العرش (١١٠٥) ، ولم يجد البابا في ليبج في السنة السابعة والحمسن من عمره (١١٠١) ؛ ولم يجد البابا ولسكال Paschi الثاني من حقه أن يمنح رجلا عروماً مات دون أن يتوب باسكال Paschi الثاني من حقه أن يمنح رجلا عروماً مات دون أن يتوب الرابع في موكب ملكي فخم وواروه التراب في كنيستهم الكبرى .

#### ۲ ــ الحضارة الألمانية ٥٦٦ ــ ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتعوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلهم أسرفوا في هذا التقطيع ، ودام الكفاح في سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التي تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناقع التي تنشر الأوبئة – دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا في القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيل بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البراري القاحلة ، ويذللون الأرض بالفأس والمحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكروم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقي والجعة . وكان المعدنون ستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس، والرصاص، والحرف اليدوية القائمة في الضياع، والأديرة، والمنازل، تقرن الحذق الروماني إلى الألماني؛ والتجارة تنمو ويطرد نشاطها في الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى ، وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة في شرائع البلاد وفي دماء الأهلين، ولكن الثغرة التي كانت قائمة بين فوضى القرن الحامس القبلية ونهضة القرن العاشر التي بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر، وصارت ألمانيا فيا بين ٥٩٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوربا رخاء، لا يضارعها في هذه الناحية إلا شهالي إيطاليا التي أخدت القانون والنظام عن الملوك الألمان، وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال تربير، ومينز، وكولوني تقدمها، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفة في اسبير، وعجدبرج، وورمز؛ وبدأنا حوالي عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج.

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها في ذلك العصر ؛ فقد افتتحت مدارس – أو بالأحرى كليات في أديرة في لدا ، وبجر نسى Tegernse، وريخنو Reichenan ، وجندرسهام Tegernse ، وليخس موروس Hildesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس موروس Hildesheim ، ولورسخ ١٩٥٦ ، ولما عين ربانوس موروس Rabanus Maurus (١٩٠٥ ) رئيساً المدير فلدا العظيم في بروسيا بعد أن أنم دراسته تحت رعاية ألكوين في تور ، رفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها في جميع أنحاء أوربا حتى أضحت اما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تنتسب إلها . وقد وسع منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ، وندد بالخرافات التي كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية (١٨٥) . ونمت دار الكتب في فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة في أوربا ؛ وهي التي أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأمنيانوس مارسلنوس التي أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأمنيانوس مارسلنوس أنشودة «جثت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التي تنشد وقت

تدشين البابوات والأساقفة والملوك (١٨٦) ، وافتتح سانت برونو St. Bruno الذي كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً إمبراطوريا لأتو الأكبر ، مدرسة في القصر الملكي ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب في ذلك الوقت ؛ وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريبا من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هي الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو هي الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو وقتاً ما مربياً لشارل الأصلع في قصر لويس التي بآخن . وقد وجد له في يوديث الحسناء الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنبرة . ولما عاد ألى ريخنو ليتولى رياسة ديرها صرف جهوده كلها في الدين ، والشعر ، وفلاحة البستاتين ، وقد وصف لنا في قصيدة له ممتعة في العناية بالمحرائي. وفلاحة البستاتين ، وقد وصف لنا في قصيدة له ممتعة في العناية بالمحرائي. وفلاحة البستاتين ، وقد وصف لنا في قصيدة له ممتعة في العناية بالمحرائي. وفلاحة البستانين ، وقد وصف لنا في قصيدة له ممتعة في العناية بالمحرائي. وفلاحة البستانين ، وقد وصف لنا في قصيدة له ممتعة في العناية بالمحرائي. كان يربها ويشغف ها .

وكان أعظم من ينافسه فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويدا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امترن فى ذلك العصر بثقافتهن ورقبهن . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البند كتين فى جندرسهايم Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الديركان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويذا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتيني السداسي الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التي خلدت ذكر ها مهم ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حذت فيها حذو ترنس Terence

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فرق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيز نطية والكارولنجية ، وشجعتهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا فى ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجهال الممتاز . ويكاد بر نولد Bernewald الذي كان أسقف هلدسها م من ١٩٩٣ إلى ١٠٢١ أن يكون فى حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيفساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التي يعيش فها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونهم ، ويده الصناع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، وماثلات من الذهب معونهم ، ويده الصناع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، وماثلات من الذهب الفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كووس القربان ،

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجهال الثلاث عاريات كعادتهن ( AA) و كانت الأبواب الذائعة الصيت التى صنعها فنانوه لكنيسته أولى الأبواب المعدنية في العصور الوسطى التى صبت صبا بدل أن تصنع من آلواح مستوية ملصقة على الحشب. أما فن العارة المحلية فلم يكن قد بدت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التى ازدانت بها المدن الألمانية في عصر النهضة ؛ غير أن مبانى الكنائس قد أخذت في ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الحاصة بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهام ، ولورسخ ، وومز ، ومينز ، وتربير واسبير ، وكولوني . وكان النقاد الأجانب يشكون ثما يتصف به هذا الفن الربني – الرومانسي من النقاد الأجانب يشكون ثما يتصف به هذا الفن الربني – الرومانسي من الكنائس تعبر أصدق تعبر عما في الخلق الألماني من قوة وصلابة وعن دوح ذلك العصر الذي يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .

# ائ**بابكارى ولعشرون** صراع المسيحية ( ٥٢٩ – ١٠٨٥ )

### الفضيلُ الأول

#### النديس بندكت حوالي ٤٨٠ ـ ٤٤٥

شهد عام ٢٩٥ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتى كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة في المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشوه بندكت النرسيائي Benedict of Nursia في بلدة اسپليتو Spokto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة في الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله مارآه فيها من الفساد الجنسى ، أو أبه كما يقول البعض أحب ولم يفلح في حبه ، ولما بلغ الجامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خسة أميال من سبياكو Subiaco في التلال فر إلى مكان سحيق على بعد خسة أميال من سبياكو وعاش فيها بضع سنين في عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التى بعث الشيطان ذكر اها إلى قلبه ، وألهب بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر فى أن بهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجير ات العوسج بوالحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألتى بنفسه فى وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طویلة ، فلما وقف علی قدمیه کان جلده قد تمزق وأصبح فی حال یرثی لها ، و هکذا داوی جراح نفسه بجراح قلبه » ه

وبعد أن عاش في هذه البرية الموحشة بضع سنين واشهر بين الناس بزهوه وثباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحله الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرهم ؛ ولما أنفرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزدهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابهم إلى طلهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم في النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فلم يحل عام ٢٠٥ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هولاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حاسة إلى مونتي كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم Cassinum القديمة التي تبعد عن كيوا أربعين مبلا جهة الشال الغربي . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشاً في مكانه (حوالي جهة الشال الغربي . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشاً في مكانه (حوالي الأديرة في بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حدوا حدو نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوربا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقا عليهم مثبطا لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ؛ فله جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعيا لافرديا ؛ خاليا من التنافس والتظاهر ، بضم فى كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحله الذي إذا تعداه أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الأيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء في الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ؛ ثم يضع الراهب الجديد هذا القسم الكتابى بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه فى احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم اللين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم في جميع الشئون الحطيرة ، ولكنه هو وحده الذي يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون : ولم يكن لهم أن يتكلموا . إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض ، رلم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئا وسواء كان كتابا ، أو لوحاً ، أو قلماً ــ أو شيئا على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكا مشاعا ٢٥٠٠ . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد في الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عن جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لافضل لأحدنا . . على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً : ، . لأن الله لا يعظم الأشخاص (4) .

ويجب على من فى الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير ، وأن. « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه ه<sup>(ه)</sup> ،
ومنواجب كل راهب أن يعمل - فى الحقول أو الحواليت ، وفى المطبخ ، وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئا حيى منتصف النهار ، وفي أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلاحين تغرب الشمس ، وكانوا فى الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة في اليوم ، وفي أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذَى أربع فكان محرما علمهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجاعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » ـ أى ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها . فكان على الرهبان أن يستيقظوا في الساعة الثانية صباحا ، ويذهبوا إلى المعبد القائم في الدير ، ويرتلوا ، أو ينشدوا « تسبيحة اللبل » وهي قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ؛ فإذا طلع الفجر اجتمعوا ﴿ لصلاة السحر ﴾ أو « تسبيحة الصباح » . وفي الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة ـــ صلاة ــ الساعة الأولى ؛ وفي التاسغة يجتمعون للصلاة الثالثة ؛ وفي منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة », ؛ وفي الساعة النالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ؛ وفي الغروب يصلون صلاة المساء ؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهي الصلاة الحتامية ، وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعي وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون<sup>(١)</sup> .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التي يتبعها الرجل الكامل المسيحية :

۱ – یجب أولا أن یحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ، وكامل وحه ، وكامل وقته م

 يحب الصوم . . . ( ١٤ ) وأن يعين الفقراء . . . . ( ١٥ ) وأن يكسو العرايا . . . ( ١٦ ) وأن يزور المرضى . . . ( ٣٠ ) وألا يتسبب في الأذى وأن يصبر عليه . . . ( ٣١ ) وأن يحب أعداءه . . . ( ٣٣ ) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام . . . ( ٦١ ) وألا يرغب في أن يسمى قديساً . . . ولكن عليه آن يكون من القديسين . . . ( ٧١ ) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصافيه قبل أن تغرب الشمس . . . ( ٧٧ ) وألا يقنط من رحمة الله (٢٠ ) . . .

وكان دير البندكتيين ملجأ يواسى المنكوبين فى عصور الحرب والفوضى ، والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب الذين يتوقون إلى مأوى هادى ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه ، ويقول لهم : « تخلوا عن كبريائكم وحريتكم ، تجدوا هنا الأمن والسلام » . فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين فى جميع أنحاء أوربا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ، وهى بمثابة جزائر شيوعية فى بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول فى العصور الوسطى ، وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللهبارد الهمج فى عام ٩٨٥ ؛ ونما انسحب اللمبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون فى عام ٩٨٥ ؛ فلما انسحب اللمبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون فى عام ٩٨٥ ؛ فلما المبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون فى عام ٩٨٥ ؛ فاعد الحرب العالمية التانية وقدائفها ، حتى سوته بالأرض فى عام ١٩٤٤ ، وهدمته قنابل الحرب العالمية التانية وقدائفها ، حتى سوته بالأرض فى عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا اليوم ( ١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديم ، فهو اليوم ( ١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديم ، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

# الفصل لثاني

### جریجوری الأکر ۱۹۰۰ <u>- ۲۰۱</u>

بينا كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسالمين في مونتي كسينو ، كانت الحرب القوطية ( ٣٦٠ – ٥٥٣ ) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضي والفاقة أيها حلت . واضطربت الحال الاقتصادية في المدن وحلت بها الفوضي وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق في رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثي الإمبراطورية ، يويدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيلون عهم لايتقاضون مرتبانهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذي عينين وللأباطرة أنفسهم أن لاحياة اللدولة إلا ببقاء النظام الكنسي ، ولهذا أصدر چستنيان في عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن و بختار الأسافية والرجال المشهوروية في كلولاية الأشخاص اللاثقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية ه<sup>(٨)</sup> ولكن جنة چستنيان لم تكد ترد في مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٨٦٥) الكنيسة كله وزعامها في إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلا ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للعبقرية من أثر عظيم :

ولد جريجورى فى رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمى إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه فى قصر جميل على سفح تل كئيليا Caelian . ولما توفى أبوه ورث عنه ثرورة ظائلة ، وارتتى بسرعة فى سلم المناصب السياسية فكان فى الثلاثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

فى نفسه ميلا للشنون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التي يحتى له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبدوا من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على الدوام ، أن آخرة العالم قد اقتربت (١) ، أنفق معظم ثروته فى إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقى منها صدقات للفقراء ، وتخلى عن جميع مظاهر طبقته ، وحول قصره إلى دير للقديس أندر ويخلى عن جميع مظاهر طبقته ، وأخد نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم فى معظم أيامه إلا الحضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذي يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة . غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التي قضاها فى الدير ويقول إنها أسعد سبى حياته :

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون و شهاساً سابعاً و في خدمة البابا بندكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثانى سفيراً له في البلاط الإمبراطوري بالقسطنطينية . وظل بين ألاعيب السياسة وأمهة القصور يعيش معيشة الراهب في عاداته ، وطعامه وصلواته (١٠٠٠) ، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا في عام ٥٩٥ طاعون دملى مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان پلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجوري ليخلفه ؛ وكان يعز على جريجوري أن يترك ديره فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره المنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينا كان جريجوري بعد العدة للهرب ، ألتي القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس خيث أقامه جريجوري آخر ، أو هكذا يقولون ، بايا (١١) .

وكانوقتئذ فى الخمسين من عمره، وقد دب الصلع فى رأسه فى هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، أقنى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصدأه، قوى

الإحساس ، حلو الحديث ، ماضي العزيمة ، رقيق العاطفة ؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحمى بطيئة خفيفة ، وداء النقرس . وعاش في القصر البابوى كما كان يعيش فى الدير ــ يلبس ثوب الرهبان الحشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين في حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه فى معظم أوقاته فى مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر في يوم من الأيام شاعراً جوالا على باب قصره ومعـــه أرغن وقرد ، فأمر جریجوری الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب<sup>(۱۳)</sup> . ولم یکن ينفق إيرادات الكنيسة في تشييد صروح جديدة بل أنفقها في الصدقات ، وفى الهبات للمعاهد الدينية فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وفى افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقىرة فى رومة كل شهر قدراً من الحبوب، والنييذ، والجنن ، والزيت والسمك ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ فى كل يوم إلى العجزة والمرضى ؛ وكانت رسائله غاية في الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسين ، ولكنها كانت تفيض رقة ، حناناً للمنكوبين : من فلاح يشتغل في أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يوثنها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ ، راعياً يعني بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق في أن يؤلف كتابه المسمى Liber Pastoralis curae ( ٩٩٠ ) ، وهي كتاب موجز في النصائح يسلسها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه في تصريف الشتون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامى. ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه فى أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خارم خدم الله » servus servorum Dei وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل.

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة فى قمع التسرى والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القداس ولعله كانت له يد فى نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقع ما كان قائماً فى ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيراد أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتنقون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضى التي كان بهنها لها الأشراف الذين أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم (١٤) .

وكان فى هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم فى الشئون السياسية ، يغلبهم فى معظم الأحيان ويغلبونه فى بعضها ، ولكنه ترك فى آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و «مراث بطرس» (أى الولايات البابوية فى إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسپليتو مدينة رومة – وكان فى حرب مع نائب الإمبراطور فى راڤنا – عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير فى ذلك نائب الإمبراطور ومة الشرك فى راڤنا عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها في الشئون الدنيوية ، ويعتذر لجاعات المصلّن لعجزه عن أن يلتى عليهم عظات تربح بالهم بين المتاعب الدنيوية التي تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيا أتيح له من سنى الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل فى أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكي السليم إلى أفريقية ، وتلتى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكي ، وكسب انجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع فى أحد أسواق الرقيق فى رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

«من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى جىء بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هي صور أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلا . . واأسفاه إنى ليحزتني أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالبة من الجال الداخلي » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدر هم منذا الاسم (\*) لأن لهم وجوها كوجوه الملائكة ، وخليق بأولئك الرجال أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات (١٥) ».

ثم تقول القصة بعدئذ ــ وهى أطرف من أن تصدق ــ إن جريجورى استأن البابا پلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى انجلترا ، فلما آذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقفعن مواصلة الرحلة حينسقطت جرادة على الصفحة التي كان يقرأها فى الكتاب المقدس ؛ فصاح من فوره لوكستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta » ــ أى أتم فى مكانك (١٦) .

<sup>(</sup> ه ) يشير إلى ما بين Augies أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان فى دير القديس أندرو. فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراجهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن «أولئك الملائكة» وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنبه على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فأتم بالسلم فى عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب فى تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب الممتع الحذاب. ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر في عقلية الناس في . العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقليه أصدق تعبير ؛ ولهذا فإن كتابات أوغسطين وچيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمن . وقد خلف وراءه كتباً في الدين تواثم عقلية الجاهير ، حوت من السخف الكثير ما يحر الإنسان فلا يدرى هل كان يؤمن هذا الإدارى العظم حقا بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذيجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت ــ وهي في واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير . وخمر ثراثه الأدبي هو رسائله الثمانمائة ، ففها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته في مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاورانه لأنه يعرض عليهم فيها أعجب القصص عن رواى رجال الدين في إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففها

يقرأ القارى عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الحلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات , وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر فى هذه المحاورات ذكر المخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التي قبل إن بطرس وبولس قد قيدا بها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة عمرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة بالرمد : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعيها قد أتت بكثير من المعجزات » (١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجاهير قد استحوذت على عقل البابا العظم وقلمه .

وكانت أعظم مخاضراته في ميدان الدين هي كتابه Magna Moralia وهو شرح لسفر أيوب في ستة مجلدات. وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقي في كل سطر من سطوره ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث في كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختمها بقواله إنه يجد في سفر أيوب جميع آراء أو غسطين الدينية. ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان ، وأنه في حد ذاته نظام كامل من الجكة والجال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثننة اليونانية والرومانية القديمة. على أن بعض آيات الكتاب المقدس في رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ في لغة شعبية تصويرية ، ولهذا فهي في حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهي الأمينة على التقاليد المقدسة هي وحدها التي يحق لها أن تقوم مهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التي نسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه » . وليس في مقدور أفهامنا أن تعرف الله ، وكل ما في وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به لمجرد أنه يمكن أن يقال عنه «(١٩) ولهذا لايحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير في النفس البشرية : أليست هي القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جر يجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . في هذه الأبام أرواحاً تفارق أجسامُها ٣٠٠٠ . ومأساة الإنسان الكبرى هي أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيثة الأولى ، فمالت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى اله لد بفعل التناسل الجنسي : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . واليست النار اسماً على. غبر مسمى ، بل هي هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خاق العالم . وهي نار لا ينطفي الظاها مجسمة ، ولكن في مقدورها رغم ذلك أن نطهر الأرواح والأجسام ؛ وهي أمدية ولكنها لا تفني المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم في كل لحظة يقضُونها متألمين رعبهم مما يننظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقيه أحباؤهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من الساح لهم بالفناء(٢١) . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذي يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التي عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجوري ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الرباني من قوة خفية عجيبة في نجاتهم ، وهي توة في متناول جميع التاثبين المسيحين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها طوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها في عام ٥٩٩ يقول « قضبت أحد طوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها في عام ٢٩٩ يقول « قضبت أحد

عشر شهراً قلماً غادرت فيها فراشى ، ينتابى فيها النقرس والقلق المؤلم . . . الله حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت » ، وكتب فى عام ١٠٠ مرة أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتد بى الألم إلى حد أكاد أعجز معه عن مغادرة سريرى مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها بالقداس . وأنا أحس فى كل يوم بأننى على حافة القبر وأنى فى كل يوم أرد عنه » . وكتب فى عام ١٠٠ : ٤ لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه الفراش ، وما أعظم اشتياق إلى الموت «٢٢٥) . وجاءه الموت فى عام ٢٠٤ .

لقد كان جريجورى المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان چستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له في هذه الحقبة أثر في الدين لا يعلو عنه إلا أثر النبي بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) . ولم يكن جريجورى من : رجال العلم ولا من المتبحرين فى الدين - ولكن هذه البساطة هي التي جعلت له في عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذي كان يهتدي بهديه في تواضع فاتن جذاب ، أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل(٢٢٦) ، فبينا كانت يده تدير شئون إمراطورية مشنتة ، كان تفكره منصرفاً إلى فساد الطبيعة البشرية وغواية الشياطين التي لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية في تلك العقائد الدينبة المرعبة التي ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات الواردة في القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لخلفات القديسين ، وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحرى ؛ ويعيش فى عالم ملىء بالملائكة ، والشياطين، والسحرة والأشباح؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً إ ةائمًا على أساس العقل ، وكان العلم في رأيه مستحيل الوجود في الكون ، وكان إ الدين الرهيب هو وحده الذي بتي فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التي جاءت بعدُ هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المدسيون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هي الأساس الموش الذي بنيت عليه المسموة الولهم.
ولكن هذا الرجل بعينه الذي يؤمن بالحرافات ويبادر إلى تصديقها ،
والذي حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبة ، هذا الرجل كان في قوة إرادته
وفي قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا ينثني عن قصده ،
صارماً في أحكامه ، حازماً ، عملياً ، عبا النظام وإطاعة القانون ، وضع
للأديرة قانوناً ، كما وهمها بندكت حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ،
وحررها من سلطان الإمبر اطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلتا
الناس يرون فيها ملاذاً بهرعون إليه في العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف
بفضله وقدسه من جاء بعده من البابوات ولقبه الحلف المعجب به
بوجوري العظيم ، .

# الفيرل ثالث

#### الشؤون السياسية للبابوية ٢٠٤ – ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور علمهم أن يستمسكوا بكل ماكان يستمسك به من أهداب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ماكان له من سلطان ، بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع اسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور، وكثراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون. أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبر اطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمىر اطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذى المذهب اليعقوبي ــ القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، ــ وبن الغرب المتمسك بمبادى الكثلكة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتن. ومن أجل هذا أصدر في عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بن المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على علما الافتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للنحويين لأمها من المسائل القليلة الحطر ه(٢٤) . ولكن رجال الدين في الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبر اطور كنستانس Constans الثاني منشوراً ( ٦٤٨ ) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم راڤنا أن يقبض على البابا ويأتى به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطورنني إلى شبه جزيرة القرم ، وبني سا إلى أن مات في عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكوني السادس الذي اجتمع في القسطنطينية عام ١٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هو نوريوس بأنه يحابي الحارجين على الدين (٢٠٠) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التي آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام ومصر التى تدين بمذهب اليعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجرزة فى سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدى أباطرة الشرق ، وما حل بينزنطية من الضعف بسبب انساع أملاك المسلمين في آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أو راڤنا عن أن تحمى الولايات البابوية بإيطاليا من هجات اللمبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة . وخشى البابا استيفن الثاني ( ٧٥٧ – ٧٥٧ ) أن يستولى اللمبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر علمها ملوك اللمبارد ، فاستغاث بالإمبر اطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يغثه ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية في الخطر . فقد لى بيين القصير نداءه ، وأخضع اللمبارد ، ونفح البابوية و بهة بيين ، الَّتِي أَغْنَهَا إِذْ مَنْحَهَا جَمِيعِ إيطاليا الوسطى ( ٧٥٦ ) ؛ وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إم اطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد البابوات. وهكذا أضحت أسقفية جريجورى الأول التي لا حول لها ولا طول من أعظم الدول في أوروبا. ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة في بادى الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسين والألمان ومنازعاتهم. ذلك أن روساء الأساقفة خالفوا مع الملوك في المانيا، فنالوا بغضل هذا النحانف أملاكا واسعة، وجصل الأساقفة والقساوسة على ساطات

إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ ﴿ الأحكام البابوية الكاذبة » ، وهي مجموعة الأحكام التي قوت فيما بعد سلطان البابوية ، والتي كانت تهدف في بادئ الأمر إلى تقرير حتى الأساقفة في أن يستأنفوا: أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه. الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت فى مدينة منز عام ۸٤٢ . وكان واضعها قس فرنسي تسمى باسم إز دورس مركاتور Isdorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كسرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات ، عدداً من المراسم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمنت الأول ( ٩١ – ١٠٠ ) إلى ملخيادس Melchiades -- ٣١١.) ٣١٤ ) . وكان الغرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بألا يخلع أى أسقف من منصبه ، وألا يدعى أى مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وألا يفصل في أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البايا . وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جِمِعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمي المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض . وكان البابا سلفستر الأول ( ٣٢٤ – ٣٣٥ ) يوصف في هذه الأحكام بأنه قلم أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية الكِاملتينِ على جميع أوربا الغربية ، وأن « هبة پيپين » بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع فى أصمه إلى مؤسس الإمراطوارية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن كثير أ منالوثائق المزورة تنقلنصوصاً منترجمة القديس چيروم للكتاب المقدس . ومن المعروف أن جروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس ـ

ولقد كان في وسع كل من أوتى قدراً من العسلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمى كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التى تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم (\*).

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة، قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً في تاريخ البابوية ، تلك هي شخصية نقولاس Nicholas الأولُ ( ٨٥٨ -- ٨٦٧) وكَان نقولاس قد تلقى تعلما عالياً فذا في قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرب على مهام منصبه السامى بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجورى الأول والثاني العظيمين في قوة الإرادة،، ويفوقها في سعة مطامعه ونجاحه الوصول إليها . وقد أقام منطقه على قضيتين يقبلهما وقنتذ جميع المسيحين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رُثيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين – حكاماً كانوا أو محكومين ــ في شئون الدين والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرو أحد في البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك وروساء الأساقفة ألا بحملها محمل الجد أكثر مما يجب.

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثانى ملك لورين أن يطلق

<sup>( \* )</sup> ولقد كشف لورنزوڤلا في عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالا الشك ، عما في هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا نإن جميع الطوائف مجمعة في هذه الأيام على أن هذه الوثائق التي كانت مثاراً للجدل وثائق مزورة (٢٦ )

زوجته ثيوثبرجا Theutherga ويتزوج عشيقته ولدرادا حقق الروساء اللدينيون عملكته رغبته ، فلجأت ثيوثبرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل البابا مبعوثيه إلى متز لينظروا في الأمر . ونفح لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليويدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة تربير وكولوني هذا القرار إلى البابا ، ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد زوجته إلى عصمته ، فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه . وأقام نقولاس عملياً ، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكمار كبير أساقفة ريمس وأعظم الروساء الدينيين في أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفا يدعى راثراد Ratherad منصبه ، فلجأ الأسقف إل نقولاس (٨٦٣) ؛ فأعاد البابا النظر في قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصيه ؛ ولما تردد هنكمار في تنفيذ حكم البابا هدده بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى بوقف الصلوات في جميع كنائسها . واستشاط هنكمار غضباً ، ولكنه خضع . وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، وقد ولم يجرو أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد ثقريباً في جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان تقريباً في جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الوهاج الذي أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين في ذلك العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها في أقاليم أوسع رقعة من التي كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

## الفصل لرابغ

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ – ٨٩٨

لم يكن فى وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعواهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات. لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم اللين كانوا يعينونهم فى مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الديني المطلق فى العالم المسيحي الشرقى ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان البطريق ، واليمين التي يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما فى الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وقتئد فى القسطنطينية — بل فى بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبها . وكان عدد هذه الأديرة فى القسطنطينية وحدها يفوق عددها فى الغرب ، حى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون فى كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون فى طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً فى الساع الأديرة وكثرة عددها بماكان مهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات فى أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون للخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعنى بعدائد من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن يثالوا من وراء استباره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل. وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتحزبهم ، وشرههم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أَيْضًا بنفوذ سياسي لم يكن يسع إمبر اطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور ( ۷۰۹ – ۸۲۲ ) رئيس دير استوديون Studion في القسطنطينية مثلا أعلى فى التمي والسلطان . وكانت أمه قد وهبته فى طفولته إلى الكنيسة ، فتطبع بجميع الطباع المسيحية إلى حد جعله يهنئ والدنه أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً لِلعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت في الغرب ؟ ودافع عن استعال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبر اطور ليو الخامس بمنتهى الجرأة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة في الشئون الكنسية . وقد نني أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل في منفاه يقاوم محطمي الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ماكان بين المذهبين في هذه القرون من اختلاف في اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما في هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم في المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوئية ، والآنية ، والزخارف المقدسة في الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مثيلاتها في الغرب . فكان ذراعا الصليب اليوناني مثلا متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتن فكانوا يصلون راكعن ؛ وكان اليونان يعملون أطفالهم بأن يغمروهم في الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ؛ وكان القسيسون اللاتين يحلقون لحاهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها إرسالا يخلع عليهم مظهر التفكير ؛ وتخصص رجال الدين اللاتين في الشئون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا في أمور الدين ؟ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً في بلاد الشرق الذي ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حد له ؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالى عام ٢٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسطية التي نادى مها بردسانس Bardesanes في بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الربانى ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا برمزية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بدور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإبطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقسى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن في طوائف الملخاني Molokhani ، والخليسي Khlysti ، والدخوبور . Dukhobors

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك فى أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التى أدخلت على العقائد النيقية فى طيلطلة عام ٥٨٩ ، والتى تقول إن ال وح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتى لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الحموة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذى ينبعث من الأب ، و patre procedit وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؟

ثم حدث فى عام ٥٩٥ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى طليطلة فجعله الأب والابن . فجعله ex patri filioque procedit أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً فى المذهب اللاتيني إلا فى القرن الحادى عشر .

وقام في هذه الأثناء كفاح. بن الإرادات أضيف إلى الكفاح بن الآراء ؛ فقد كان من بن الرهبان الذين فروا من وجه محطمي الأصنام راهب يدعى إجناثيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخاثيل الأول . واستدعت الإميراطورة ثيودورا هذا الراهب في عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلا تقيأً شجاعاً ، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معاشرة أرملة ابته المحرمة عليه طرده إجناثيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفي إجناثيوس ، ورفع إلى عرش البطريقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهذيباً (٥٥٨) . كان فوتيوس ( ٨٢٠؟ – ٨٩١ ) يتقن علوم اللغة ، والخطاية ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ؛ وكانت محاضراته التي يلقبها في جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إلىهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريقية قد تم موسوعة في مائتين ونمانين بابا استعرض في كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصبُ الشعب ، الذي عجز عن أن يفهم السر في بقائه مرتبطاً برباط الود والصداقة مع أمير كريت. واستاء رجال الدين في القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجاءة من بين العلمانيين إلى مقام البطريقية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثيه إلى القسطنطينية لينظروا في الأمر ، وقرر في رسائله إلى الإمبر اطور ميخائيل الثالت وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها في أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبر اطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المويدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكر عليم نقولاس عملهم والممهم بأنهم قد خرجوا على التعليات التي وجهها إليم ، وأمر الإمبر اطور بأن يعيد إجناثيوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبر اطور هذا الأمر أصدر قراراً عبرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ، ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبر اطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين :

" إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نقفر نحن صقلية من أهلها ؛ ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم نحرق الكنائس في ضواحي القسطنطينية ؛ وبينا يفتح هوالاء الوثنيون ( أملاكك ) وبحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق بارباس Barabbas وتقنل المسيح (٢٧) » عودعا فوتيوس والإمراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصلس همذا المجلس قراراً بحرمان البابا ( ٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعاث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق القساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى في الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبيناكانالرسل اليونان يحملون هذا الهزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة ( ٨٦٧ ) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبر اطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبر اطور الجديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الرباني . ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفي فوتيوس ، وأعاد إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ وأعاده مجلس كنسي إلى مقام البطريقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار ( وكان نقولاس الأول قد مات ) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلى هذا الانشقاق .

## الفصرالخامس

#### المسيحية تغزو أوربا ( ٢٩٥ ــ ١٠٥٤ )

لم يكن أجل الحوادث في التاريخ الديني لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية في الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكا يه ، انتزعها منه فى يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية (\*). نعم إن البطارقة ظلوا في كراسيهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ؛ ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقالم ، وكانت المسيحية الباقية فها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحي لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لاڤرا المقدس الذي أقيم على جبل آثوس Mt, Athos في عام ٩٦١ يضارع في عظمته الپارثنون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية في القرن التاسع الميلادي عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسپانيا فقد كانِ الجزء الأكبر منها في عام ٧١١ قد خرج من أيدى المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها في آسية وأفريقية وواصلت فتوحها في أوربا .

<sup>(</sup> و ) في هذا القول كثير من المفالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأعلاقية المسيحية وإن خالفها في بعض مبادئها وحسبنا دليلا على هذا قول الله سبحاله وتعالى نبيه : « وجادلهم بالتي هي أحسن » . ( المترجم )

وأوشكت إيطاليا أن تقع فى أيدى المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بن المذهبين المسيحيين اليوناني واللاتيني ، وكاد دير مونتي كسينو يقوم على الحد الفاصل بن المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت. حكم رئيسه دزيدورس ( ١٠٥٨ – ١٠٨٧ ) . فقد جاء إليه من القسطنطينية ببابين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف سهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف في المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج فى النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية في الإبداع على غرار النماذج البنزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل في بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفي رومة لم تشأ الكنيسة في عهـــد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة في التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن البانثينون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٢٠٩)، واستحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المخلّص . وجدد ليو الرابع ( ٨٤٧ ـــ ٨٥٥ ) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجيء الحجاج إلى تلك المبانى ، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القدم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللانينية . ذلك أن ملوك الأسرة المروقنچية لميكونوا يرتابون فى قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعدأن يستمتعوا بتعددالز وجات وتقتيل الحصوم ؛ فأخذوا يهبون الاسقفيات الكثير من الأراضي والأموال . وكانت الكنيسة فى فرنسا كما كانت فى غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات ؛ ولما حرم

شلىريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنثرام Gunthram أمر التحريم بعد تليل . وكان من سُخريات التاريخ أن رجال الدين في غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالى الرومانى ، ومهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحي يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم وبردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم في الحروب(٢٨) . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة في غالة ، وأحسنهم تعليا ، وأقلهم فساداً في الأخلاق ؛ وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صادقة مخلصة في تعليم الشعب الذي كان يعاني الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفى تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست في الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية في أبرشياتهم ، وكانت مماكمهم الملجأ المفضل للمتقاضين في الشئون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينا وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعدمين ، والأرقاء ؛ وكانت الكنائس تنشىء المستشفيات في كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu . ونزل الله ، \_ الذي افتتح في باريس عام ٢٥١ . وقد اشتهر. سان چرمان St. Germain ، أسقف باريس في النصف الثاني من القرن السادس في يميع أنحاء أوربا بما بذله من الجهود فيجمع الأموال ــ وإنفاق ماله الخاص ــ لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف مينز جسور الرين . وهذب الملكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديدييه Didier أسقف كاهور St. Agobard قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار Cahor ( ٧٧٩ ــ ٨٤٠ ) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً في التدين ، وعدواً لدوداً للخرافات ؛ حرم المحاكمة بالمبارة أو التحكيم الإلمي ، كما حرم عبادة الصور ، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما في محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا ﴿ أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء ﴾(٢١) . وكان هنكمار الأرستقراطي كبير أساتفة ريمس (.٨٤٥ – ٨٨٨) رئيساً لنحو ( 14 - 7 - 71 )

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصلع ، وكاد ينشى محكومة دينية في فرنسا .

واتصفت المسيحية في كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت في أيرلنسدة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ؛ أدخلت فها الجنيات ، والشعر ، وخيال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث الفساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلي فى البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة \_ حتى كادت كل جهة فيها يكون لها و أسقف ، مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلها تزيد الواحدة منها على اثني عشر راهباً يقيمون في أديرة شبه منعزلة ، معظمها مستقلة بشئونها ومنتشرة في أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجي من أي نوع كان . وكان الرهبان. الأسبقون يعيشون في صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر \_ ١ الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين ٥ - خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج في المدراس الأير لندية في القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائعي الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغاله ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب. أحد الفرنجة في عام ٨٥٠ يقول : ٥ تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى. سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة ، (٣٠) . وهكذا انعكست الآية واستُترِدُّ اللهَّين ، نبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا : العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيزلنديون بلقون بأنفسهم على فاتحى إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ، والترويجيين ، والدنمرقيين ، وعلى المسيحيين الأميين نصف الهمج في غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضي بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هي التي أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلألأت كما لم تتلألاً من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التي كتبها له ( حوالى عام ٦٧٩ ) أدمنان Adamnan أحد خلفائه في أيونا Iona . وقد ولد كولمبا في دنجال عام ٥٢١ ، وكان يجرى فى عروقه دم الملوك ؛ وكان كما كان بوذا قديساً في وسعه أن يكون ملكا . وبدا عليه وهو طالب في مدرسة موڤيل Moville من الورع ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أي عماد الكنيسة . وأنشأ مذكان في الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها أ درى Derry ، ودرو Durrow ، وكلز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت »(٣١) ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع تم إلى الحرب مع الملك دبر مويد Diarmuid ؛ ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أبرلنده (٥٦٣ ) ، وهو مصمم على أن يهدى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل في معركة كولدرڤنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ في جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلندة الذربي ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريدوه الإنجيل فى جزائر هبريده Hebrides ، واسكتلندة ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى 7 لافا من الوثنيين إلى الدين المسيحي وزخرف ثلثمائة «كتاب نبيل » مات ، هو يصلي عند المذبح في الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيه به فى روحه واسمه سانت كولمبان St Columban المولود فى لينستر Leinster حوالى عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجده وهو فى الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة فى جبال الثوچ بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه فى لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلى كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ، وتقرأ كل يوم ، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفى مجتمع متألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودماثة الأخلاق من رابع . . . . ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر فى الطريق (٢٣) .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر ما تكون بالجالد : ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسم تأثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى ؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، وماثة لمن يشترك فى نزاع ، وماثتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة (٢٣٦). ولم يكن الناس يحجمون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابى ، فقد كان فى ديرمكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والحضر ، ويلمومون وبصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذى لا ينقطع ويصومون وبصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذى لا ينقطع ويصومون وبصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذى لا ينقطع بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين (٢٤٠) . وكانت بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين (٢٤٠) . وكانت ألف هير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة فى العصور الوسطى .

ولم يكن المزاج الصارم الذي وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألى كولمبان ، الذي يحرم النزاع ، نفسه في نزاع متكرر مع الأساقفة الذين .

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمنيين الذين لا يقبل تدخلهم في الشئون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة في بادئ الأمر ولكنها غبرته فى عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغالبين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولمبان أوامر البابا وقال : ١ إن الأير لنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان» ، وأمر جريجورى أن يقر ، طربقة الأيرلنديين في الحساب وإلا « فسيعد من الحارجين على الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب ١٥٥٥) . ثم طرد الأيرلندي المتمرد من غالة (٢٠٩) ، لتشهيره بآثام الملكة برنهلد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندة ؛ ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ؛ وعبر كولمبان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل باڤاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولمبان كان في حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم في اطمئنان على كتفيه وتدخل فى قلنسوته وتخرج منها(٣٦) . ثم ترك زميلا له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جو ثار Sf Gothard Pass بعد أن عانى في سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير ببيو Bobbio في لمباوديا عام ٦١٣ حيث توفى بعد عامين في صومعته المنعزلة التي كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقشف .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين في بريطانيا في عام ٢٠٨ ؟ كما يحدثنابيد Bedeعن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين. وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؟ كذلك ذهب چرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا في عام ٢٩٨ ليقضى فيها على الزنادقة البلاجيين (٣٢). ويؤكد لنا وليم الملمز بريب William of ليقضى فيها على الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمدا لله » في وجوههم(٣٨) . ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ، فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدالد حتى دخل أتباع كولمبا نور ثمير لند في آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك فى أن البابا جریجوری قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثنی تزوج برتا Bertha الأميرة المروڤنجية المسيحية . واستمع إثلبرت في لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غبر مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهيأ له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن فى كنتربرى . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٩٩٥) أن تقنع الملك باعتناق الدين الجديد ، وحذا حدوهما كثير من رعاياهما . وفي عام ٢٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتربرى الأجلاء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بتى فى إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثهران في يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله »(٣٩) ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجاليز من تغير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وأدخل مبشر إبطالي آخر يدعي بولينوس Panlinus المسيحية إلى نور ثمر لند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نور ثمر لند دعا رهبان أيونا إلى المجيء إلى بلاده ليعظوا شعبه ؛ وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرق . وفها أنشأ سانت إيدان St. Aidan العربة علد اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كثيرت وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كثيرت طبية لصبره، وتقواه ، و فكاهته، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال طبية لصبره، وتقواه ، و فكاهته، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المتنصرين حديثاً والمتنصرات إلى أديرةالرجال والنساء التي قامت وقتئد في انجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل ، بكدحهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فتزعموا هنا ، كما تزعموا في فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والآجام ، وكما تزعموه في كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشره . وفن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ، وأن لأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قداستغرقت من أرض إنجلترا وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قداستغرقت من أرض إنجلترا من الغزو<sup>(3)</sup> . وسرعان ما أثبت الدنمرقبون ، من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو<sup>(3)</sup> . وسرعان ما أثبت الدنمرقبون ، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكر عليها صفوها ، حين اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون في جنوبي انجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانيسة والتقويم الروماني ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشهال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid بفصاحته في مجمع هوتبي Whitby المقدس ( ٦٦٤ ) هذا النزاع – وهو من الوجهة انفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح – في صالح رومة . وقبيل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهبات سلطة اقتصادية وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلندين والإنجليز . ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثميرى الذى تلقى تعليمة في أيرلندة اجتازهو واثنا عشرمن أعوانه المغامرين بحرالشمال في عام ١٩٠، واتخذ مقره الديني فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين الى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى وليبرورد يد پيپين الأصغر حاميه ونصيره ؛ ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثواهم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه (۱۶) .

وواصل رجل أقوى من وليبرورد هذه الحملة في عام ٧١٦ . ذلك أن نپيلاً إنجلمزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد ( ٦٨٠ ؟ – ٧٥٤ ) منحه البابا جر يجورى الثانى اسم بنيفاس ولقـَّبه خانهاوْه الصالحون لةب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar في هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلحة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ، ودهش الناس حن رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة في ريخنو Reichenau ) ، وفلدا Fulda (۷٤٤) ، ولورسخ Lorsch , وعيَّن بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز في عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لنقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسي . ولما أتم رسالته في هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا يعتزم أن يتم العمل الذى بدأه وليبرورد ، وبعد أن ظل يكدح في هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحي بنن السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الذين فتحوا رومة على أيدى المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوربا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير موراڤيا رأى المسيحية اللاتينية تلخل بلاده وتغفل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية في عظائهم وصلواتهم ، قبعث إليه الإمراطور بأخوين ها مثوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشآ ا في سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكليا لغة الصقالبة . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدا أن الصقالبة ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغنهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون في كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلبية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التي دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن الناسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق كا ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حروفاً صقلبية للأصوات التي لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل مهذه الحروف الموانية الشجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل اغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بن المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاهما أن تستحوذ على الصقالبة ؛ فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات ( ٨٦٩ ) . أما مثوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلبية ، ثم حرمها استيفن الخامس ؛ واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا ( وهى الى تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة ) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وبولندا ؛ أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلبية ، وقدمت ولاءها للكنيسة اليونانية ، وأخذت فالمناها عن بنزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

وثيق . وقرض الملك هاروالد بلوتوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحى على الدنمرقة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذى طلبه الإمبر اطور أتو الثانى للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونائية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضهامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل ڤلاديمير انضهامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل ڤلاديمير أخت بازيل الثانى إمبر اطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم باثنة لها (٢٤٠ وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسلطان بطرق بالتسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه فى القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبر اطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر فى العالم الأرثوذكسى اليوناني .

وكان الجنود المظفرون في هذا الفتح المسيحي لأوربا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن المعرضات في هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضي البور وزراعها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ، ولقد أقاموا في البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ، ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة ، وبشسوا النظام الأخلاقي وروح الشجاعة والطمأنينة في نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بندكت الأنياني يكدح ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثبودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاما ، وقد بلغ من إخلاصه في هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته مهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلا مثلا عليا للفضيلة ، والخشوع ، والجد ؛ وكان لابد من قيام

حملة فى كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التي شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون فى نوبات موقوتة من التهي والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهبنة بعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حاستهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نذوراً جيء بهم إلى الأديرة وهم أطفال ` سن السابعة أو بعدها ، ومهم من جيء مهم وهم رُضَّع في المهد ؛ وقد ظلت هذه الندور حرمات لا يحل النكث سما حتى أباحت القرارات البابوية في عام ١١٧٩ التحلل منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره(٤٣) . وهال لويس التقي ما رآه من ضعف النظام في الأديرة الفرنسية فدعا في عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من روَّساء الأديرة والرهبان في آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنياني أن يقرر السير في جميع أديرة بلاده على القواعد التي وضعها القديس بندكت النورسيائى St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الجديد يواصل العمل بجد ، ولكن المنية وافته في عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضي في دولة الفرنجة ؛ وخربت غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين مثات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجهم فى العالم غير الديني ، ولما عاد بعضهم إلى أدبرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إلها بطرائق الحياة في خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأدبرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستواوا على إيرادها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذي لا يستحق الذكر منها ، في أوزبا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدو رئيس دير كلوني ( المتوفى عام ٩٤٢ ) ه إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً ` يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها ، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذا للعفة والطهارة في حرمها المسور ؛

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى ه<sup>(٤٤)</sup>. ومن دير كلونى جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة .

ذلك أن اثنى عشر راهباً قد أنشأوا حوالى عام ٩١٠ ديرا في هذا المكان بين تلال برغندية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وَفَرَنَسَا . وَفَي عَامَ ٩٢٧ أَعَادَ أَدُو رَئَيْسُهُ النَظْرِ فَي قُواعِدُهُ لِيَجْعَلُهَا أَشْدُ صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية : فمنح التقشف الشديد ، وأوصى بالاستحام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب الجُعَّة والنبيذ ؛ ولكنه شدد في الاستمساك بالأيمان القديمة التي يلتزم بها الرهبان الفقر ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غراره في أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذي لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع إلا خضوعاً غبر وثبق إلى أسقف على أو سيد من الأشرف ، بل كانت الأدبرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلونى يحكمها روًساء يخضعون لروًساء دير كلونى وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul ( ٩٩٤ ــ ٩٩٤ ) ، وأدوياو Odilo ( ٩٩٤ ــ ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ — ١١٠٩) حركة تآخي الأديرة من فرنسا إلى انجلترا ، وألمانبا ، وبولندة ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلوني » ، فلم يحل عام ١١١٠ حتى كان نحو ألني دير تعترف بأن دير كلونى أبوها وحاكمها . وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً في يد البابوية تسيطر به على رجال الدين في خارج الأديرة ، ويسرت في الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدى الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوى على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أبد قوية ماكان في الأديرة من اضطراب ، وتعطل ، وترف ، وفساد أخلاقي ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسي في أراضيها ، إذ دعى أدو إلى إيطاليا ليصلح دير موانيي كسينو نفسه (١٥) .

### الفصلالتاس

#### البابوية فى الحضيض ( ٨٦٧ ــ ١٠٤٩ )

كانت رومة آخر المدن الى وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعاب المراس حتى في الوقت الذي كان فيه النسر الإمىر اطورى يقبض بمخلبيه على الفيالقُ الضخمة يسبر ها أينها شاء . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء فى أيدى أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً مِن أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط مهم ؛ فقد كانوا يرون في خلفاء المسيح في الأرض رجالا مثلهم يمرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية فى اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأ عاصماً للنجاة ، بل أضحت طاثفة من العال يجمعون الصدقات من أوربا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بألا يختار البابا بغىر رضاء رجال الدين في رومة وأشرافها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنڤنتو ، ونابلي ، وتسكانيا ، وأشراف رومة شيعاً وأحزاباً كما كانوا في عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا فى المدينة يحيك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية في القرن العاشر إلى أحط مستوى وصلت إليه في تاريخها كله .

من ذلك أنه في عام ٨٧٨ دخل لامبير Lambert دوق اسپوليتومدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول آن يرغمه بتجويعه على تأبيد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفي عام ٨٩٧ أمرالبابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus ( ۸۹۱ – ۸۹۱ ) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها وتلتى فى نهر التيبر (٢٦) . وثارت فى العام نفسه ثورة سياسية في رومة خلع على أثرها استيفن من منصه ، وقتل في السجن خنقاً(١٤٧) . وظل كرسي البابوية عدة سنىن بعد ذلك الوقت لاينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنىء ، وبقيت أبيرة بثيوفيلاكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين في قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح في اختيار عشيقها سرجيوس النا'ث لكرسى البابوية (٩٠٤ ــ ٩١١) (٨١٠ ؛ كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ – ٩٢٨ ) . وقد اتَّهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع(٤٩) ، وما من شك في أنه كان زعما ممتازآ في الشئون الزمنية ، لأنه هو الذي عقد الحلف الذي رد زحف المسلمين على رؤمة في عام ٩١٦. وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيدو Guido دوق تسكانيا ، وأخذا يأتمران لخلع يوحنا ، وعملا عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا في السجن حيث مات بعد أشهر قلية مينة لا تُعلم أسبابها ، ثم رفعت مربوزا فی عام ۹۳۱ بوحنا الحادی عشر (۹۳۱ ــ ٩٣٥ ) إلى كرسى البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يُوحنا هذا ابن لها غير شرعي من سرجيوس الثالث(٥٠) . وفي عام ٩٣٢ سَمَجَن ابنها ألمريك Alberic يوحنا هذا في قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شئون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة أثنتن وعشرين سنة ، كان فها الطاغية المسيطر على ٩ جمهورية رومانية ، . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتاقيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثانى. وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثانى عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة فى قصر لاتران Lateran .

وعرف أنو الأول إسراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً في عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة فى عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة. أمام مجلس كنسى . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عن غلاما في العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليلة أبيه ، وضاجع أرملته ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه النَّهُم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلسخلعه ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسي \_ البابوية ، وكان هذا المرشح الذي أصبحالبابا ليو الثامن ( ٩٦٣ – ٩٦٥ ) من غبر رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطورى في رومة وبتر أعضاءهم ، وعمل على أن يعود إلى كرسي البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره ( ٩٦٤ )(٥٢) . ولما مات يوحنا ﴿ ٩٦٤ ﴾ اختار الرومان بندكت الحامس لكرسي البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة في أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أي بابا في المستقبل(\*). ولما مات ليو عمل أنو على اختيار. يوحنا النالث عشر خليفة له ( ٩٦٥ – ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشراف الرومان بندكت السادس ( ٩٧٣ — ٩٧٤ ) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو غرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفسه بابا شهراً من

<sup>( ﴿ )</sup> تَعَدَّ الْكَنْيَسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ الرومانيَّةُ ليو الثامن خارجاً على البابويَّةِ ، ولا ترى الأعماله أو قراراته قيمة ما . .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر ( ۹۸۳ – ۹۸۶ .) ؛ وجلس على كرسى البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة فى فراشه ( ٩٨٥ ) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمسكت بزمام السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلا . فانقض أتو الثالث على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضي على الفوضي بتنصيب راعي كنيسته الحاصة بابا باسم جربجورى الخامس ( ٩٩٦ – ٩٩٩ ) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، وخلع جريجورى ( ٩٩٧ ) . فما كان من جربجوری إلا أن أصدر قراراً محرمانه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتو مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به فی شوارع رومة علی ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رووس كرسنتيوس واثنى عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو ( ۹۹۸ )(۲۰۰ . وعاد جريجورى إلى كرسي البابوية ، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً ، في أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلس أتو في مكانه رجلا أصبح من أنبه البابوات جميعا .

والم جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Auvergne من أعمال أوڤرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠)، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسپانيا عملا بمشورة رئيس الدير ليدرس علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت يرشلونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جربرت عاما فى التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه فى ذلك الوقت أو بعده . بإيطاليا وكان أتو الثانى علم المنطق فى مدرسة كنيستها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة ( ٩٧٢ – ٩٨٢ ) . وكان يعلم طائفة من العلوم غريبة في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حيثها ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون (١٥٠ . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام «العربية» ، وكتب عن المعد والأسطر لاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ؛ واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار (٥٠٠) . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية (٢٠٠) .

ولما تونى أدلبيرو (٩٨٥) سعى جلبرت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس، ولكن هوكابت عين بدله أرنولف بأتمر مهيو أصدر مجلس كنسى البيت الكارولنجى . ولما أخذ أرنولف يأتمر مهيو أصدر مجلس كنسى قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جربرت رئيساً للأساقفة مراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جربرت رئيساً للأساقفة بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جربرت من منصبه . فما كان من العالم المستذل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر النكريم ، وهيأ عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبر اطورية بأرومانية وانخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة راقنا ، ثم عينه أراد أن يقول إنه سيصبح سالفستر ا ثانياً لقسطنطين ثان يوحد العالم مرة أحرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصح جربرت ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سمته استفانية Stephania عينها التي سمت أتو .

وتدل الآمال التي كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولها ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهى في العام المتم للألف بعد الميلاد . فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسى أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل (٥٧) ، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تومن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتأثم ، وتصلى ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام الشيخوخة . ولسنا نجد ثوادة في هبات الناس إلى الكنيسة (٥٨) .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت ، فأخد أعيان تسكيولوم Tusculum ،تحالفين مع الأباطرة الألمان يشترون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلماً كانوا يحاولون النستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٧ – ١٠٢٤) الذى رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلا ذكياً قويا ؛ ولكن بندكت (١٠٣٧ – ١٠٤٥) الذى عن بأبا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش (١٠٥٥) الذى عن بأبا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجورى السادس ( ١٠٤٥ – ١٠٤٦) بألف (أو أاني) رطل من جريجورى السادس ( ١٠٤٥ – ١٠٤٦) بألف (أو أاني) رطل من الذهب . وأدهش جريجورى رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها بمن كانوا يسيطرون علمها . ولم يكن أمراء الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها بمن كانوا يسيطرون علمها . ولم يكن أمراء النابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمراطور هنرى الثالث ليقضى على هذه المهازل ، فجاء إلى استقرى Stuti القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلقستر فى السجن ، وقبل استقالة بندكت ، وخلع جريجورى لاعترافه بأنه ابتاع منصب البابوية ، وأقنع هنرى المجلس بألا سبيل إلى انتشال الكنيسة من هذه الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبي تحت حماية الإمبراطور ؛ واختبر لهذا المنصب أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت Clement الثاني (٤٦٠١-٤٧)، ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دمسوس ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دمسوس باستمرار من مناقع كمپانيا التي لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر قى ليو باستمرار من مناقع كمپانيا التي لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر قى ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٤٩) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ، واستقامة ، وصلاح ، قلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

## الفيالتابع

#### إصلاح الكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة فى ذلك الوقت: وهى المتاجرة بالمناصب فى محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو النسرى بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود خالات متفرقة من الدعارة بين الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هي المظهر الكنسي لما يعاصره من فساد فى الشئون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة في أن تهيه للكنيسة ، فقدمت المال لروءُسائها لكي يجعلوه قساً في إحدى الكنائس وهو في الحادية عشرة من عمره . وإذكان الأساقفة في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون الشئون الزوحية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطَّعون أرضين ، وقرى ، ومدناً في بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من الناس يقدمون مبالغ طائلة للروَّساء الزمنيين ليظفروا مهذه المناصب ، وكان الشرهون من الرؤساء لا يتورعون عن أرتكابكل مأثم للحصول على هذه الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً فى العاشرة من عمره عبن رئيس أساقفة ف. نربونة Narbonne نظير ماثة ألف صليدي (١٦) ؛ وأن فيليب الأول ملك فرنساكتب إلى رجل أخفق فى الحصول على منصب رثيس أساقفة يواسيه في إخفاقه يقول : « أَثْرَكْنِي أَجْنِي المال من منافسك ، ثم حاول آن تسقط، باتهامه بابتياع منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك » (٦٢٪ . وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التي سنها شلرلمان فيعينون هم بانتظام أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourgcs، أما في

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذي يعينهم (٦٣) ، وأضحت كثير من مناصب الأساقفة مبراثاً لبعض الأسر الشريفة. ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ؛ وكان أحد البارونات في اللانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه (٦٤) . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالي عام ١٠٤٨ ) أن الذين يبتاعون كراسي الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية في الكنائس ، وألواح القرميد في سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم (٢٥٠) . وكان الذين ينالون المناصب مهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغمضون أعينهم عن الرشا في المحاكم الأسقفية (٢٦٦) ، ويعينون أقاربهم في المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء. ويقول البابا إنوسنت الثالث في وصف أحد رؤساء الأساقفة في نارين إنه لديه كيسا من المال في الموضع الذي كان يجب أن يكون فيه قلبه(١٧٧) . وقد أصبح ابتياع الكراسي الاسقفية أمراً مألوفا يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضاضة فيه ؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان المجوسي قد استحوذ على الكنيسة(٦٨) .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى. وكان زواج القساوسة في القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً في إنجلترا وغالة وشمالي إيطاليا ، وكان البابا هدريان الثاني نفسه متزوجاً (٢٩) ؛ وكتب راثريوسRatherius أسقف قمرونا (في القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشرحتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة (٢٠٠٠). ومن الحطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم ينفق في كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ، وكان القس العزب في مدينة ميلان (٢١).

لأن ثانيما كان يتهم بالتسرى - بل إن الرأى العام كان يتسامح في النسرى نفسه أى في اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطآ جنسيآ منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربين كانوا يحيون جَياة لا غبار علمها من الناحية الأخلاقية ، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذً يندى من فعالم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary في عام ٧٤٧ أن الأسقفيات تعطى « للشرهين من غير رجال الدبن ، وللزانن من القسيسين «CYY) ، وأن بعض الشهامسة « يحتفظون بأربع سرارى أو خمس «<sup>(۷۳)</sup> ، وقد اتهم بيد الموقر فى هذا القرن يعينه ﴿ بَعْضُ أَسَاقَقَةً ﴾ إنجابرا بأنهم « يضــحكون ، ويهزلون ، ويروون الأقاصيص، ويمرحون، ويسكرون و. . . يُعيون حياة الملذات والفسق، (٧٤٠. وَكُثْرَتَ هَذَهُ النَّهُمُ وَأَمْنَالِهَا فَى أُواخِرِ الْأَلْفُ السِّنَةُ ۖ الْأُولِيٰ بِعَدِ الميلادِ ؛ فهاهو ذا رالف جلابر Raiph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله في فسادهم الحلَّقي ، وها هو ذا راهب إيطالي يدعي بطرس دامیان Peter Damian (۱۰۷۲ – ۱۰۷۲) یعرض علی البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغالاة التي يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يرتكبه القساوسة من رذائل ؛ وفي هذا الكتاب فصل عن « مختلف الحطايا المناقضة للطبيعية » . ويطالب داميان في هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين.

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاء ه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيماول أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدى إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين في أوربا تشبه مثيلتها في بلاد الهند ، وأن ما يضفيه هذا السلطان الاقتصادي على القساوسة ذوى الأملاك يزيد في قوتهم إلى الحد الذي تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبني الإنسان ، وأن مستواه الأخلاق يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضفي عليه مستواه هذا المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة بجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة ؛ وكان واخد منها \_ هو الذي عقد في ياڤيا عام ١٠١٨ \_ قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من المبراث على جميع أبناء القسيسين (٢٠٥) ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية ، والملتمسات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاما لحاية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يضطاع جذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج القساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحصيف الذي أصبح فيا بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة في عام ١٠٤٩ ، معزما أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس في مدائن أوربا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيبته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى في قلوب الناس من إجلال ؛ فأخفت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائص جدفرى اللوريني الذي مب الكنائس وعدى الموليني الذي مب الكنائس الكنيسة التي خربها في فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه مها ، وأخذ يعمل في إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكة بابوية في كولوني ، وقوبل فها بجميع مظاهر الكنيسة التي بديه . وعقد ليو محكة بابوية في كولوني ، وقوبل فها بجميع مظاهر المعلاحها بيديه . وعقد ليو محكة بابوية في كولوني ، وقوبل فها بجميع مظاهر الصلاحها بيديه . وعقد ليو محكة بابوية في كولوني ، وقوبل فها بجميع مظاهر المعلاحها بيديه . وعقد ليو محكة بابوية في كولوني ، وقوبل فها بجميع مظاهر المعلاحها بيديه . وعقد ليو محكة بابوية في كولوني ، وقوبل فها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألمانى . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة في ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاب أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة في البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياه ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنهم ليو أشد التأثيب ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكفروا علنا عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرَّجوا زوجاتهم وسراريهم ، وأن يمتنعوا عن استعال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلا عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة وروساء الأديرة ، وحرم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهـى رجال الدين غن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى نجلس عقد في مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، إصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات في ألمانيا . وعاد ليو إلى إبطاليا في عام ١٠٥٠ ورأس مجلس قوشلي Vercelli وحرم فيه آراء برنير التورى Vercelli الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالي أوربا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألماني رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسپانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات في سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى في ألمانيا وفرنسا في عاى ما الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى في ألمانيا وفرنسا في عاى مانتوا Mantua ، ورأس جمعية كنسية عظيمة في ورمز وأخرى في مانتوا Mantua ، ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنرى الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ، ولكن يندلف Pandulf

دوق كووا أبى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه اللوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد. وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألمانى يساعده على طرد پنداف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعائة رجل ، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ، فحاد فرسانهم وحدهم ببلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة فى الحروب. وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمهائة من رجاله . وساقوه بعدئل الحل بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه فى الصلاة . وأدرك النورمان أنه مشرف على الموت ، فأطلقوا سراحه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت فى كنيسة القديس بطرس ، وجلس بجواره بوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء العرج ، والبكم ، والمجذومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جئته .

# الفيرل لثامن

### الانشاق الأكبر فى الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائي بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في عهد جلوس سانت ليو على كرسي إلبابوية . وبينا كانت أوربا الغربية تتخبط في ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبوسهما وجهالتهما ، كانت الإمبر اطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين ( ٨٦٧ – ١٠٥٧ ) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها في جنوبي إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البنزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب فى حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ماكانت تدعيه البابوية المنحطة المعدمة من سلطان ديني مطلق على العالم المسيحي. وكان اليونان في ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمسان والأنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدتهم العنف وتتزعمهم فئة فاسدة من رجال الدين , وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البنزنطي ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة راڤنا ، وتتويج البابا لإمبراطور منافس لإمراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية ــ كانت هذه الحادثات السياسية التي تحز في النفوس لا الاختلاف القليل بن العقائد هي التي شطرت العالم المسيحي شطرين أحدهما شرقى والآخر غربي .

فنى عام ١٠٤٣ عين ميخائيـــل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوسهذا رجلا من أسرةنبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى العزيمة . وكان فى الأصل راهباً ولكن الذى رفع من شأنه

هو تاريخه السياسي لا تاريخه الديني . فقد كان كبير وزراء الإمىراطورية ؛ وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريقية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع فى عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعالها خبرًا فطيراً في القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغلق كرولاريوس فى ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التي تستخدم الشعائر اللاثينية ، وحرم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها : وبعث ليو ، وكان وقتئذ في أوج سلطانه ، برسالة ۚ إلى كرولاريوس ، يطلب أن يعترف البطرق بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفيض هذا الاعتراف بأنها وجميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان» (٧٦) ﴿ ثُم أرسل ليو وهو في هذه الحالة النفسية رسالا إلى القسطنطينية ليناقشوا الإمبراطور والبطريق في الفوارق التي تبعد فرعي المسيحية أحدهما عن الآخر . واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولاريوس أنكر عليهم حقهم في معالجة تلك المسائل: ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ٤ أ ١٠٥ وظل كرسى البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بحرمان كرولايوس ، فماكان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من حلق اللحى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد في صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها ٣ (٧٧) . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيستين ،

# الفيرالتاسع

جریجوری السابع هلدبراند (۱۰۷۳ – ۱۰۸۰)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بن ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات في تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألمانى يوحى بأن صاحبه من أصل ألمسانى ؛ ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه السُّعلية الخالصة • وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة في قرية سوڤانو Sovano الواقعة في مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣) ، وتلتى تعليمه فى دير سانت مارى القائم على تل الأفنتين فى . رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتين. ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونهي إلى ألمانيا في عام ١٠٤٦ صحبه هلدبراند في منفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد في السنة التي قضاها في كولوني الشيء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له في الصراع الذي نشب فيها بعد بينه وبين هنرى الرابع ؛ ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره في الوقت نفسه مندوباً للبابا في فرنسا ؛ وفي وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية في الشئون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا ڤكتور الثانى (١٠٥٥ ــ ١٠٥٧ ) واستيفن التاسع (١٠٥٧ ـــ ١٠٥٨ ) يستخدمانه في المهام الكبرى ؛ ولما ارتبى نقولاس الثاني عرش البابوية في عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل في ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلديرالله نفسه ، عن هذا الرأهب الذي لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هوالذى أقنع نقولاس ومجلس لاتران فى عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم.

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الحطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انتزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بجايته الحربية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ، والقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، واكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامه نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ ليفسه ذلك اللقب المبجل — جريجوري .

وكان قصير القامة ، عادى الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا فى الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشحد همته أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولى غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوربا كلها بحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البايوية ، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب فى عام يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعتزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعبان برغندية فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال بنفسه ، فأما أعبان برغندية فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال تزعزع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير فى حرب صليبية .

وكان مجلس لاتران المنعقد برباسة نقولاس الثانى و هلدبراند فى عام ١٠٥٩ قد حرم من حظيرة الدين كل قس يختفظ بزوجة أو سرية ، ونهى السيحيين.

عن حضور القداس الذي يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة في بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين في تسكانيا يهدافعون عن مبدإ زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع ، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إنَّ القَساوسة الذين يعيشون « آثمين » لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الرباني الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين(٧٨) . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع ( ١٠٧٣ ) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تنثني ولا تعرف الملل ، فجدد مجمع دینی عقد فی عام ۱۰۷۶ قرارات ۱۰۵۹ ، وأرسل جریجوری هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوربا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ، وكان لهذه الأوامر هي الأخرى رد فعلى عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلي عن مناصبهم على التخلي عن أزواجهم ، وعارض غيرهم في تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسي السرى ، وأعلن أتو أسقف كنستانس بأنه يحبذ آراء قساوسته التزوجين ويحمهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، وأعنى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى في عام ١٠٧٥ فأمر أدواق سوابيا وكارنثيا ، وغيرهم من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم؛ وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم (٧٩٠). ومات. جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن إربان الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكستوس Calixtus الثانى أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لا تران برياسة إنوسنت الثانى قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول.

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زاوج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذي يجمع عليه الملوك والبابوات ، انضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم اللَّـين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة وروساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتني الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث في ألمانيا ) عصا الأسقفية وخاتمها 🗕 وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فما دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون ( كما يسلم معظم الأساقفة الألمان وروساء [الأديرة مهم ) أن الملوك قد وهبوهم الأرض والدخل ، وألقوا علمم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلا – حسب قوانين الإقطاع – أن يكون أولتك الرؤساء الدينيون - أو الأساقفة منهم في القليل - مدينين بمناصبهم وولاتهم الزمني للملوك ، كما ظلوا مدينين بها في غير تلمر في عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضي الألمانانية ــ التي منحت في السنين السابقة للأسقفيات والأديرة – عن ساطان الدولة(٨٠) ، وعما اعتاد أن يؤديه لها أصحامها من واجبات وخدمات . وأرتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة اللمبارد المنتمون إلى أصل ألمانى والمدينون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسي النسبي وإخضاعهم لكرسي رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعي للملك (٨١)، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضى التي وهبها الملوك لهم(٨٠٠ ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضي الكنيسة لغيرها . وشكا جرنجورى من أن تعيين غير

رجال الدين فى المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاسد الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغاس فى الشرور الدنيوية ، والفساد الخلق وهى الآثام التى ظهرت فى الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلا للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخي صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوربا وتحكمها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعي . ألم يقل الرسولُ بولس إن السلطات القائمة مقدرة من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية . رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم - قبل حركة الإصلاح الديني بزمن طويل - أن. ينساب الذهب في شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس ـ من ألمانيا إلى إيطاليا(٨٣) ؛ وكانوا يرون أن السياسة البابوية ايست إلا جهوداً تبللها رومة اللاتينة لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التي تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التيوتوتية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة في الشئون الروحية ، ولكنهم يو كدون سلطان الدولة في الشثون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو في نظر جريجورى ثنائية مختلة النظام ، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشئون المادية كما تعلو الشمس على القمر(٨٤) ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة ــ أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله ــ في جميع المسائل التي لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسي . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعتر افآ ضمنياً بأذالسلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة علمها ، وذلك حنن ارتضوا أن يمسحهم البابوات أو يثبتوهم في مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجبه ، بوصفه خليفة الله في أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال (٨٥) ، وقد تساءل جريجورى في رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann السقف متز : « منذا الذي يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم في الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم في حكم من لايقلون في الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم في حكم من لايقلون عنهم – أي الشعب – جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ ٣ (٨٦٥) وقد بدا لجريجورى ، من نظرته إلى ما ساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضي ، لحريجورى ، من نظرته إلى ما ساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضي ، وحروب ، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذي خيم عليها دهراً طويلا يقيام نظام عالمي تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التي تعض عايها بالنواجد وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعم الأجل علمهورية مسيحبة ، أوربية في القليل ، إن لم تكن عالمية ه

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية هى تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هى إخضاع جميع الأساقفة للكرسى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذي يتحم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبريشة بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيده رئيس الأساقفة أو البابا نفسه (AV). وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها أيده رئيس الأساقفة أو البابا نفسه (Châlon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه في عام أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه في عام الملك في حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية في فرنسا إذ أبي فليب في حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية في فرنسا إذ أبي فليب أن يصلح شأنه (٨٨). وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون في المناصب الدينية ،

ولكن الأساقفة الفرنسين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم في ألمانيا نفسها .

واجتمع فى فيراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان فى رومة برياسة جريجورى، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج رجال الدين ، وتعين غيرهم في المناصب الكنسية . وأسرع جريجوري بعد صدور هذه القرارات إسراعاً عجيباً فحرم خسة أساقفة للمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، وكان هؤلاء الحمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف أسقني پاڤيا وتورين ، وخلع أسقف پياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف بامىر ج Bamberg بالحضور إلى رومة ليبرئ نفسه من النَّهم الحاصة بالمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة اليابوية خلعه جريجوري دون أدنى مجاملة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يزشح شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد رجال حاشيته المقربين بل إنه خلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن ينتظر موافقة البابا ــ وذلك إجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ، ` فإن فيه تحُديًّا صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس. وكأنما أراد هنرى أن يجمل رْفضه مطالب جريجوزى أوضح مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة لابرشیات میلان ، وفرمو Fermo ، وأسبلیتو ــ وهی بلدان قریبة كل القرب من مقر البابا ــ وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى فى شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى هنرى، وأمر حامليها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية ينذرون فيها الملك بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس. فلما تلتى هنرى الرسالة عقد مجلساً من الأساقفة الألمان فى ورمز ( ٢٤ يناير سنة ١٠٧٦ ) حضره أربعة وعشرون منهم ، وتختلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس الهم هيو Hugh أحد الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى كرمى البابوية بالرشوة والعنف ، وذكر الأساقفة بأن العادات التي ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمىراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقـــة .. وكان مما شجخ الإمبر اطور على المضي في خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت في سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد في بياسنزا ، وبعث هنري سهذا القرار إلى جريجوري مذيلا سهذه الحاشية المنتقاة : لا من هنري الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبر اند الراهب المزيف لا البابا هرهم . وسلمت الرسالة إلى جريجورى في مجمع مقدس برومة ( ٢١ فيراير سنة ١٩٧٦ ) ٤ وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم ماثة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ؛ وحرم امجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلثاً بحرمان هنرى ، ولعنته ، 🖖 🖖 وخلعه ، وأعنى رعاياه من يمن الطاعة له ( ٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦ ) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يُصبوا على جريجورى « الراهب الحانث » اللعنات من منىر الكنيسة . وروعت أوربا كلها بأن يخلع البابا إمىراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمىراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبن أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلي الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان في ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالا يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان في هذه الظروف فرصة سانحة لهم ﴿ لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا في تريبور Tribur ( ١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦ ) ، ووافقوا على حرمان الإمبر أطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على منفرة من البايا قبل اليوم الثاني والعشرين من شهر فير اير عام ١٠٧٧ فلمهم سيرشمون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبي البايا في

تريبور أن يجتمع مجلس فى أوجز برج فى اليوم الثانى من فير اير عام ١٠٧٧ برياسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .

و الحجا ها من إلى اسبر مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيويد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسل إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتى هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزمع أن يسافر قريباً إلى أو جزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنرى في رومة . وبينا كان البابا في طريقه إلى تلك المدينة استضافته في مانتوا ماتلدا كونتة تسكانيا وصديقته ومويدته ؛ وهنا عرف أن هنرى قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فلجأ إلى قصر ماتلدا الحصين في كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأبنين بالقرب من رجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك في الحامس والعشرين من شهريناير سنة ١٠٧٧ ، وفي يوم من أيام الشتاء الذي بعث به إيطاليا مثيلا له في برودته ، أقبل هنرى ، كما يقول التقرير الذي بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

و بنفسه إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملزً قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرفعنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى في حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة «٩٠٠) .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قررمصالحة هرى دون أن يستشر الأمراء الألمان ، وكان يعرف أنه إذا خرج هرى عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ماكان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التى أيدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحى أن يفهم كيف يأبى خليفة

المسيح أن يعفو عن هذا التاثب الذليل . وكان هـذا الحادث نصراً روحياً بلريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دبد ماسياً بارعاً لهنرى ، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى العامين التاليين في إصدار التشريعات الكنسية التي كانت تهدف قبل كل شيء المامين التاليين في إصدار التشريعات الكنسية التي كانت تهدف قبل كل شيء أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدا أن سياسة هنرى قد أخفقت . أكنه بعد أن تحرر من اللعنة البابوية لتي عطفاً جديداً من الشعب الذي لم يكن شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيه عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية . وظل جريجورى يتذبذب طويلا ، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرم هنرى مرة أخرى ، وحرم على المسيحين أن يخدموه ، تأييده لرودلف وحرم هنرى مرة أخرى ، وحرم على المسيحين أن يخدموه ، وعرض على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياه ( مارس منة ١٠٨٠) (١١) .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى مينز علماً من الأعيان والأساقفة الموالين له ؛ وخلع المجلس جريجورى ، وأيد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ، وقادى بجيبير Guibert كبير أساقفة راڤنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى مكسونيا ( ١٥ اكتوبر سنة ١٠٨٠ ) ، وهزم هنرى ولكن رودلف قتل فى المعركة . وبينا كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بسنان من يختارونه خلفاً قه ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لميارديا دون أن يلتى مقاومة ، وجيش وهو يخترقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى بربرت جسكار د ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجورى قد وافق على فتحه إنجائرا وأبد هذا الفتح ، ولكن وليم لم يكن والقاً من أنه لا بربد أن يفقد هنرى حجته الملكية . وهافع أهل رومة يكن والقاً من أنه لا بربد أن يفقد هنرى حجته الملكية . وهافع أهل رومة عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستلوسانتا أنجيلو Caslello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، وخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجيبر بايا باسم كلمنت الثالث ( ٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ، وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملا .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيز نطية في عام ١٠٨٠ ، والم يكن والقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ١٠٨٠ و ٣٦٠ رجل ، ولم يكن عند هترى جيش يستطيع به ملاقاة هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرب نصفها ، وأخد معه جريجورى إلى مونتى كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جربجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر ، وحرم هرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولمذا فإنى أموت منفياً » : ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غاره قد حطم أعصابه وهد قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى على سالرنو فى الحامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

و بعد فلعله كان متغطرساً فوق ا يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ، وليس من حق الرجل العملى أن يرىما فى مركز عدوه من عدالة ، يل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ، ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اغتدالا من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جربجورى، ولقد تعلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع النابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه . ولقد انتصر في حربه العوان على زواج القسيسين، وهي الحرب التي لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لحلفائه قساوسة لايدينون بالولاء لغبر الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين في المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخرا ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة في الهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية .. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية في العالم المسيحي ، وهو الذي وضع الحطة التي حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات، من الرجال الدين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ، ولم تمض على موت من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ، ولم تمض على موت حريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثاني زعها لأوربا جميعها في ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعارية ، وهو المزيج المولف عندنا باسم الحروب الصليبية .

# البابالثاني والعثرون

الإقطاع والفروسية

14 . . - 4 . .

الفضيل الأول

نشأة الإقطاع

تجمعت فى الستة القرون التى أعقبت موث چستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطىء فى التغير الأساسى الذى حدث فى الحيساة الاقتصادية فى عالم أوربا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف الى أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع. ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأسرمن الموالى ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التى تهدف إلى نكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة فى بلاد الريف قيام الأدبرة التى كان رهبانها يفلحون الأرض ويشتغلون ببعض الصناعات اليدوية ، ولم تعد الطرق صالحة ولاحتفاظ بوسائل المقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدولة بسبب كسادالتجارة واضمح لالصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة و اضطرت قصور الأعيان فى الريف بسبب المقبات القائمة في سبيل التجارة أن تسمى للا كتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات الني كانت تشترى من المدن تصنع فى الضياع الكبرة منذ

القرن الثالث الميلادى. وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس في القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رحبة يفلحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أضحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرستقراطية إقطاعية لها محاكمها الخاصة (۱) وجيوشها ولا يختلفون عن البارونات في العهود المقبلة إلا في قدرتهم على القيادة.

وكانت العوامل التي مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بن القرنين الثالث والسادس هي بعينها التي أقامته بن القرنين الساس والتاسع ؛ ذلك أن الملوك المروقنجين والكارولنجين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات في القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعادت غارات المسلمين ، والشماليين ، والمجر في القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمــانية التي حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلى نظاماً في مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذ كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ في فرنسا ، وانجلترا في عهد النورمان ، وفي أسيانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بن الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت في رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامة . ولم ير الشعب حرجاً في هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكرى يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب، ومن الهجمات التي قد تنقض عليهم في أي وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيع أو الدير الحصين ،

وم يرددوا فى تقديم وبلائهم وخدماهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخليق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهاهم أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطابون إليه فى نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون فى هذه الأحوال أن يقطع « رجلة » مساحة من الأرض يحتفظ بها بعقد يستطيع واهبها أن يلغيه فى أى وقت يشاء ، وقد أضحى هذا التملك المزعزع الصورة المألوفة لامتلاك رقبق الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة فى مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ الماثة عدا في مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه في إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الحاص به إنما حدث في فرنسا . ولعله بدأ في بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدى الفاتحين الأنجليسكسون(٢) ، ولكن معظم خواصه في تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمدية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل في شمالي إيطاليا أو في أسهانيا المسيحية ، ولللك لم يستطع كبار الملاك في الإمر اطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكري والقضائي ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذي بدا في الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوربا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعي : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية في بلاد البلقان ، وشرقي إيطاليا ، وأسهانيا ؛ وأنراع الكروم في غربي ألمانيا ، وجنوبي فرنسا ؛ والزراع الأشداء في السويد والنرويج ؛ وطلائع التيويون فيا وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكريات ،

والألب ، والأينن ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة كأوربا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف في طبيعة أرضها وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادي موحد . وحتى في داخل نظام الإقطاع نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملاك ، والأزمنة المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلي الذي سنصفه فيا بعد ينطبق أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

# الفصل ألماني التنظيم الإقطاعي

#### 1- العبسد

كان المجتمع فى تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورقيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشيء على الإطلاق ، لأى سيد إقطاعي ، ولا يستأجرونها من سيد نظير إيجار نقدى . وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة فى المائة من الزراع بإنجلترا فى القرن الحادى عشر ، وكانوا أكثر من هذا عدداً فى غربى ألمانيا ، وشمالى . الطاليا ، وجنوبى فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع فى أوربا الغربية (٤) .

ونقص عددالعبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ؛ وكان معظم عملهم في إنجلتر افالقرن الثانى عشر مقصوراً على الحدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال شهر اللوار ، وأخد عددهم يزداد في ألمانيا في القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتحرجون أو يوانهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقيرة في الضياع الألمانية ، أو ليبيعوهم البلاد الإسلامية أو البيز نطية . كذلك كان التجار الصقالبة يختطفون المسلمين أو اليونان من الأراضي الممتدة على شواطئ البحر الأسود، وسواحل آسية الغربية ، أو عصياناً ، وافريقية الشمالية ، ليبيعوهم للعمل في الزراعة أو الحدمة المنزلية ، أو عصياناً ، أوسراري ، أو عاهرات في بلاد الإسلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد في إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أن منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان فى وسع التجار أن يختطفوهم منها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد خيل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام. الذي ظل قائمًا من بداية التاريخ المعروف نظام أبدى لاغني عنه . ولسنا ننكر أن البابا جريجورى الأول أعنق اثنين من عبيده ، ونطق في هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعي في الحرية (٦) ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مثات العبيد في الضياع البابوية (٧) ، ويوافق على القوانين التي تحرم على العبيد أن يكونوا قسارسة أو أن يتزوجون من المسيحيات الحرائر (٨) . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ﴾ ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتنقون الدين المسيحي . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً في أراضي الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر (٩) ، وكان القانون الكنسي يقلر ثروة أراضي الكنيسة في بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لإ بقبو ما تساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمني. سواء بسواء ؛ وحرم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم ٤. وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفاتهم من مال مدخر يؤول إلى الكنيسة(١٠) ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة في عام ١١٤٩ بعسبيده المسلمين إلى أسقف بيزيير Béziers) : وكان القديس تومس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم (١٢). وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة في الكنيسة والتي تنص على أن أملاكها لا يمكن. النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة في السوق(١٣) ، كانت هذه القاعدة شراً على.

حبيدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء في بعض الأحيان أصعب في أملاك الكنيسة منه في أملاك غيرها(١٤) . غير أن الكنيسة مع هذا خطت خطوات متزايدة في تقييد تجارة الرقبق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحين في الوقت الذي كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذي يؤدي إليه القسر الجسماني المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذي يكون الحافز عليه هو الرغبة في التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة Servus اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة serf لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة villein الزمن واستحال إلى كلمة serf لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة تطور مع ومعناها رقيق الأرض فأصبحت villain ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة Slave أي العبد . ولقد كان يرقيق الأرض لا العبد هو الذي يصنع الحبر لعالم العصور الوسطى .

# ٢ ـ ِرقيق الأرض

الأصل في رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يؤجرها له طول حياته ويبسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدى له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال. وكان في وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء (١٥٠) ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه . وكان من حق هذا المالك في فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلا عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالي ٤٠٠؟ أن يبيع الرقيق مستقلا عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالي ٤٠٠؟ جزءاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ؛ وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يجزءاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ؛ وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يجزءاً بعضه للإقطاعي إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ؛ أما في يجانبرا فقد حرم من هذا الحق — حق مغادرة الأرض — وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض في العصور الوسطى يعاد القبض عايهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد في هذه الأيام .

وكانت الواجبات الإقطاعية التي يؤديها رقبق الأرض لمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك في أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء . (١) كان يؤدى في العام ثلاث ضرائب نقدية . (١) فرضة (ضريبة الرؤوس) وهي ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق المسالك (ب) وإيجاراً قليلا (ج) ونفقة يقررها المالك كما يهوى وتؤدى إليه مرة أو أكثر من مرة في العام (٢) وكان يؤدي للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيته ، تبلغ عادة عشرها . (٣) وكان عليه أن يعمل عند للالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ؛ وكان هذا النوع من الواجبات ميراناً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حن كان الفلاحون عجتمعين يودون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجبًا عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع في معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع في موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤدون عنها إلا وجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور فى كل أسرة (٤) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخنز خيزه ، ويصنع جعته ، ويعصر عنبه في مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خابيته ، أو معصرته ، وأن يؤدى له فى نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلا (٥) وكان يؤدى أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البرى ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف في أراضي المالك (٦) وكان عليه أن ` يرفع قضاياه أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدى في نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية ٧١) وكان عليه أن يلبي دعوة المالكُ في الانضام '

إلى فبلقه إذا نشبت الحرب ( ٨ ) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشة ك أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك فى تقديم الهدايا القيمة المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدى للمالك. ضريبة عن كل ما يحمله من الغلات ليبيعه في السوق أو المعرض (١١) ولم يكن من حقه أن يبيع جعته أوخمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع فيهما هو جعته وخمره (١٢) وكان عليه في كثير من الأحيان أن يبتاع قدرآ معيناً من خر سيده كل عام ؛ فإذا لم يبتعها في الوقت المناسب (كما تقول إحدى مواد قانون الضيعة ) ﴿ صب المالك قدراً من الحمر يعادل أربعة جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الحمر إلى أسفل كان على الرقيق أن يؤدى ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شيء ما »(١٦) . (١٣) وكان عليه أن يؤدى غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابناً له ليتعلم تعليما عالياً أووهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٤) وكان يؤدى ضريبة ، ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة أو يخسرهم كلهم ، وكان لا بد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة فى بعض المزارع فى كل زواج أياً كان (١٥) ونستمع فى حالات فردية عن « حق الليلة الأولى » أى حق السيد فى أن يقضى مع عروس رقيق الأرض الليلة الأولى من زواجها ، واكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفتدى » عروسه بأجريؤديه للسيد(١٨٠) ؛ وقد بتى حتى الليلة الأولى بصورته هذه في باڤاريا حتى القرن الثامن عشر (١٩) . وكان المالك في بعض الضياع الإنجلمزية يفرض غرامة على الفلاح الذي تأثم ابنته ؛ وفي بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة الفلاح التي يحكم عايها في جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب الأرض(٢٠)( ١٦) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة في أن ترث من لاوارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبقى الأرض إلا إذا تزوجت رجلا يقيم فى الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى فى صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولقس الأسقفية في بعض الجالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه (٢١). ولم تكن رسوم الوفاة تحصل فى فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه فى بيته . (١٧) وكان عليه فى بعض الضياع وبخاصة فى ضياع الكنيسة أن يودى ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذى ينظم وسائل المدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس في وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداوها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهي رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت في ألمانيا في خلال العصور الوسطى بثلثي محصولاته (٢١) ؛ وكانت قوة العادة ، التي هي ذات السلطان الأكبر في الأنظمة الزراعية ، في صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التي يوديها نقداً وعيناً تنزع إلى الثبات كما هي على مر القرون (٢٢٠) رغم ازدياد غلة الأرض وانحفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التي تثقل كاهل الرقبق في العصور الوسطى يخففها أو يلغها تسامح الملاك ، أو المقاومة به رقيق الأرض في العصور الوسطى من يوس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء به رقيق الأرض في العصور الوسطى من يوس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء به رقيق الأرض في العصور الوسطى من يوس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التي تنتزع منه يديلا من الإيجار النقدى الواجب أداؤه المالك ، وضرائب تودي للمجتمع لتمكنه من أداء الخدمات والأعمال المعامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التي نوديها غين في هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة (١٠٠٤). \* وقور النامن عشر مماثلة والمدرسة (١٠٠٤). \* والقد كانت حال الفلاح المتوسط في القرن الثامن عشر مماثلة والمدرسة (١٠٠٤). \* والمدرسة (١٠٠٤). \* والمدرسة (١٠٠٤). \* والمدرسة (١٠٤). \* والمدرسة (١٠٠٤). \* والمدرسة (١٠٤). \* وال

<sup>(</sup> ه ) يشير الكانب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأدريكية . ( المترجم ) . ( ۲۷ – ج ۳ – مجلد ٤ )

لحال بعض الزراع الذين يقتسمون مع الملاك غلة الأرض التي يزرعونها في الدول الحالية ، وكانت بلاشك خبراً من حال صعاليك الرومان في عهد أغسطس (٢٥). ذلك أن المالك في ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلا ، بل كان يعمل بجد في المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب في كثير من الأحيان ؛ وكانوا إذا ترمل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، فتسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة (٢٦) . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية في التاريخ ، ما لا بد له أن يكون الواجهة مستلزمات المكان والزبمان وفطرة الناس ،

وكان كوخ الفلاح يقام من الحشب الهش الرقيق ، ويسقيف عادة بالقش والعشب المتلد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ، ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت في أحد هذه الأكواخ أتت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ في كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الحشب ، وتنور ، ووعاء للعجين ، ومتضدة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنيسة ، ومجمرة ، ومرجل ، وحمالة لتعليق وصوان ، وصحاف ، وآنيسة ، وعجمرة ، ومرجل ، وحمالة لتعليق الأوعية ، وحشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسوطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأيناوهما ، وطارق الليل من الضيوف الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأيناوهما . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، وكدن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون في تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا والكن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون في تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأقاصيص أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض في الحجم لأنه لا يطيق رائحتهم (٢٧): وكان بالقرب من الدار فضاء مسور للحصان والأبقار ، وقد يكون فيه أحيانا خلايا للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات.

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله .

وكان الفلاح يرتدى قيصاً نصفياً من القاش أو جلد الحيوان ، وسترة من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحداء نصفاً أو عالياً ، وما من شك فى أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا فى هذه الآيام . وليس من حقنا أن نصوره فى صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كامنة مهما كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ، ملما وأذ كان لهولاء الأبناء قيمة اقتصادية فى المزرعة فقد كانت تكثر منهن ، وكننا مع هذا نقراً فى أقوال بلاجيوس الفرنسيسي (حوالى ١٣٣٠) أن لكننا مع هذا نقراً فى أقوال بلاجيوس الفرنسيسي (حوالى ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يعض الفلاحين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا «٢٨)

وكان طعام الفلاح كافياً مغذياً ... يتألف من منتجات اللهن ، والبيض ، والحضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المنظرفين يرثون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود ... أى المصنوع من الدقبق غير المنخول (٢٩) . وكان يشترك في حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متع ثقافية ؛ فلم يكن يعرف القراءة ، لأن في وجود رقيق الأرض التي يعرفها إساءة إلى سيده الأمى . وكان يجهل كل شيء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارءاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب ، وقد اضطرته أحوال أوربا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفي الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شرهاً ، ولحوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الحرافات أكثر مما كَان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاجيوس بأنه كان يخدع الكنيسة فلا يؤدى إليها عشورها ، وجمل في مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ؛ ويشكو جوتييه ده كوانسي Gautier de Coincy (في القرن الثالث عشر ) من أن رقيق الأرض « ليس في قلبه من خشية الله أكثر مما في قلب الشاة وِلا يأبه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة »(٣٠) . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجة ، ولكنه كان فى حقله وفى بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضيع جهوده فى الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته واقعى النزعة ، يدرك تصاريف الأقدار التي لاهوادة فها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لاريب فيه ، فقد كان جدب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعا . وقلد حدث بن عامى ٩٧٠و ١١٠٠ ستون فحطاً حصدت الأهلمن زرافات غی فرنسا ، ولم یکن فی وسع أی فلاح بریطانی أن ینسی ما حدث من القحط في عامى ١٠٨٦و١١٥ في انجلترا المرحة الطروب ؛ وقد روع أسقف ترييه في القرن الثاني عشر حين رأى الفلاحين يذبحون جواده ويأكلون لحمه (٣١) . ثم زاد الفيضان والوباء والزلزال الطين بلة وأحالت المسلاة- آخر الأمر مأساة .

## ٣ - مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يتراوح عددهم بين خمسين وخسائة يتألفون من أرقاء الأرض، ونصف الأحرار ، والأحرار ، يبنون قريبهم حول قصر السيد الإقطاعى في الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن في قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضيعة واحدة أو أكثر من ضيعة ، وكان السيد المالك هو الذي يعين الكثرة الغالبة من موظفها ، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أورثيساً يتوسط بينهم وبن المالك وينسق نشاطهم الزراعى، وكانوا يجتمعون في السوق في فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل, هو البقية الباقية من التجارة في هذه الضيعة المكنفية بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريقي ينتج بنفسه ما يلزمه من الحضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يجتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابغ الجلود يصنع الأثباث ، وصانع العربات البضائم الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات السروج ، والخداوون ، والصباغون ، والبناءون ، وصانعو السروج ، والحذاوون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون في الدرية أو يأتون إلها ليقيموا فها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته في إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعي قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة في فرنسا وإنجلترا في القرن الحادي عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان إنجابزي أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظقو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع في كل حقل ويحتمون غليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهلون مجتمعين زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهلون مجتمعين وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو غير المتساوية الحصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية غير المتساوية الحصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية عدائية لا تزال آثار قليلة منها باقية في هذه الأيام . وكان من حق عدائية لا تزال آثار قليلة منها باقية في هذه الأيام . وكان من حق على فلاح يؤدي ما عليه من الواجبات الإقطاعية بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكلأ الجاف من. غابات الضيعة ، وأرض الكلأ المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكنى من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الززاعة فى البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان في عهد كولمبلا Columbella أو عند المسلمين في بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق في الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ؛ وكان يتخذ من الطين الغضار (\*) أو غيره من التراب والجير نوع من السهاد. البسيط ، فلم يكن يوجد في ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النُقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون Rouen يلتى أقذار اسطبلاته فى نهر السن بدل أن. ينقلها إلى حقوله القريبة منها في دڤيل Deville ، وكان الفلاحون يشتركون فى جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونهما جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؟ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان في إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفعاً إذا اتخذ طعاما . واكن صانعي السروج اخترعوا حوالي عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذي يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يختنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق في عنق الحصان أمكنه أن يحرث في اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحرثه الثور أو أربعة أمثاله . وإذ كانت سرعة الحرث مهمة في الحواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان في القرن الحادى عشر يحل محل الثور ويفقد ما كان له من منزلة عالية جعلت الناس يختفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب (٣٢) . و دخلت السواق أوربا الغربية ` أواخر القرن الحادي عشر، وكانت مستخدمة قبل ذلك يزمن طويل في بلاد الشرق الإسلامية (٣٣).

<sup>(</sup>ه) المسارل ويسمى أيضاً بالثمن وهو نوع من الطين الخزفى غنى بكربوفات الكلسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة نخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التي كان « العمل الوضيع » فها يعد إثماً من الآثام . وفي ذلك يقول الفلاخون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهي لذلك تأبي أن تعمل في ذلك اليوم »(٣٤) . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة في ذلك اليوم يغني ويرقص ، وينسى فى ضحكه الريني العالى أعباء الوعظ والمزرعة الثقال . وكانت الجعة رخيصة الثمن ، وكان الحديث حرآ طليقاً بذيثاً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبة التي تروى عن القديسين . وكانت أبعاب عنيفة ككرة القدم ، والهوكي ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيرى الحدوث ، وكان تحمس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبا العينين ، مسلحان بالعصني الغليظة أن يقتلا إوزة أوخنزيرا داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاخون في بعض الليالي يتزاورون ، ويلعبون ألعابًا داخل البيوت ، ويحتسون الحمر ، وكانوا في العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضاءة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية النمن . وكانت الأسرة إذا حل الشتاء بليله الطويل تأوى الماشية في الكوخ وترحب مها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذاكان الفلاحون في أوربا يطعمون أنفسهم ، وسادتهم ، وجنودهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدحهم المتواصل وبسالتهمالصامتة ، لا بما تبعثه في نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يجففون المناقع ، ويقيمون الحسور والحواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويطهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، ويكسبون المعركة القائمة بين الغابة و الإنسان . وإن أوربا الحديثة لمن خلقهم وصنع أيديهم ؛ ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السياج الأنيقة ، والحقول المنظنة ، لا نستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والمحن الشداد التي دامت عدة قرون ، والتي حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتي سخرت المواد الغفل التي تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات فى تلك الحرب العوان ، فقد كان خصبهن وصبر هن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتا ما ، ولم يكونوا فى حربم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية فى الفقار ، وأنشأوا من الفوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى فى البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها رفرف علم الحضارة على ربوع أوربا فى نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها فى بداية تلك العصور أرضين غير منزرعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد مقفرة ، وأنبل نصر ، وأعظم عمل تم فى عصر الإيمان .

#### ٤ - المالك

فى كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أو لئك اللذين لا يستطيعونها إلا على الجاد . وكان المسيطر على الرجال فى أوربا الإقطاعية هو السيد المالك ـ وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur ، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإنجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيه وسكانها ؛ وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة فى تلك الأراضى ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه فى الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى و تمزق لطول عهده بالهجرة ، الغارات ، والنهب ، والحروب ـ لم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى و تمزق لطول عهده بالهجرة ،

إلا باستقلاله المحلى وكفاية موارده من الطعام والجنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفلح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعى .

وكان المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذي يتمثل فيها على رقيق الأرض أو التابع من النز امات اقتصادية وعسكرية لسيده ، وفيها على هذا السيد من واجبات مثلها لسيده الأعلى ، وفيها على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيا على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزى أرقاءه على خدمتهم إياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقوله ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التي تتطلب جهودهم العضلية قدرآ قليلا من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى عل مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة — بل كان يعني به عادة ويقدم له المعونة(٢٥٠) . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء في أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل|لمحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التي يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدى العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشترى به حاجاتها . وكان يأتى إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربمها ، ويسمح لأرقائه أن يلقحوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله في بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن يخش عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماح وحشيته ، وكانت له في أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ، وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التى تفرضها محاكم الضيعة ؛ ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الحدمات نظير ما يقدمه من المال \_ يتبين لنا من تهافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان في مقدور كل رقيق يجد في نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه في محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجدون في أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التي قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان في وسع السيد الإقطاعي أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين فى هذه الحالة وكيلا له يشرف على أملاكه أى على ضياعه كلها ، وكان له فى كل منها تاظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها في مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين فى كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعي يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الروماني الريق المحصن أو إلى حصن الزعم الألماني (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ؛ وكانت الأثربة الناتجة من حفره والتي تلتى في الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه تُحمد مربعة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلي يؤدى إلى باب حديدي كبير أو باب آخر شبكي قبله ، يحمى مدخلا ضخماً في سور الحصن . وكان في داخل هذا السور اسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ومخبز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيتهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور. ويقوم فى وسطه البرج أو بيت المالك ؛ وهو فى معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الحشب أيضاً ؛ ولكنه قبل أن يستهل القرن الثانى عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلا دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذى قبل. وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجباً ، ومن فوقه يسكن المالك. وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدر انها الحجرية المنبعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك.

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ، قليل النوافذ صغيرها ، وقلما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أوالورق الملون ، أو المصاريع الخشبية ، أو شبابيك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم في الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك في معظم. الأحوال إلا حجرة واحدة في كل طابق من أطباقه الثلاثة ؛ وكانت السلالم أو الأبواب التي في السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان في الطابق الثاني البهو الرئيسي ، الذي تعقد فيه محكمة المالك والذي يستخدم فضلا عن ذلك مطعماً ، وحجرة لجلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون في إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول علمها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد في ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الحشيات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب في الممرات. وكان أهل الدار كلهم ينامون في هذه الحجرة الوحيدة تحجبهم حواجز بعضهم عن بعض. وكُوانت الحجرات تطلى بالحير أو بالألوان الزيتية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكانمن المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهواثية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بألواح القرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ؛ وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .. وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ؛ وكان الدخان . يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمسة » يستطيع السيد وأسرته وضيفه أن يستريحوا فها ويستمتعوا بأشعة الشمس . وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه في الحجرات ، فقد كان في هذه . المشمسة بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطى الكتفين وغير مشدودة يستطاع رفعها فوق الرأس ؛ وسروالا تحتياً (لباساً) قصيراً من فوقه سروال آخر (بنطلون) قصير أيضاً ؛ وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ، وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان يتأرجح من منطقته جراب وسيف ، وتتدلى عادة من عنقه مدلاة على شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوى الخوذ والدروع أحدهم عن الآخر في الحرب الصايبية الأولى (١٦٠٠) ، أخذوا عن المسلمين عادة (٢٩٠٥) تمييز أرديهم ، وحلهم ، وألويتهم ، ودروعهم ، وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حربية ، ومن ثم أنشأت الفروسية ولم يكن المالكوغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستيقظ في مطلع الفجر ، ويصعد إلى برجه ايتين هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ، في مطلع الفجر ، ويصعد إلى برجه ايتين هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

<sup>( \* )</sup> وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود : والبنفسجى ، على هذا الترتيب نفسه ، باللهبى ، والفضى ، والساوى ، والوردى ، والوردى ، والنباق ، والرملى ، والأرجوانى . وكان الأزرق الساوى لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أسمائه « ما وراء البحر » . وكان الصليبيون بزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة بن الفرو — تصبغ عادة باللون وهو gules مشتق تصبغ عادة باللون وهو gules مشتق من لفظ جولا اللاتيني ومعناه حلق ) . وكانت الأديرة ، والبلدان ، والأم ، تستخدم هذه الرموز في القرن الثالث عشر كها تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضبع عادة فوق رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل: طاهر السريرة ؛ لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ ..

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة في الكنيسة ، ثم « يتغدى » في الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئد على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه في بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الحدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابرى السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته في الساعة الحامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه في الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير في بعض الآيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلة إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملا . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربيهم ، وكانت توجه الحدم الكثيرين ، وتلكمهم أحياناً ، وتلاحظ المخبر ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والجبن ، وعصر الجعة ، وتمليح اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل فى تلك الصناعات المنزلية. الكبرى صناعات الخياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التي تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هي بشئون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمده بحاجاته المالية فى أثناء حروبه ؛ فإذا وقع فى الأسركان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كد رقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد تؤول إليها سيادة الضيعة . فتصبح هي سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تنزوج مرة أخرى بعد زمن قليل. لَـ بِيُّ للضبيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الحدمة أو الحاية العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبن القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان في مقدورها أن تصبح في داخل قصرها مسترجلة أو ` صخابة ،وتبادل زوجها لطمة بلطمة : وكانت في ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحتذى حذاءين لطيفين ، وتغطى رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلى المتلألثة فتصبح بذلك كله قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب في قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعلما يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن في كثير من الحالات يبذل أي مجهود في سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تتركان للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يختقرون المعارف العقلية ، فقد تعلم چسكلين Guesclin مثلا ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجو بقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ؛ ولم يحتفظ ٱلأشراف بتقاليدهم الأدبية إلا في إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل · السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً في بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه المثاقفة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلى إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب. وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعنىن بشئون الضيوف ، والفارس حن يعود من الحرب أو البرجاس ؛ فكن يحللن دروعه ، ويحضرن حمَّامه ، ويأتن له بالثياب التحتية والفوقية ، والعطور ، ويخدمنه وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن. القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطّعين أو الأتباع . فأما المُقطّع فكان رجلا ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة — وهي في العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفي هذه الحال يكون المقطع حق الانتفاع بالربع ، أما الملكية فتبتى الشريف . وكان الرجل الذي يمنعه كرباؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن بعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدي مراسم « الولاء » لشريف إقطاعي : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه في يدى الشريف ، ويعلن أنه «رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلا حراً) ، ثم يقسم على بعض المخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حربة ، أو قفازاً . ويصبح وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية (\*\*)، السيد من ذلك الحين ملزماً بحاية المقطع ، وصداقته ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ؛ وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين في المعصور الوسطى ، ألا يهن هذا المقطع ، أو يغوى النته أو زوجته (٢٩) ، فإذا المعصور الوسطى ، ألا يهن هذا المقطع ، أو يغوى النته أو زوجته (٢٩) ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلتي القفاز » علامة على التحدى ، أي أنه أصبح غارجاً عن الولاء له — ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته :

وقد يُقطع المقطع «من باطنه» جزءاً من الأرض إلى مقطع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هي نفس العلاقة والتبعات التي بين المقطع الأصيل والسيد . وكان في وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط »وخدمات محدوده ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل» وخدمة كاملة في السلم والحزب . وقد يكون السيد نفسه مهماعظم شأنه ، مقطعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكا أو إقطاعية ، وقد يكون مقطعاً من قبل السادة كلهم مقطعاً — أي مالكا لإقطاعية — من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

 <sup>(</sup>ه) وهي بالإنجليزية fief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة fendum اللاتينية ، وهذه مأخوذة عن كلمة fendum الألمانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهي ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، و لقد أصبح لها مثلها معني ثانوياً وهو البضائع أو النقود .

مقطعين من الملك . ولم ثكن الرابطة الأولى فى هذه الصلات المعقدة هى الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هى الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الحدمة العسكرية والولاء الشخصى ، أو يدين نهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الرجهة النظرية نظاماً عظيا تتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحاية ، والإخلاص .

### ٥ \_ الكنيسة الإقطاعية

وكان مالك الضيعة في بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ؟ وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائيس تنال حظها من أموال العشور التي تجيى من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة. كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوى وتلك الأموال في حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبة من الإيرادات الإقطاعية . وتراكمت. هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي ، وأكبر السادة الإقطاعيين في أوربا ؛ فقد كان دير فلدا مثلا يمتلك ٢٠٠٠ قصر صغير من قصور الريف ، وكان ديرسانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض(نه)؛ وكان ألكوين في تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض(١١). وكان الملك هو الذي يعمن روَّساء الأساقفة ، وروَّساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملأك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرهما من الألةاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصــة بالحدمة العسكرية والإشراف الزراعي . وكان الأساقفة وروساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحراب من المناظر المألوفة قى ألمانيا وفرنسا . وكان رتشرد أمير كورنوول فى عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه خلاو إنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية » (٤٢٠) و هكذا أضحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعى ، فألفت نفسها منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحربية لا منظمة دينية وكنى . وكانت أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتراماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

#### ٢ - الملك

وكما كانت الكنيسة في القرن الثاني عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة حينية غرضها تبادل الحماية ، والحدمات ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمني الإقطاعي يتطلب لكي يبلغ تمامه رئيساً أعلى لحميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع السادة الزمنيين ، أي أنه كان في حاجة إلى ملك . وكان الملك من الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهي ، بمعنى أن الله أجاز له أن . يحكيم ، ومن ثم فوضه في أنْ يحكيم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالا من أمثال شارلمان ، وأتو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ، ولويس التاسع ، وفردريك الثاني ، ولويس الجميل ، وسعوا سلطانهم الموروث بقوة الخُنلق أو السلاح ؛ ولكن ملوك أوربا الإقطاعية لم يكونوا عادة حكاما لشعومهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقيال التابعين لهم ؟ ختمد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً في أملاكهم الإقطاعية أو ضياعهم ؛ أما في غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع ( ۲۸ - ج ۲ - ۲۸ )

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للمالك الذى يحميه ، وقلها كان يدين بهذا الولاء للمك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة في أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة في النظام الإقطاعي لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفتيت في الحكم إلى أبعد حد في غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبر اطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجات هؤلاء الأقوام عنفاً : ولم يكن الملك في هذا النظام الإقطاعي الكامل إلا « صاحب المقام الأول بن أنداد » ؛ لايعلو عمن يحملون لقب الأمبر ، والدوق ، والمركنز ، والكونت إلا قليلا ، ولكنه كان من الناحية العملية شبهاً « بأشراف الدولة هوالاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ربع أراضيه ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى. ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد في الحرب والسلم على المعونة العسكرية أو الحدمة الدباوماسية التي يوديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الائتمار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى مُنح الضيعة في إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزيهم على هذه المعونة ، حتى كان ما بقى من الأرض لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملاك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ؛ ولما أن أورث هولاء الملاك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنعهم من فعله ، ولم يكن في وسعه أن يتدخل في اختصاصات أتباعه القضائية في أملاكهم إلا في قضايا الإعدام التي تستأنف له ، ولم يكن من . حقه أن يرسل موظفيه أو جباته إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية بمتلك جميع أراضى الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا مالكاً من كبار الملاك ، ولم يكن حما أكبرهم ، ولم تكن أملاكه فى يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سببًا في نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيا بيهم أو إقامة الحبكومة الموحدة التي يتطلبها النظام الاقتصادي التجاري ، كان هذا العجز سبباً في إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك. وكان تحمس الأشراف في المنازعات الحربية في أوربا الإقطاعية بلتي بهم في غمار الحروب الحاصة والعامة حتى امتصت دماءهم-الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام الماثة ، وحروب الوردتين ، والحزوب الدينية التي اختتمت بها هذه الجروب ، ومنهم من افتقروا وخرجوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق. ينهبون ويقتلون كما يشاءون ؛ وتطلبت المساوئ التي نشأت من الإفراط في الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام في جميع أنحاء المملكة ؛ وأوجدت التجارة والصناعة في خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية منز ايدة العدد ؟ ولم يكن التجار راضن عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحل حكومة مركزية محل القوانين الحاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة في النماء فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاحه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ﴾ وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتظلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال . الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يجدون أن اتصالم بالملك أيسر من إتصالم بالأشر اف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنعهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث ينهم وبن الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تويدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ؛ وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابنا أو أخاً له قبل وفاته ، وارتضى الناس هذه الملكية الوراثية بديلا من فوضى الإقطاع ؛ كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزياده عدده ؛ وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما في القانون الروماني الذي عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ؛ فلم يحل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حتى المال في أن يبسط سلطانه القضائي على كل من في مملكته ، وحتى كان حتى المالين في أن يبسط سلطانه القضائي على كل من في مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون يمن الولاء لمليكهم لا لسيدهم الإقطاعي . ومهذا كان خيم الغلب الحميل في آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع المابوية نفسها ، لسلطانه .

وخفف ملوك فرنسا على أشراف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاياً وامتيازات فى بلاطهم تعوضهم عن حقهم الحاص فى سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ؛ فكان كبار أتباعه يوافون ماشية الحلك Curia regis ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها فى مجالس الملك، وحول مائدته، وفى غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم برسلون إلى قصر الملك ليخدموه أوليخدمو الملكة بأن يكونو اخدما خصوصيين أو وصيفات، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هى حفلة تتويج ملك فرنسا في ريمس أو إمبراطور ألمانيا فى آخن أو فرانكفورت ، فنى هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون فى أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبة ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما فى شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر المجد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا عد خارجاً صراحة على الدين ، وأقبل الملاك الإقظاعيون على بلاط الملك الذى أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً إلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوربا بعد ذلك الوقت .

## الفصل لثالث

### شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع في الغالب شيئاً واحداً في نظام الحكم الإقطاعي. حيثكان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدنى عادة أمين. فإذا ما اارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة في هذه المشكلة أيام شباهم، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسي للقوانين. نعم إنه كان في مقلور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجيزه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جهرة أوصمتاً (١٤). وكان لفرنسا الجنوبية قانون مكتوب ورثته عن الرومان، أما فرنسا الشهالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغلا منه في الجنوب، فقد احتفظت في الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً في القرن الثالث عشر، أضحي تغييرها، الذي كان من قبل صعباً، أيضاً في القرن الثالث عشر، أضحي تغييرها، الذي كان من قبل صعباً، أشد صعوبة مما كان، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة.

و قان قانون الملكية الإقطاعي قانونا فذا معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرطما . (٢) الالتزام وهومنح غلة الأرض لا ملكيها لتابع إقطاعي بشرط أداء الحدمة المفروضة على الشريف و (٣) الإيجار و هوالذي تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هوالذي يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسمى الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعي للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث في أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها (١٤٠) . وكانت العادة المألوفة أن تؤول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التي لم تكن معروفة في القانون الرومانى أو قوانين الأمم المتبربرة أصبحت موائمة لظروف النظام الإقطاعي ، لأنها تضع شئون الحاية العسكرية والإشراف الاقتصادى في يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنضج أبناء الأسرة عقلا . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتملك ضياع أخرى في أراضي غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعي ، رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للماكمية وقسوة في عقاب من يعتدون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التي تمسك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنتزع أمعاؤه ، وتلف حول القطع الذي أحدثه ، ؛ وكان في وستفاليا قانون ظل معمولاً به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن في الأرض إلى ما نحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرثوا أرضاً يحرثون رأسه ، « وللرجل الدفين أن ينقذ نفسه بخبر وسيلة يستطيعها »(٢٦) .

وكانت الإجراءات القضائية في القانون الإقطاعي تتبع في الأعلب الأعم قوانين البلاد الهمجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالثار الفردى . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، «ومدن الالتجاء» تمنح حق الأماكن الحرم ؛ وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون في الأمر . وكانت عاكم الضياع تنظر القضايا التي تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ؛ أما المنازعات التي تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا فى المنزلة عن الشاكى نفسه (٤٧) ، وأن يكونوا تانعين للإقطاعية نفسها ، وممن بجلسون معه فى بهو إقطاعى واحد . وكانت محاكم الأسقفيات أو الأديرة تنظر فى قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المؤلفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يحبسان حتى يصدر الحكم فى قضيتهما . وكان المدعى الذى يخسر القضية المرفوعة أيا كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التي توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت المرشوة شائعة فى جميع الحاكم (٤٨) .

وظل التحكيم الإلهى معمولا به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث في عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمى على بعض الحارجين على الدين في كبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التي يشد إليها من بحرقون ، ولكن أحدهم أعنى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيت يده من فوره ، ولم يبق فها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة في خلال القرن الثاني عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الروماني ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهى » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع في عام ١٢١٦ بإلغاء هذا الزوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنرى الثالث هذا الإلغاء في القانون الإنجليزي (١٢١٩) ، كما أدخله فر دريك الثاني في قانون نابلي في القانون الإنجليزي (١٢٩٩) ، كما أدخله فر دريك الثاني في قانون نابلي القرن الرابع عشر ؛ وقاسي سفيرولا Savonaroia التحكيم الإلهي بالنار عام القرن الرابع عشر ؛ وقاسي سفيرولا Savonaroia التحكيم الإلهي بالنار عام القرن السادس عشر ١٩٠٥)

وشجع نظام الإقطاع السنَّة الألمانية القديمة ، سنةالمحاكمة بالاقتتال ، وكانت هذه السنّة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلا من الثأر الفردى من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنَّة إلى بريطانيا بعد أن أهملت في عهد الأنجليسكسون ، ثم ظلت ثابتة في سجل القانون الإنجليزي حتى القرن التاسع عشر (٠٠٠). ومما يذكر في هذا الصدد أن فارساً يدعي هرمان Hermann اتهم فارساً آخر يدعى جاى Quy بالاشتر اك في اغتيال تشارلس الصالح Quy ملك فلاندرز؛ فلما أنكر جاى التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده وخسر سلاحه ، فانتقلا من المبارزة إلىالمصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة النَّهمة بانتزاع خصيتي جاى من جسمه ، ويموت جاى بتأثير هذا الانتزاع (٥١) . ولعل الإقطاعيين قد استحوا من هذه العادات الهمجية ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تتراكم على مدى الأجيال ؛ فكان يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال إذا أثبت أنه كان في غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرقيق أرض أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سلما ، أو ابن غير شرعى أن يبارز ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصح لشخص أن يبارز إلا شخصاً مساوياً له في مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة خَق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ، والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن أن يختاروا « أبطالا » ــ أى مبارزين بارعين ــ ينوبون عنهم في المبارزة . والملك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال مأجورين بحلون محل الذكور المبارزين وإن كاتوا صحيحي الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضي في الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها مهذا القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والنزاع القائم حول وراثة يعض الضياع ، ليفصل فها أبطال مبارزون<sup>(٥٢)</sup> ، وكذلك بحأ ألفنسو العاشر ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الروماني في

مملكته (۱۵۳ وكانت السفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسي يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون في الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ، وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضي ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه في العصور الوسطى أن يلتى قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعداده للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهي في تاجه (١٥٥) .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاقتتال ، ولهذا حرمته الطبقات الوسطى الناشئة في التشريعات العامة ، واستبدلت به في القرن الثالث عشر القانون الروماني في أوربا الجنوبية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فر دريك الثاني من أملاكه في نابلي ؛ وألغاه لويس التاسع في الأقاليم الحاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ؛ وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) في جميع أنحاء فرنسا . هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاقتتال القضائي بقدر ما تستمده من حتى الناس القديم في أن ينأزوا لأنفسهم ممن عتدون علمهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يحصى لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمذنيين ، ولكن السجن كان في حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان في حجراته من حشرات ، وجرذان ، وأفاع (٥٥٠) ، وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالحناك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجاهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرجم بالحجارة ، وكان كرسي الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرثارين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسي يربط برافعة طويلة ثم يغرق بهم الكرسي في مجرى مائي أو بركة . وكان الأشداء من المذنبين يحكم عليهم أحياناً بالعمل في السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا ينالون إلا القليل من الطعام الذي لا يغني من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التجذيف فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالسوط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً ـــ يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث في الأيمان والتجديف يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد المحمى: وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت اليدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من الوسائلِ التي لجأ إليها وليم الفاتح لمكافحة الجرائم ٥ ألا يقتل إنسان أو يشنق لجريمة ارتكها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يداه ، وقدماه ، وخصيتاه ، حتى إذا ما بتى شيء من جسمه كان ذلك الشيء الباقى دليلا على جميع جرائمه وجوره a (٥٦) . وقلها كان التعذيب من العقوبات المعمول مها فى العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود فى القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقة يعاقب علمهما أحياناً بالنفى، . وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة(٥٧) . ويمكن عقاب الحيوان الذي يقتل آدميا بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجراتم بنفس العقوبات التى توقعها الحجاكم المدنية ؛ من ذلك أن محكمة دير سانت چنڤييڤ St. Geneviève حكمتِ بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لهن على السرقة(٥٨) : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون في العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعديب هي التي يفرضها الأشراف على القتلة بل كانت هي التي يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

# الفصل لرابع

### الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكريا لمجتمع زراعي عير مطمين على نفسه ؛ وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان ينتظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدربوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا فى كل لحظة من اللحظات مستعدين لئرك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعي وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طيقة فوق طبقة حسب درجات. الشرف والمنزلة ؛ فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورثيس الدير ، هم روُساء· الفرق ، وكان الفرسان nights؛ أو Chevaliers هم راكبي الخيل ، وكان الأثباع هم خدم البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms ــ الجيشُ المرابط في المقاطعات أو القرى ــ يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعي ، كما نراه في الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets ينبعون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعلون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويرْيحون المعذبين ممن يسقطون في حومة الوغى ، والحرحي من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيهم الغليظة (٥٩) . ولكن الجيش الإقطاعي كان في جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا يعد معركة هدريانوبل ( ٣٧٨ ) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا في القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد الفروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء Cavalier ، Chevalier ، Caballero ، Chivalry ، Cavalry الأخرى مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب في عهد الإقطاع يستخدم الحربة ، والسيف ، والنوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت سيفه ، وأطلق عليه اسما ينم على إعزازه وحبه ، وإن كان مما لا شك فيه أن الشعراء القصاصين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم « المبتهجة » Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد تكون قوسا بسيطة قصبرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوساً طويلة تشد نحو العنن والأذُّن ، وقد تكون قوساً متقاطعة يشد وترها في محز بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زند في إطلاقها ، وتنطلق منها قديفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ، أما القوس الطويلة فكان أول من اشهر باستعالها إدورد الأول ( ١٢٧٢ --١٣٠٧ ) في حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب المسكرى في انجلتراكم كانت من أهم العناصر في ألعاب الفروسية , وكان تطور القوس وإتقائها بداية تدهور النظام الإقطاعي من الناحية العسكرية ، ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التي لا تتفق وطبيعته . ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع في القرن الرابع عشر بعد اختراع البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من مساحة لا سلطان للفارس علما لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعي جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يثقل نفسه بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة في القرن الثاني عشر يغطي جسمه بالزرد من عنقه إلى ركبتيه ـ تستره شبكة ذات أكمام للراعيه ، وقلنسوة من الحديد تغطى كل رأسه عدا عينيه ، وأنفة ، وفحه ؛ وكانت ساقاه وقدماه تغطى بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان في الحرب غطى رأسه فضلا عن غطاله السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت في المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد المسالف الذكر بخوذة من الصلب في المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد المسالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد المسالف الذكر بخوذة من الصليد المسالف الذكر بخوذة من الصليد الديد المسالف الذكر بخوذة من المسالف الذكر بخوذة من الصليد المسالف الذكر بخوذة من الصليد المسالف الذكر بخوذة من المسالف الديد المسالف الذكر بخوذة من المسالف الذكر بخوذة من المسالف الديد المسالف الذكر بخوذة من المسالف الذكر المسالف الديد المسالف المسالف المسالف المسالف الديد المسالف المسالف المسالف الديد المسالف المسالف الديد المسالف المسالف الديد المسالف المسا

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدرع المصنوع من الصفائح المعدنية لحاية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقيتا حتى القرن السابع عشر ؛ ثم بطل استعال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق في عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مُثبتة في سطحه الداخلي ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان في وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس في العصور الوسطى قلعة متحركة . وكانت الحصون عادة هي أهم وسائل الدفاع وأجداها في الحروب الإقطاعية . فكان في وسع الجيش الذي بهزم في ميدان القتال أن يجد له ملجأ دآخل أسوار بيت الشريف ، وكانٌ في وسعه أن يقف من العدو ِ وقفته الأخيرة داخل البرج . واضمحل علم الحصار في العصور الوسطى لأن ما يلزم لدك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أغلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكانة العالية ، ولكن فن المدمر والجندى الملغم ظل باقيا في تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل في عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين – تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالمجاذيف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إلىها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون فى العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية ألممتزجة بالشمع ــ بيضاء أو قرمزية أو زرقاء في لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يذهبُّون جوجوها وأسيجتها ، ويقيمون في مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشرعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجوانى ، وبعضها ذهبي ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه . وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة في كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سبها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً فى أن يعمد إلى السرقة الشريفة سرقة أراضى غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثانى عشر لم تكن فيه حرب فى جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية فى سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يكيل أو يتلقى الضربات لا ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » فى الفراش (١٠٠٠ ) ، ولقد شكا برثولد الراتسبونى الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة » (١٠٠ ولكن راتسبون هذا كان السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة » (١٠١ ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الحطورة ، فهاهو ذا أردركس ثينالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule ( ١١١٩ ) بقوله إنه لا لا ثلاثة من الفوارس التسعائة الذين كانوا يحاربون ( ١١٠٦ ) ، وقد أسر أربعائة فارس في معركة تنشيريه Tinchebrai ( ١١٠٦ ) ، التي كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورمندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفي واقعة بوثين Bouvine ( ١٢١٤ ) وهي من الوقائع الحاسمة التي كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والحسمائة الذين اشتركوا في القتال (٢٠٠ ) . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة في الحرب للدفاع ؛ فقد كان من الصعب أن يقتل والرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدني إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسار

Froissart محزنه أن قتل في إحدى المعارك « كثيرون من الأسرى كان مستطاعاً أن بجي من افتدائهم ، ، ، ، ، ، ، ف ف نك (١٤٠) » . وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بن الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاعتدال فيا يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ، وقلما كان فارس يحنث في هذا الوعد (١٥٠) . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء في حروب الإقطاع . وكان كل جيش في فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضي أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية في داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يجرون محارثيهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعا لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية في فترات بين الحروب، ونجح في هذه المحاولات الأدواق النورمنديون في نورمندية، وإنجلترا، وصقلية؛ وكونت فلاندرز في بلاده، وكونت برشلونة في قطلونية، ونجح هنرى الثالث مدى جيل من الزمان في ألمانيا، وفيا عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل في تقييد الحروب، فقد أصدرت عدة عالس كنسية في فرنسا بين عاى ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد وسلم إلهية به وأنذرت كل من يستخدم العنف في الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين. ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام في عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الحاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكتف، سدا بل أقنعهم فوق ذلك الحاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكتف، سدا بل أقنعهم فوق ذلك أن يشتركوا معها في تحريمها ، وقام فلمرت أسقف تشارتر المهيت لوجود أن يشتركوا معها في تحريمها ، وقام فلمرت أسقف تشارتر المهيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجاهير ترحيباً حاسياً مهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضي خس سنين حتى يكون جميع سكان العالم وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضي خس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحي قد وافقوا على برنامج السلام(٢٦٠) ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما معدها « هدنة الله » ، ولعلها في هذا كانت تذكر تحريم المسلمين للحرب في الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفي موسم الحصايد وقطاف الكروم ( من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمر ) ؛ وفي أعياد محددة ، وفي جزء من كل أسبوع ... كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ؛ وأجازت هذه الهدنة في صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانين يوماً في السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإندارات ثمرتها ، فقضي على الحروب الحاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكرى في الحروب الصليبية ؛ وأضحت هدنة الله في القرن الثاني عشر جزءًا من القانون المدنى والقانون الكنسى فى أوربا الغربية ، وحرم مجلس لاتران الثانى ( ١١٣٩ ) استخدام العدد الحربية ضد الناس<sup>(۱۷)</sup> ، واقترح جرهوه الريخرزبرجي Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحين بعضهم وبعض ، وأن يتُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحين على التحكم البابوى(٦٨) . ورأى الملوك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ، فكانوا يثيرون الحروب القومية أكثر من ذى قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم في القرن الثالث عشر ، وهم يحركون البيادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة .

# الفصل لخامس

## الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعليم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين في بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالحشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد - أى ينتمى إلى أسرة نحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضا . ولم يكن من حق جميع أصحاب «الأصول» (أى الذين يمتازون بانتسامهم إلى أسر نبيلة ) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ؛ فالأبناء غير الابن الأكبر - عدا أبناء الملوك - لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لا تنى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبتى هؤلاء ضمن الأتباع. إلا إذا حصاوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذي يتطلع إلى أن يكون فارسا يخضع لنظام تأديبي شاق طويل. فكان يعمل وهو في السابعة أو الثامنة من عمره وصيفا عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفي غرفة نومه ، وفي قصر الضيعة ، وفي المناقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين و الألعاب الشاقة الحطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أثم تدريبه سلك في نظام الفرسان في حفل يشمل مراسم رهيبة يبدؤها الطالب بالاستحام بوصفه رمزاً للتطهير الروحي ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمي . وكان لهذا يمكن أن يسمى و فارس الحام ، تميزاً له من و فرسان السيف ، الذين تلقوا لقب الفروسية في ميدان

القتال جزاء عاجلا لهم على بسالتهم . وكان يرتدى في هذا الاحتفال قميصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الحلق ، وثانهما الدم الذي قد يسفكه في سبيل الشرف أو ` سبيل الله ، وثالثها الموت الذي يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملا ثم يقضى ليلة يصلي في الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الرباني ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجهاعبة ، والحربية ، ويتعهد في خشوع أن يؤديها كلها .. فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه ، فيرفع القس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذي يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : ﴿ لَأَى غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، وستكون منزلتك في نظام الفروسية كمنزلة القس المتاجر بالرتب الكهنوتية في الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعداده للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينتذُ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفي ذراعيه ، وقفازين من زرد في يديه ، ومهمازين في حذاءيه (\*\*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطات بغرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لطمة أخرى على خده ، وهي كلها رموز لآخر الإهانات التي يستطيع أن يتلقاها دون أن يثأر لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ،وُالقديس بيخائيل ، والقديس چورچ أجعلك

 <sup>(</sup> ه ) وكان المهمازان المصنوعانمن الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة ثابعه، وإذ قيل عن إلسان إنه اكسب مهمازيه (الذهبيين) كان منى هذا أنه بلغ رتبة الفروسية .

فارساً ». ثم يتسلم الفارس الجديد حربة ، وخوذة ، وجواداً ، فيحكم خوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهذايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حقوقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته في العرجاس الذي يتدرب فيه أكثر من ذي قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس في القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر في فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التي أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة مليك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان الفرسان الذين يرغبون في الاشتراك في البرجاس يأتون إلى البلدة التي سيعقد فمها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم في جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لدمهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك في اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المذنب من المتقدمين ، وفي هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخبول ليعدوا الفارس للىرجاس ، وباثعو الخردوات ايحلوه هو وجواده بالحلل الحميلة ، والمرابون لافتداء من يسقطون في الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المتنقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى , وكان الحادث كله احتفالًا لهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التي لا حدلها على المباريات .

وقد يدومالبر جاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وقد لا يدوم إلا يوما واحداً . وقد قسمت الأيام في برجاس عقد في عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع وعيد ، وخصص يوما الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذى أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء فى أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان فى العصور الوسطى من حلل . أما السوقة فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش علمها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدأون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحيون بالنغات العالية أبرع ما فى السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على السوقة الواقفين فى الميدان ، فكان هولاء يتلقفونها وهم يصيحون «هبات!»

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان في حلهم وعددهم الفاخرة متباهين في خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها في بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الدهب السيدات اللائي سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ؛ ولفاعة أو قناعا ، أو دثاراً ، أو شريطاً انتزعته السيدة المختارة من ثيامها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجوادهما متقابلين ويرمى كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، ومهذا تدور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الحروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ، أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى في وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل يختم باقتتال حق في عصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتلون اقتتالا حقيقياً ،

وإن كان يدور في العادة بأسلحة مثلمة ، وقد أدى قتال من هذا النوع دار في نيوس Neuss ( ١٢٤٠) إلى موت نحو ستين فارساً : وفي أمثال هذه المباريات كان يومبر البعض ، وتوخذ الفدية بمن يومبرون كما يخدث في الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمنتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه ، وقد ورد في مجموعة الأقاصيص الفرنسية التي كتبت في فرنسا بين منتصف القرن الناني عشر وآخر القرن الثالث عشر (\*) أن أحد الفرسان احتج على عمريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرمه من الوسيلة الوحيدة التي يكسب بها عيشه (١٠) . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة في حفل ليلي تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجل النساء ، ويستمع الحاضرون إلى القصائد والأغاني التي توالف تخليداً النساء ، ويستمع الحاضرون إلى القصائد والأغاني التي توالف تخليداً النساء ، ويستمع الحاضرون إلى القصائد والأغاني التي توالف تخليداً

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلا، وسميذ عا (علم الفرسان ، وإذ كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت نظام الفروسية بمراسم وأيمان دينية. فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً فى القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمى الفقر اء والمساكن، وينشر لواء السلم فى ولايته ، ويقاتل الكفرة ، وكان مديناً لسيده الإقطاعي بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ؛ ويتعهد أن يكون حارساً للنساء، مدافعاً عن عفهن ؛ وأن يكون أخا لجميع الفرسان يبادلهم الحجاملة وضروب المساعدة ، وقد

<sup>(</sup>ه) هي المعروفة باسم Fabliax ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها شكى . (المترجم) و (ه») و رد في القاموس المحيط للفيروزيادى : السميذع : السيد ، الكريم ، الشريف ، السخى ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد و ردت في بعض أشعار المعتمد . (المترجم)

يحدث في إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فإذا أسر واحداً مهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسروا في كريسي Crécy و بواتيبه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان في ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفيهم في الولائم والألعاب ، وظلوا كذلك حتى افتدوا (٢٠٠٠) . ورفع الإقطاع الشرف الأرسنقراطي ومطالب النبل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقة - فكان يقسم ألا يتخلي عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعي ، وأن يضع نفسه إلى أقصي حد في خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذي كان لها عند الرومان بعد أن ظلت عادت الرجولة النصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ هالمسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوربا التي توالت عليها الهجات من كل ناحية في المسيحية ، ولقد كانت أوربا التي توالت عليها الهجات من كل ناحية في مسيس الحاجة إلى ألموح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة التظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به فى حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التى ولدت بين الغابات والوحوش قد لوثت هذا المثل الأعلى وذاك ، فهذا البطل الذى قاتل يوماً ما ببسائة فى ألعاب البرجاس أو فى ميدان القتال قد يكون فى يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التى فى خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلا فى الفروسية قيحطم بالزنى الأسر الطيبة . وقد يتشدق بحاية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بعد السيف ؛ وكان يعامل العامل اليدوى الذى يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملوها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التى أقسم أن يعزها و يحميها بغلظة معاملة ملوها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التى أقسم أن يعزها و يحميها بغلظة

في كثير من الأحيان وبوحشية في بعضها(٧١) . وقد يستمع إلى الصلاة في الصباح ، ويسطو على كنيسة في آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه في المساء . وهذا ما وصف به جلداس Glidas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم في القرن السادس ، وهو القرن الذي يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائدة الستديرة » كانوا يعبشون في خلاله(٧٢) . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينا كان الشعراء الألمان بتغنون بالفروسية ، تراهم لا ينقطعون عن\اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البيريئين (٧٣) . ولقد دهش المسلمون من فظاظة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإمهامات المقطعة(٧٤) . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن ننتظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجادة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبة من ضفاف نهر الأودر، والحجر من إيطاليا وألمانيا، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على شفار السيوف ، فكانوا ما لابد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من هم جية الفروسية ، ونعني سهما النساء والمسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حدما في تحويل تيار الحصام في الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون في هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد وفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخفضت بذلك من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء الملائي من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء الملائي يعشن على ظهر الأرض ، واللائي لهن تأثير كبير في الحواس وفي الأرواح ، قد كان لحن أثر مريم العذراء في تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم لحن أثر مريم العذراء في تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرها ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذي يجعل من المحبوب مثلا أعلى ، في كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان في شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . وقلما كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلا كل الانفصال عن الزواج في عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء في معظم العصور ، وبخاصة في عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجبن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المنال ، ويتوجهون بأجمل أغانهم إلى السيدات اللاتي لا يرجون أن يصلوا إلهن . وكان الفارق بن المحب وحبيبه في العادة كبراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الجياشة لا يعدو أن يكون تحية ظريفة للمحبوب. وكان السيد الإقطاعي المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشببون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت ڤو Vaux ظل يستضيف الشاعر بير ڤيدال Peire Vidal بعد أن تغزل ثهر بامرأته المجاملة لايضح للشعراء عادة أن يجرؤوا علمها . وكان الشاعر الحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأنل قدر من الإغراء ، قلما يوجد الحب

العذرى أو يستبقيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتي التَّنَّي نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغير ها من النساء المنزوجات منهن وغير المتزوحات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر (٧٦) . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العدرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب. وقد تسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللاتي يعرضن علمهم حمهن العدري(٧٧) . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر في خطيبته أود Aude التي كادت تموت من الخزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذي كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب، أفلاطوني أو بعروني (\*\*) Byronic ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التي كتبت في العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التي أعطته لونها (\*\*\* ليلبسه أو بأداء الواجب الذي يفرضه عليه حمها . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعناق أو بما هو خبر عنده من العناق ؛ ذلك هو ، الجزاء » الذي كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال حربية مجيدة ، وكان اسمها هو الذي يناديه في ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التي لم يكن نبها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتي كن من الوجهة

<sup>(</sup>ه) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون صاحب الحب الشهوانى اللهى لم يكن يستحى منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غير ، فى الحفاء . (المترجم)

<sup>(</sup>هـ المارة ذات اللون الخاص يها . (المترجم)

النظرية مقيدات في حبهن بقيود شديدة ، قد أكدن بهذه الطريقة حقهن في الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاق . وأخدت عبادة المرأة الشهوانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ؛ ونودى بالحب على آنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس، وأوجد مثلا عليا لأداء الحدمات لهم، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى في الوقت الذي كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارت هذه التفرقة المعقدة بىن الحب والزواج مشاكل كثبرة خاصة بِالْأَخْلَاقِ مُوآدَابِ السلوكِ . وكان المؤلفون يعالِحون هذه المسائل في تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها في أيام أوڤل بكل ما يتصف بة الأخلاقيون من تدقيق وإتقان . وحدث في وقمتما بن عامي ١١٧٤ و١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كيلانوس Andreas Capellanus أى القس أندرو \_ رسالة في الحب و دوائه Tractatus de amore et de amoris remedio أورد فها بن ما أورد من المسائل قانون الحب العذرى ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياء إنه هو هيام فارس هياماً محرما بروجة فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواصهذا الحب هي الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة .وهذا الكتاب هوأهم المراجع التي يستشهد بها على وجود ﴿ مُحاكمُ الحب » التي كانت السيدات ذو ات الألقاب يُستجوبن فها ويقدمن القرار ات الخصة بالحب العذرى. وكانت زعيمة السيدات في هذه الإجرات أيام أندرو، إذا كان لنا أن نصلق ما يقوله هو عن هذا ، هي الأمرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هي أمها . وأكثر النساء فتنة في المجتمع الإقطاعي هي إليانور Eleanor دوقة أكتن Aquitaine التي كانت في وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدثذ . وكانت هي وأمها قاضيتن ترأسان محكمة الحب في مدينة بواتييه في بعض القضايا(٧٩) وكان أندرو يعرف نمارية حتى المعرفة ، وكان قساً خاصا بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها فى الحب؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلِم كل إنسان أن يتحلى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة »؛ ويؤكد لنا أن أشراف بواتييه الغلاطقد انقلبوا بفضل تعاليم مارية مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروءة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزلين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التي كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية - كونتة نربونة Narbonne وكونته فلاندرز وغيرهما ـ في پيير فو Pierrefeu و أثنيو ن Avlgnon وغيرهما من بلدان فرنسا(٨٠٠ . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل في القضايا التي تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضة وجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الحلافات، وتوقع العقاب علىمن يحرق القانون. وبمقتضى هذا الحق أصدرت مارية الشمبانية Marie of Champagne (كما يقول. أندرو) في السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى في سؤال وجه إليها. يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حبحقيق بين الأشخاص المتز وجن؟ ، فكان جوامها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها فى ذلك أن « المحبن يعطون كل شيء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغمهم على أن يخضع كل منهم. لرغبات زوجِه » (٢٨١٦ . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها ( ١ ) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . ( ٣ ) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين في وقت واحد (٤) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن. ينقص( ٥ ) المنة التي يسدمها صاحبها مرغما منة تافهة ( ١١ ) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتي لا يجبن إلا بقصد الزواج . . . ( ١٤ ) إن السهولة المفرطة في نيل الحبيب تعقر الحب، أما الصعاب التي تعترض الحب فإنها ... تر فع من قدره ... (١٩) إذا بدأ الحبَ يتناقص فسرعان ما يزول، وقلما يعود ...(٢١) يزداد الحب على الدوام بتأثير الغيرة . . . ( ٢٣ ) الشخص الذي يقع فريسة الحب لا ينام الا قليلا ولا يطقم إلا قليلا ( ٢٦ ) المحب لا يضن بشيء على حبيبه (٨٣) .

وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛ ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبأون بها ، وكان الفرسان العشاق يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفي ذلك يقول ثلاني Villani الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفي ذلك يقول ثلاني منهر يونية شاعر فلورنس في شهر يونية من عام ١٢٨٨ في عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . . اتحاد اجتماعي قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون على أنفسهم اسم فرام الحب . وقد نظمت هده الجاعة سلسلة من الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقي ، ويقيمون الولائم في منتصف النهار وفي الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو شهرين ، وكانت أجمل وأشهر ما أقيم من نوعها في تسكانيا هرامه) .

نشأت الفروسية في القرن العاشر ، وبلغت ذروتها في القرن الثالث عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحلت أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التي بددت شمل طبقة الأشراف الإنجليز في حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها في وسط الأحقاد التي أثارتها الحروب الدينية في القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها البارزة في أوربا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحي الاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية . وازداد عدد طبقات الفروسية — ربطة الساق ، والحام ، والهذة والذهبية — وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة في بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وأسيانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إين Etcn ، وهرو Harrow ، وونشستر Winchester بين مَــُــَلَ الفروسية الأعلى والبربية « الحرة » في جهودها الموفقة في تاريخ التربية لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذ كان الفارس يتعلم الآداب ، والشهامة والمروءة ، في حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى ؛ وليست المجاملات والرقة فى الوقت الحاضر إلا مزيجاً محفَّفاً من غروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربى من أغنية رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع الفزوسية ؛ وكان الكشف الثانى لنظام الفروسية من العناصر الفعالة في الجركة الأدبية الإبداعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن في آداب الفروسية الحلقية من إسراف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بن حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعته الروح البشرية من نظم ، وإنها فن من فنون الحياة أنهى وأفخم من كل فن سواه . وهكذا نرى أن الصورة التي رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون صورة للاسترقاق في الأرض ، وللأمية ، واللاستغلال ، والعنف ؛ بل كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء في لغتهم ، وحبهم ، وحرومهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون إلى خدمتهم ، يجدون في طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم في طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ؛ ونساءً صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء في قرى الفلاحين ؛ وسيدات من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء بالحرية الجريئــة في التغني بالشعر الشهواني والحب العذري \_ ولعل الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية في رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السياسي والاقتصادي إلى أوربا

يعد أن توالت عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام . ولقد أفلحت فى غرضها هذا ؛ ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وتراثها مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إلىها بتشامخ وازدراء . ذلك أنه لم يعد في وسمعه أن يشهر بما كان فها من جهل وخرافات ، وتفكك سياسي ، وفقر اقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من هذا أن يعجب كنيف استطاعت أوربا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التي كالها لها القوط ، والهون ، والوندال ، والمسلمون ، والحجر ، والشماليون ، واحتفظت في وسط الاضطراب والمآسي بهذا القدر الكبير من الآداب والأساليب الفنية القديمة . ولا يسعه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألنْفرد ، وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛ كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولمبا ، وألكوين ، وبرونو ومن إليهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن يشيدوا الكنائس الكبرى، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُعَمَنُّوا فها بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة والكنيسة أن تبدءا عملهما مرة أخرىمن الدرك الأسفل ، كما بدأه رميولوس ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التي يتطلبها بناء المدّن من الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أخمها التي شادت شارتر ، وأمن ، وريمس في الزمن الحديث ، أو هدأت حي دانتي الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

## المراجسع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجملة في الجنوء الأولى، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كائت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فندل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

#### CHAPTER XV

- 4. Abbott, O.F., Israel in Egypt, 43.
- 2. Baron, S., Social and Religious History of the Jews, I. 266;
  - Gratez, H., History of the Jews, II, 566.
- 3. Socrates, Ecclesiastical History, iii; 20; Julian, Works, III, 51.
- 4. Abbott, 45.
- Ammianus Marcellinus, Works, xxiii, 1.
- 6. Jerome, Commentary on Isalah, vi. 11-18, in Baron, I. 261.
- 7. Baron, i, 255.
- 8. Baeder, Gershom jewisk Spiritual Heroes, Ill, 46.
- 9. Talmud, Yebamoth, 37b.
- 10. Friedländer, L., Raman Life
  and Manners under the Early
- Empire, III, 173.
  11. Oregory of Tours History, of

the Franks, 1916, vili, 1.

- 42. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian)
  - section; to the (Babylonian)

    Gemara by tractate and folio
    sheet.
- 13. Baba Kama, 60b.
- 14. Megilla, 16b.
- Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect.
   in Moore, O. F., Judiasm in

- the First Centuries of the Christian Era, 11, 242.
- 18. Menachoth, 99b. 17. Pesikia Rabbati, 10, 4. in New-
- Pesikia Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., Talmudic Anthology. 300.
- 18. Chagiga, 10a.
- 19. Examples in Moore, I, 259.
- 20. Berachoth, 6b.
- 21. Aboda Zara, 8b; Newman, 81.
- 22. Chagiga, 8b. 23. Succah, 52b.
- 24. Barachoth, 6a.
- 25. Aboda Zara, 3b.
- 26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
- 27. From Deut. vi, 4.
- 28. Shebouth, 77b.
- 29. Erubin, 18a.
- 80. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii,9.
  31. Berachotb. 6a
- 82. Aboda Zara, 5a.
- 38. Sifre on Deut. 32.
- Shebuoth, 55a.
   Midrash Mishle, 28, in Newman,
- 86. Genesis Rabbah, xlviii, 8.
- 87. Babo Metzia, 58b.
- 88. Berochoth, 34a.
- 39, Ketuboth, 111a.
- 40. Wayyikra Rabboh, 34. in Newman, 108.

- 41. Bereshit Rabbah, 44,1, in Newman, 292.
- 42. Quoted in Cohen, A., Everyman's Talmud, 89.
- 43. Aboda Zara, 20b.
- 44. Kiddushin, 66d.
- 45. Shebuoth, 41a.
- 46. In Cohen, A., 258.
- 47, Leviticus xxi, 2-5.
- 48. Yebamoth, 48b.
- 49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257,
- 50. Pesachim, 113a,
- 51. Shebuoth, 152,
- 52: Pesachim, 49b.
- 53. Exod. xxiii, 19; xxiv, 26; Deut xiv. 21,
- 54. Nidda, 17.
- 55. Yoma, 75.
- 66. Shebuoth, 33.
- 57. lbid., 152a.
- 58. Baba Bathra, 58b.
- 59. Pesachim, 109a.
- 60. Berachoth, 55a, 60b.
- 61. Taanith, 11a,
- 62. Pesachim, 108.
- 63. Exod, xii, 13.
- 64. Megilla on Esther, 7b, in Moore,
- 65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism, 149.
- 66. Kiddushin, 31a; Isalah vi. 8.
- 67. Baba Baihra, 8b; Baron, 1,277-8.
- 68. Berachoth, 10a.
- 69. Gen. i, 28; Kiddushin, 29.
- 70. Genesis Rabbah, Ixxi. 6.
- 71. Yebamoth, 12b; Himes, N. E., Medical History of Contracent tion, 72.
- 72. Baba Bathra, 72.
- 78. Exodus Rabbah, i, 1.

- 74. Harris, M. H., ed., Hebraic Literature : Translation form the Talmud, Midrashim, and Kabbala, 336.
- 75, Baba Bathra, 9a,
- 76. Ketuboth, 50a, 67,
- 77, Taanth, 22.
- 78. lbid., 20b.
- 79, Graeiz., II, 486, 545.
- 80. Baba Bathra, 9.
- 81. Gittin, 70a.
- 82. Chagiga, 16a.
- 88. Berachoth, 61a.
- 84. Kiddushin, 29b.
- 85. Sota. 44a
- 86, Taanith, Iv, 8.
- 87. Yebamoth, 63a.
- 88, Ibid., 65s, 44a.
- 89. Pesikia Rabbati, 25, 2, In Newman, 3,
- 90. Berachoth, xxiv. 1,
- 91. Kiddushin, 4.
- 92. Yebamoth, xlv, 1; 64b.
- 93. Gittin, ix, 10.
- 94. Ketuboth, vli, 6.
- 95. Cohen, A., 179,
- 96. Ketuboth, 77a; Neuman, A. A., The Jews in Spain, Philadelphio, 1942, Il, 59.
- 97. Yebamoth, xxi. in Beader, III. 66.
- 98. Gittin, 90b.
- 99. Kiddushin, 80b.
- 100. Nidda, 45,
- 101. Kiddushin, 49p.
- 102. Yoma, 83b.
- 103. Mikvaoth, 9b, in Cohen, A., 17
- 104. Hai Gaon in Newman, 540.
- 105. Yebamoth, 88.
  - Kelubcih 47b.
- 107. Shebuoth, 30b.
- 108. Erubin, 41b.
- 109. Baeder, III, 15.

- 110. Bereshit Rahbah, xvii, 7°
- 111 Harris, M. H. Hebrale Litera-
- 119, Pirke Aboth, iv, 1.
- 113. Ibid., iv, 3.
- 114. Ibld., i, 17.
- 115, Ibid., iii, 17.
- 116. Shemot Rabbah, xxv, 16 New-man, 897.
- 117. Menachoth 29b, in Moore, II, 187.
- 118. Renan, E., Origins of Christianity: The Christian Chruch, 131; Baron, I, 305-6.

#### CHAPTÉR XVI

- 1. Graetz, III, 308.
- 2. Abrahams, Israel Jewish Life in the Middle Ages, 219.
- Benjaman of Tudela, Travels, in Komroif, M., ed., Contemporaries of Marco Polo, 290.
- Graetz, III, 90, Others date the Gaonate from 589 : cf. Oesterley and Box, 209.
- 5. Graez, III, 133.
- 6. Ibid., 148.
- 7. Druck, D., Yehuda Halevy, 66.
- -8. Baron' 1, 853.
  - 9. Husik, I., History of Medieval Jewish Philosophy, 85. 42f.
  - 10. Malter, H., Saadia Gaon, 279, 291
  - Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
  - 12, Baron, I, 318.
  - 13. Friedländer, III, 181.
  - 14. Dili, Sir S., Roman Society in Gaul in the Merovenglan Age, 246
  - 15. Groetz, III, 143, 161, 241, 889.
- 16. Benj. of Tudels, in Komroif, 260.
  - 17. Ibid., 257.
  - 18. Ameer Ali, Sayed, The Spirit of Islam, 260.
  - 19. Druck. 26.
  - 20. Dozy, R., Spanish Islam, 5971.

- 21. Abbott, G. F., 71.
- 22 Abrbhams, Jewish Life, 366.
- 28. Dozy, 721.
- 24. Graetz, III, 617.
- 26. Nouman, A., Jews in Spain, I,5,
- 26. Ibid., 164.
- 27. Ibid., II, 184.
- 28. Ibid., II, 221; Graetz. III, 281.
- 29. Neuman, II, 221.
- 30. Graetz, III, 360f.
- 81. Baron II, 37; Oraetz, III, 506.
- 82. Neuman, II, 149.
- 83. Ibid., 247.
- 84. Abrahams, jewish Life, 67.
- 35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., The Wisdom of Israel, 698.
- 86. Baba Kama, 113a.
- 37. Pirke Aboth, ili, 2.
- 38, Baron, II, 17.
- 39. lbid., 26.
- 40. Ibid.
- 41. Bracion, Ds Legibus, vi. 51, in Baron, II, 24
- 42. Pollock, F., and Mailland, F.W., History of English Law before Edward I, 1, 455,
- 43. Cambridge Medieval History, II, 602.
- 44. Ricard, T.A., Man and Metals, II, 602.
- 45. Abrahams, Jewish Life, 241.
- 46. Rapaport, S., Tales and Maxims from the Talmud, 147.
- 47. Graciz, III, 229.
- 48. Arnold, Sir, T., and Gulliaume, A., The Legacy of Islam, 102.
- 49. Pirenne, H., Medieval Cities, 258.
- 50. Baron, II, 8f.
- 51. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
- ! . Deut. xxiii, 20.
- 53. Baba Metzis, v, 1-2, 11.
- 54. Abrahams, Jewish Life, 110

- 55. Baron. II. 120.
- 56. Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, 134.
- 67. Cambridge Medieval History, VII 644.
- 58. Ibid., 646.
- Neuman, A., I, 202; Lacrolx,
   P., Manuers Customs and Dress during, the Middle Ages, 451.
- 60. Coulton, G. O., Medieval Panorama, 352.
- 61. Abbott, Israel. 113.
- 62. Lacroix, Manners, 451.
- 63. Ashley, W. J. Introduction to English Economic Elstory and Theory 202.
- 64. Abbott, 177.
- 65. Pollock and Maitland, 451.
- 66. Combridge Medieval History, VI, 226.
- 67. Abbott, 122.
- 68. Hnsik, 508.
- 69. Abboti, 125; Graeiz, III, 588.
- 70. Abbott, 158; Lacroix, Manners, 445.
- 71. In Foakes-Jacson, F., and Lake, K., Beginnings of Chiristianity, I, 76.
- 72. Baba Bathra, 90.
- 73. Baba Metzia, iv. 3.
- 74. Baron, 1, 277-8; II, 108.
- 75. Baron, II. 99.
- 76. Moore, II, 174-5.
- 77. Abrahams, Jewish Life, 141, 819, 326, 335; Baron, II, 99.
- 78. Coulton, Panorama, 357.
- 79. Abrahams, 277.
- 80. lbid., 281.
- 81. Burton, Sir R. F., The Jew, the Gypsy, and El Islam, 128; Baton II, 169

- 82. Abrahams, 831.
- 88. Baba Kama, 118b.
- 84. Abrahams, 106.
- 85. Ibid , 104.
- 86. Ibid., 90.
- 87. Baron, II, 112.
- 88. Abrahams, 166.
- 89. Kiddusigin,41a; Neuman, II, 21.
- 90. Ibid.
- 91. Moore, II, 22.
- 92. Abrahams, 117.
- 94. Barton, 7he Jew, 43.
- 95. White, F.M., Woman in World History, 176.
- 96, Abrahams, 155.
- 97. Brittaln, A., Women of Early Christianity, 10.
- 98. White, 189.
- 89. Neuman, II, 229.
- 100. White, 185.
- 101. Marcus, J., The Jew in the Medieval World, 318.
- 102, Abrahame, 32.
- 103, Neuman, II, 153.
- 104. Baros, I, 288; II, 97.
- 105, Abrahams, 126.
- 106. Brittain, 12.
- 107 Moore, I, 316.
- 108. Maimonder, Mishneh Torak,
  - Book 1, tr. Možes, Hayamson, 63a.
- 109. In Waxman, M., History of Jewish Leterature, I, 214,
- 110. Jewish Encyclopedia, IX, 122.
- 111, Oxford Histor of Music' introd. volume, 60.
- 112. Jewish Encyclopedia, III, 458.
- 112a. In Zeitlin, S., Maimonides, 44°
- 113. Baron, II, 88.
- 114.Lacroix, Munners, 439.
- 115. Baron, II, 35.
- 116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Dent. vii, 3; Nehemiah xili, 25.

118. Klausner, J., From Jesus to Paut, 515.

119. Baron, 11, 56.

120. Gittin. 61.

121, Abrahams, 418-4.

122. Ibid., 418.

128. Ibid., 424; Baron, II, 40.

121, Baron, II, 36,

125. Abbott, 93.

126, Coulton, Panorama, 352.

127. Ibid.

128. Graetz, IV, 33.

129. Gregory I, Epistle ii, 6, in Dudden, F. H., Gregory the Great, II, 166.

130. Ep. xiii, 15, in Dudden, II, 155

131. Belloc, H., Paris, 170.

187. Graetz, III, 421.

133. Coulton, Panorama, 352.

134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., Source Book of Medieval History, 212.

133. Lea, H.C., History of the Inpuistion in the Middle Ages, II, 63.

186. Graetz, III, 563.

137. Ibid., 583.

138. Marcus, 151.

139, Baton, II, 85.

 Abbott,51; Jewish Encyclopedia III. 453.

141. Camb. Med. H., VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.

142. Graciz, III. 299.

143. Ibid., 300.

144. lbid., 301f; Cambridge Medieval History, V., 275f; VII, 641.

145. Greatz III, 350; Abbot, 88.

146. Jewish Encyclopedia. IV. 379.

147. Graetz, III, 356.

148. Cambridge Medieval Birtory, VII, 642.

149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.

150. Abbott, 144.

151. Coulton, Panorama, 859.

152. Cuninggham, W., Growth of English Industry and Commerce 204.

153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.

154. Lacrolx, Manners, 447.

155. Craetz, III, 642; Abbott, 130.

156. Abbott, 131.

157, Ibid., 68,

158. Lacroix, Manners, 447.

159. Abbot. 68.

160. Montesquiev, C. Baron de, The Spirit of Laws, I, xii, 5.

161. Joseph ben Joshua ben Meir. Chronicles, I, 197.

162. Marcus, 24.

163. Graetz, III, 570.

164. Villehardonin, G. de, Chronicles of the Crusades, 148.

165. Abbott. 118.

166. Cambridge Medleval History, VII, 641.

#### CHAPTER XVII

1. Absahams, Jewish Life 210.

2. Sarton, G., Introduction to the History of Socience, 11 (i), 295.

3. Abrhame, I., Chap ers on Jewish Literature, 116.

4. Waxman, 1, 226.

5. Graetz, III, 269.

6. Gabirol, S.ibn, Selected Religious Poems, tr. Israel Zang will, 62.

7. lbd., 80.

8. Abrahams, Literature, 109.

9. Abrahams, Jewish Life, 163.

10. In Wilson, E, ed. Bebrew Leterature, 383.

11. Sarton, II, (1), 188.

12. Hajevi, J., Selecied Poems, tr. Nina Salaman, 58.

13. Abbott, 72.

14. Druck, 97.

15, Ibid., 94.

16. Wilson, Hebrew Literature, 365-6.

17. Novella 146 in Burton, The Jew. - 105.

- 18. Graetz, III, 573.
- 19. Sarton, II (ii), 557.
- 20. Schechter, S., Studies in Judaism, I, 107.
- 21. Graetz, III, 604.
- 22. Sarton, II, (i), 145.
- 23. N. Y. Times, June 2, 1937.
- 24. Sarton, II, (i), 145.
- 25. Cf. Komroff M. The Contempsraries of Marco Polo.
- 26. Husik, 24.
- 27. Munk, S., Mélanges de philosophie juive et arabe 158.
- 28. Marcus, 312.
- 29. Cf. Gabirol, S. ibn, Improvement of the Moral Qualities, tr. Stephen Wise, 4, 27.
- 30. Gabirol, Fons Vitae, i, 3, in Munk, 6.
- 31. Haievi, J., Kitab 'al-Khazari, ir. H. Hirschfeld, i, 116.
- 82. Ibid., III, 5, 7.
- 83. Husik, 215.
- 84. Yellin, D., and Abrahams, I., Maimonides, 11; Zeitlin, Maimonides, I.
- 36. Ueberweg, F., History of Philosophy, 1, 427,
- 36. Zeitlin, Molmonides, 5.
- 87. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
- 88. Zeitlin, 178.
- 89. Arnold, Sir T., Preaching of Islam, 421.
- 40. Baron, S, ed., Essays on Maimonides, 290,
- 41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., Bistory, of Magic and Experimental Science, I, 176.
- 42. Zeilin, 172.
- 48. In Baron, Essays, 288.

- 44. Zeitlin, 174.
- 45. Baron, Essays, 284.
- Malmonides, Mishneh Trab, Introd., 4b.
- 47. Zeitlin, 214.
- 48. Mishneb Torab, Introd., 16. 3a.
- 49. In Baron, Essays, 117.
- 50. Maimonides, Guide to the Perp exed tr. M., friedländer, II, xli.
- ibid., III, 36, Baron, Essays,
   139.
- 57. Guide, III, xxii, xii; Deut. xxiii, i7; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
- 53. Mishueh Torab, 40b.
- 54. Ibid., 59a.
- 55. lbid, 54a.
- 56. Ibid., 58a.
- 57. lbid., 58ab.
- 58. Ibid., 52b., '
- 59. In Baron, Essays, 110.
- 60. Zetlin, 132.
- 61. Quide, I, Introd.
- 62. Ibid., Il, xix; III, xiv.
- 63. Il, Pt. II, Introd. and Prop xx.
- 46. Ibid., xxxvi-xixi.
- 65. III, xxii.
- 66. II, xviif.
- 67. II, xxx.
- 98. Ili, x, xii.
- 69. III, lxx.
- 70. Zeltlin, 151.
- 71. Ibid., 103; Baron, Essays, 143.
- 72. Guide, II, Pt. II, Introd.
- 73. Baron, Essys, 119-21; Zeitlin, 209.
- 74. Marcus, 307-9.
- 75. SPinoza, Tractatus Theologico-Politicus, xv, 4.
- 79. Roth, L., Spinoza Descares, and Maimonides, 66; Baron, Essays, 7

- 77. Husik, 302; Graetz, IV, 23.
- 78, Ibid., III, 681-
- 79. Neuman, A., II, 122.
- 80. Ibid., 118; Graetz, IV, 29-41.
- 81. Jewish Eucyclopedia, III, 457,479.
- 82. Sarton, II, (i), 366.
- 88. Graetz, V. 21.
- 84. Baron, History, 11, 136.
- 85, lbld., 142.
- 86. Abrahams, Jewish, Life, 143,157, 198.
- 87. In Marcns, 314.

#### CHAPTER XVIII

- 1. Thompson, J.W., Economic and Social History, 173.
- 2. Gibbon, IV, 504.
- 3. Cambridge Medieval History, II,
- 4. Ibid., IV, 6; Gibbon, V, 142.
- 5. la Diehl, Moneul, 835.
- 6. Cambridge 'Medieval History, IV, 115f.
- 7. Voltaire, Works, XIII, 190.
- 8. Diehl, Portraits 159; Bury, Eastern Roman Empire, 169.
- 9. McCabe, J., Empresses of Constantinople, 174.
- 10. Cambridge Medieval History, IV, 108; Diehl, Portraits, 264.
- 11. Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, 56.
- 12. Cambridge Medleval Elitory, IV, 750.
- 18. Diehi, Portraits, 286.
- 14. Cambridge Medieval Bistory, IV. 745.
- 15. Komroff, Contemporarics of Xarco Polo, 268.
- 16. Cambridge Medivai History, IV, 760.
- 17. lbld.
- 18. Clapham and Power, 212.
- 19. Diehl, Portraits, 158; Gibbon V, 458; Brittain, Women of, Eorly Christianly, 318.

- Lopez, R.S., in Speculum, Vol' XX, No.1, pp. 17-18: Boissonnade, 46-7; Cambridge Medieval History, IV, 761.
- 21. Boissonnade, 60.
- 22 Ipid., 61.
- 28. Castiglione, 254.
- 24. Bury, Eastern Roman Empire, 436; Grunebaum, medieval Islam 54.
- 25. Psellus Chronographia, vi, 46.
- 26. Ibid., v, 25-37.
- 27. Diehl, Manuel, 405.
- 28. Luitprand in Granebaum, 29.
- 29. Cf. Walker Trust Report, The Great Palace of the Byzantine Emperors, plates 24-37 and 57.
- 80. The judgment of Kondakof in Diehl, Monuel, 580.
- 31. Diehl, 590.
- 32 lbid., 881.
- 83. Finlay, Greece under the Romans,
- 34. Thompson.J.W., Feudal Germany,
- 35. Kluchevsky, V. O. History of Russia, I, 46; I hompson, Feudal Germany, 456.
- Pokrovsky, M. N., History of Russia 11; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
- 37. Cambridge Medieval History, IV, 136.
- 38. Navor, J., Economic History of Russia, 1, 15.
- 39. Kluchevsky, I, 88.
- 40. Rambaud, A., History of Russia, 1, 84.

#### CHAPTER XIX

- 1. Paul the Deacon, History of
- 2. the Longobards, 1, 9.
- 3. Munro and Sellery, 538.
- 4. Dante, Elleven Letters, 185.
- 5. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

- 6. Voltaire, Works, XIII, 80.
- 7. Molmenti, P., Venice, I, I, 212-4.
- 8. Cambridge | Medieval Ilistory, III, 170
- 9. Pirenne, Medieval Cities, 110.
- 10. Ruskin, Stones of Venice, 1', 65.
- 11. Lanciane, R, Ancient Rome, 57.
- 12. Ibid., 275.
- 18. Castigione, 301.
- 14. Dozy, Spanish Islam, 440.
- 15. Coulton, G. G., FireCentrales of Religion, 1, 174,
- Hume, M, The Spanish, People,
   129; Spain. 191; Encyclopedia Britannica, V., 699.
- 17. In Quizot, History, of France, 1, 171.
- 18. lbid., 168.
- Pirenne, Cities, 248; Voltaire, XIII, 131.
- 20. Freeman, E.A., Historical Essays, First Series, 179.
- 21. Cambridge Medleval History, 11, 316.
- 29. Quizot, France, 1, 229f; Guizot, Bisory, of Civilization, 11, 198-6.
- 23. Pollock and Maitland, 1, 117, Barnes, H.E., History, of Western Civilization, I, 275
- 24. Lea, Superstiton and Force, 469,
- 25. Quizot Civilization, II, 225f.
- 26. Capitulary of Charlemagne, year 803, //3, in Guizot Civilization, I(, 222.
- 27. In Pirenne, Cities, 166.
- 28. Ibid., 58; Cambridge A edelval History, Il. 657.
- 29. Cambridge, Medieval History, 11, 657.
- 30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, i, 3, p. 66.
- .81. Eginhard, Life of Charlemagne, 61,

- 82. Hodkin, T., Charlemagne' 81'z.
- 83, West, A P., Alcuin, 55.
- 84. Eginhard, p. 14.
- 35. Ibid., 62.
- 86. Ibid., 64.
- 87. Capitulay of 802 in Bebel A., Woman under Socialism, 60.
- 38. Eginhard, 83.
- 89. Bury, Eastern Empire, 318,
- 40, Eginhard, 56-8,
- 41. Raby, F. J. History of Secular Lutin Poetry in the Middle Ages, 1, 190.
- 42. Eginhard, 52.
- 48. Ibid., 48; Russell, C. E., Charlemagne, 262.
- 44. Quizot, France, 1, 241.
- 45. Morey, C. R , Medieval Art, 207.
- 46. lbid., 191.
- 47. Davis Medieval England, 266.
- 48. Guizot, Civilization, II, 375.
- 49. Erigena, J.S. De divisione naturae, i, 69.
- 50. In Guizot, Civilizați n, 11, 383.
- 51. Erigena, // 517.
- 52. Ibid., // 443
- 53. // 518.
- 54. // 896.
- 55. // 919-26, 937-40.
- 56, // 861.
- 67. Poole, R. L., Illustration of the History of Medleval Thought, 61.
- 58. Quizot, Civilization, 11, 888.
- 59. William of Malmeabury, il, 4.
- 60. Quizot, France, I, 803
- 61. Ibid., 811.
- 62. Ibid., 329.
- 63. lbid., 336.

#### CHAPTER XX

- 1. Asser, Alfred the Great, 51.
- 2. Asser, 66, 78, 85.

- 8. Alfred, Preface to tr. of Gregory
  1's Cura patoralis, in Ogg,
  Source Book of Mediedval
  History, 191,
- 4. Voltaire, Works, XIII, 176.
- 5. Boissonnade, Life and Work in Medieval Europe, 88.
- 6. Green, R., Conquest of England 185, 329, 859-60.
- 7. Srubbs, W., Constitutional History of England, I, 146, 157.
- 8. Hume, D., Bistory of England, I, 181.
- 9. Pollock and Maitland, II, 450.
- William of Malmesbury in Coulton, O.O., Social Life in Britain 20: Green, J. R., Making of England, 192.
- 11. Traili, H. D., Socal England, I, 204.
- 12. Hume. D., History of England I,
- 13. Briffault' R., The Mothers, 11,419.
- 14. William of Malmesbury, i, 4.
- 15. Ibid , i, 2.
- 16. lbid., ii, 5.
- 17. Bede, v. 24.
- 18. Ibid., i, 15.
- 19. Ibid., Introd., xvi.
- 20. Gordon, R. K., Anglo Saxon Postry, 81-2.
- 31. In Ker, W.P., Epic and Romace,
- 22. Beowulf, xxxvii and xiii, in Gordon, Anglo-Saxon Poetry, 60, 70.
- 23. Bede, iv, 23.
- 24. Plummer, Life and Times of Alfred the Great, 14.
- 25. In Addison, J., Arst and Crafts in the Midle Ages, 4.

- 26. Aldhelme (c. 709) in Addison, 199.
- 27. bede, iv, 18.
- Freeman, E.A., Norman Conquest II. 298.
- William of Malmesbury, ili,238;
   Ordericus Vitalis, Historia Ecclostastica, 492A;
   Freeman, Noman Conquest, Il, 244.
- 30. Guizot, France, 1,346; Freeman, Norman Conquest, III, 320.
- 31. Mabinogion, 1f.
- 32. Hyde, Litary History of Ireland 238.
- 83. Joyce. Short History of Ireland, 39-46.
- 84. Thompson, J. W., Economic History, 148.
- 35. Boissonnade, 78.
- 36. Joyce, 80.
- 37. lbid , 168.
- 38. Ibid., 155, 158,
- 39. Hyde, 222.
- 40. Ibid., 239,
- 41. Ibid., 279f.
- 42. Thompson, Sir E. M., Introd to Greek and Latin Palaeography, 374.
- 43. Joyce, 189-92.
- 44. Keating in Hyde, 488.
- 45. Horn, F. W, Literature of the Scandinavian North, 13, Cambridg Medieval History, 11, 481
- 46. Surluson, S., Heimskringla'
- 47. Ibid., Haakou the Good, ch. 23.
- 48. lbid., Olai Tryggvesson, ch. 7.
- 49. Ibid., ch. 92.
- 50. Ibid., ch. 87.
- 51. Ibid., St. Olaf, ch. 56, 181.
- 52, Ibid., ch. 74.

- Ibid., Appendix to Olaf Tryggveson's Saga; Encyclopedia Britannica. art. Columbus.
- 54. Beomulf. xxxv.
- 55. Sturiuson, Son of Magnus, ch. 33; Du-Challiu, 11, 370-879,
- 56. Saxo Grammaticus, Danish History, I, 23.
- 57. Haskins, Encyclopedia, 111, 499c.
- 58. DuDhaillu, II, 1.
- Haskins, Normans in Europeau History, 36.
- 60. DuChailiu, I, 486.
- 61. Saxo, 25.
- 62. Thompson, J. W., The Middle Ages, I, 827.
- 63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
- 64. Siglusson, Saemud, The Elder Edda, 22 56.
- 65. lbid., 23.
- 66. 59.
- 67. 66.
- 68. 14.
- 69. 84,
- 70. 102.
- 71. 81.
- 72, 65.
- 73. 73.
- 74. 121.
- 75. 68.
- 76. 55 6.
- 77. 86.
- 78. 68.
- 79. Horn, Literature of the Scandingvian North, 41.
- 80. Facreyinga Saga in Ker, Epic and Romance, 236.
- 81. Sturiuson, Olaf Tryggvesson's caga, ch. 9.
- Sturiuson, Yaglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, Charlemagne 154; Saxo, 44.
- 88. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility

- 84. Cambridge Midleval History, 270.
- 85. West, Alcuin, 127.
- Rab, F. J. E. Histoy of Christian Latin Poetry in the Middle Ages 188.
- 87. Weich, Alice K., Of Six Medieval Woman, 5.
- 88. Addison, Arts and Crafts, 18.

#### CHAPTER XXI

- 1. Cambridge Medieval History, I, 536.
- 2. In Rassell, B., Historylof Western Philosodhy, 879.
- 3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
- 4. Ch. ?.
- 5, Ch. 63.
- 6. Dudden, I, 111.
- 7. In Maitland, S.R., Dark Ages, 196-8.
- 8. In Dudden, 1, 58.
- 9. Ibid., 289.
- 10. Bede, ii, 1.
- 11. Oregory of Tours, 227.
- 12. Dudden, 1, 215,
- 18. Thompson, J.W., Middle Ages, I, 178.
- Dadden, II, 155; McCabe, J., Story of Religious Controvery. 307.
- 15. Bede, il, 1.
- 16. Ibid., 198.
- 17. Gregory I, Ep. xlii, 45, in Dadden, 1, 278.
- 18. In Abélard, Ouvrages inédits, Quaestio, 1a.
- 19. Gregory I, Magna Meralia, in Dudden, II, 813.
- 20, Dialogues, iv, 7, in Dudden, I, 380.
- 21. Dudden, II, 484f.
- 22. Ibid., 38.
- 23. Thompson.JW.MiddleAges,I,178.

- 24. Voltaire, Works, XIII, 90.
- 25. Cambridge Medleval Bislory, II, 690.
- 26. Punk, 1,287; Gambridge Medieval History, V, 710.
- 27. In Milman, III, 25.
- 28. Gibbon, IV, 82.
- 29. Sarton, I, 555.
- 30. Poole, R.L., Illustration, 20.
- 31. Taylor, H.O. Medieval Mind,1,
- 32. Dudden, I, 86.
- 88. Ibid.
- 84. Montalembert, Comte de, Monks of the West, 1, 558.
- 85. Quizot, Civilization, II, 113 9: Toynbee, A.J., Study of History II, 331.
- 36. Waddell, H., Wandering Scholar 34.
- 37. Bede, i, 17.
- 38. William of Malmesbury, i, ?.
- 39. Bede, i. 80.
- 40, Bede, Letter to Egbert.
- 41. Green, Making of England, 413.
- 42, Olbbon, V, 534.
- 48. Coulton, Five Centu les ot Redigion, I, 229.
- 44, Ibid., 852.
- 45. Cambridge Medieval History, V, 662.
- 46. Ibid., III, 67.
- 47. Milman, III, 111.
- 48. Cambridge Medleval History, 111, 455.
- 49. Millman, Ill, 160: McCabe, Crises in the History of the papacy, 1281.
- 50, Ibid., 181, quoting the Liber Pontificalis.
- 51. Milman, III, 171: Cambridge Medieval History, III, 455.
- 52. Milman, III, 178.
- 53. Ibid., 185f.

- 54. Sandvs. Sir John, Companion to Latin Studies, 847.
- 55. Vincet of Beauvais, Spec. Hist., in Mimas, III, 221.
- 56. Thorndik, Magic and Experimental Socience 1, 704.
- 57. Cambridge Medieval History, 111, 109.
- 58. Hulme, E.M. Middle Ages, 339; Coulton O.O., Life in the Middle Ages., I, 1: Sarton, I, 734.
- 59, Funk, I, 262.
- Stevhens, W.R. W. Hildebrand,
   14: Milman. III. 230: McCabe,
   Crises, 140.
- Cambridge Medieval History, 10.
- 62. Guizot, France, I, 160.
- 68. Porter, A. K. Medieval Architecture, II. 2.
- 64. Ibid.
- 65. Carivie R.W., History of Medieval Political Theory in the West IV, 52.
- 66. Coulton, Five Cecturies of Religion, IV, 187.
- 67. Coulton, From St. Francis to Dante, a tr. of The Chronicle of Salimbene, 286.
- 68. Cambridge Medleval History V, 9-10.
- 69. Catholic Encyclopedia, I, 156
- 70. Cambridge Medieval History, V, 12,
- 71. Lea, Sacerdotal Celibacy, 210.
- 72. Lecky Morals, 11, 237.
- 78. Lea, H, story of Auricular Conjessions, I, 46.
- 74. Lettes to Egbert in Bede, p. 4.
- 75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
- 76, Cambridge Medleval History, IV, 268.
- 77, Ibid., 272.

- 78. Lea, Sacerdotal Celibacy, 194, 223; Thompson, Social and Economic History, 662.
- 79. Lez, Celibacy, 226.
- 80. Bryce, Jas., Roman Empire, 158.
- 81. Cambridge Medeival History V,99.
- 82. Thompsn, Social and Economic History, 663.
- 83. Taylor, Medleval Mind, II, 55
- 84. Letter of GregoryVII to William 1 of England, 1080, in Bryce, 160.
- 85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
- 86. Figgis, Political Aspects of St. Augustine's City of God, 88.
- 87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
- 88. Carlyle, R.W., Medieval Political Theory, IV, 64.
- 89. Stephens,-Hildebrand, 116.
- 90. Thatcher and McNeal, 169.
- 91. Cambringe Medieval Bistory, V. 74f.

#### CHAPTER XXII

- 1. Lot., End of the Ancient World
  126.
- 2. Dopsch, 283.
- g. Seebohm, F., English Village Community, 126f, 179.
- 4. Seignobos, C., Feudal Regime, 34, Barnes, Economie History, 139.
- 5. Clapham and Power, 237-8.
- 6. Letters, Iv, 2.
- 7. Coulton, G.O., Medieval Village 161,
- 8. McCabe, Story of Religious Controvery, 325.
- 9. Thompson, Social and Economic History, 679.
- 10. Coulton, Medieval Village; 492,
- 11. Coulton, MedievalPanorama,322

- 12. Thomas Aquinas, Summa Theologica, Iliae, xciv, 5.
- 18. Decree of Fourth Council of Orieans, in Dopsch, 250.
- Lecky, Morais, II, 70, Sarton, II (ii). 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
- 15. Ashley. Introd.to English Economic History, 11, 276,
- 16. Coulton, Medieval Village, 59.
- 17. Westermark, E., Short History of Marriage, 14: Coulton, Medieval Village, 80.
- 18. Reignobos, 14: Coulton, Medieval Village. 464.
- 19. Bebel, 57.
- 20. Cambridge Medieval History, VII, 721.
- 21. Coulton, Life in the Midd e Ages, 111, 123-5.
- 21a. Cambridge Medieval History.
  VII. 22.
- 22. Seignobos, 21.
- 23. Coulton, Medieval Village. 65.
- 24. Cram R.A., Substance of Gothic 181.
- 25. Lynn White. Jr. in Speculum. Apr. 1940. p. 151.
- 26. Taine. H. Ancient Regmie. 9, Carlyte,
- 27. Barnes, Economic History 145'
- 28. Cambriage Medieval History. Vil. 741.
- 29. Coulton. Medieval Village 311-18.
- 30, 1bid., 21, 243
- 81. Coulton. Panorama. 92.
- 32. Speculum. Apr. 1940.
- 88. Ibid., 155.
- Chricoubriand. Vicomite de, The Ganias of Christianity.iv.1.4
- 35. Coulton Medievol Village, 119.

- 36. Lacrolx. Paul. Military and Religious Life in the Middle Age. 156.
- 87. Hitti. History of the Arabs. 663; Hrnold Legacy of Islam 181.
- 38. Lacroix. Pahl. Science and Literature in the Middle Ages. 299f.
- 89. Beaumonoir in Seinobos, 55,
- 40. Coulton. Panorama. 50.
- 41. Voltaire. Works. XIII., 181.
- 42. Thompson. Feudal Germany.801
- 43. Carlylo. R.W. Medieval Polotical Theory. 463.
- 44. Pollock and Maitland, IJ. 242,
- 45. Maine. Sir H. Ancient Lpw. 185.
- 46. Coulton Medleval Village. 528.
- 47. Jenks. E. Law and Politics in the Middle Ages, 23.
- 48. Coulton Medie, al Village. 187.
- 49. Lea. Superstition and Force. 286, 297, 314.
- 50. Coulton, Panorama 379.
- 51. Lea. Superstition. 178.
- 52. Ibid., 140f, 179.
- 53. Seignobos. 79.
- 55. Sumner W.G. Folkwars, 522.
- 56. Barnes. Western Civilization, I. 798.
- 57. Seignobos, 81.
- 58. Coulton, Medieval Village. 248.
- 59. Lacroix. Milliary Life, 49.
- 60. Davis, W.S. Life on a Medieval Barony. 176.

- 61. Coulton. From St. Francis to Dante. 20.
- 62. Seignobos. 74.
- 63. Coulton, Chaucer and His England. 199.
- 64. Coulton, Panorama. 247.
- 65, Prestage, F., Chivalry. 72.
- 66. Sneculum, Apr. 1930. 189.
- 67. Thornpike, Magie and Socience.
- Hoover, H., and Gibbons. H.A. Conditions of a Lasting Peace 19.
- 69. Prestage, 75.
- 70. Coulton. Panorama. 289.
- 71. Traill. I. 379.
- 72. In Brif'ault. Mothers, III. 383,
- 73. Bebel. 63.
- 74. Prestage, 9.
- 75. Rowbotham, 283.
- 76. Prestage, 89.
- 77. Davis. Life on a Medieval Barony
- Vossler. K., Medieval Culture I. 299; Taylor Medieval Mind, II, 562.
- 79. Miss Amy Kelly in Speculum, 1937, 5.
- 80. Rombotham, 224, 285.
- 81. Ibid., 249.
- 82. Ibid., 245.



المنفحة

٣	الحوادث التاريخية مرتبة حسب تواريخها						
	الباب الخامس عشر : التلمود						
	الفصل الأول : النفى						
£1							
۷ ه ۷ ه	الفصل الثالث : الحياة اليهودية في البلاد المسيحية ١ ١ – الحكومة ٢ – الشئون الاقتصادية						
	٣ – الأخلاق						
الباب السابع عشر : عقل اليهودى وقلبه							
	الفصل الأول : الأدب الأدب القلم الفائي : مقامرات التلمود						
1 • 9	الفصل الثالث : العلوم عند اليهود						
111	الفصل الرابع : نشأة الفلسفة اليهودية الفصل الخامس : ابن ميمون						
	3: 11 1 11.						

الصفحة	الموضوع						
177	الفصل السابع ؛ القبلة الفصل السابع ؛ القبلة						
	الفصل الثامن : المتق الفصل الثامن :						
	الكتاب الرابع ــ العصور المظلمة						
187	الحوادث التاريخية في الكتاب الرابع						
	الباب الثامن عشر: العالم البيزنطي						
107	الفصل الأول : هرقل الفصل الأول : هرقل						
104	الفصل الثانى : محطمو الصور والتماثيل الدينية						
177	الفصل الثالث : نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية						
۱۸۰	الفصل الرابع : الحياة في بيزنطية						
141	الفصل الحامس : النهضة البيزلطية						
198	الفصل السادس : البلقان الفصل السادس :						
۲۰۰	الفصل السابع : مولد الروسيا						
4.7	الباب التاسع عشر : اضمحلال الغرب						
۲۰۸ ۰۰۰	الفصل الأول : إيطاليا الفصل الأول : إيطاليا						
	١ اللمبارد ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠						
Y11	۲ - النورمان في إيطاليا ۲						
	٣ – البناقية						
	ع – الحضارة الإيطالية ع						
	الفصل الثانى : أمپانيا المسيحية الفصل الثانى :						
	الفصل الثالث : قرنسا الفصل الثالث : قرنسا						
	١ مجيء الكارولنچيين ١						
	۲ شارلمان						
7 £ V	٣ – اضمحلال الكارولنيچين						
Y07	<ul> <li>٤ – الآداب والفئون</li> </ul>						
777	ه نشأة الأدواق						
الباب العشرون : نهضة الشمال							
۸۶۲	الفصل الأول : إنجلترا الفصل الأول : إنجلترا						
Y7A	١ – ألفرد والدئمرقيون						
	٢ – الحضارة الإنجليزية – السكسونية						

## فهرس الصور

الصفحة		مدلوها		
أول الكتاب	ارتر	ف كنيسة تشا	نقش على الزجاج من القرن الثانى عشر	, 1
			واجهة كنيسة القديس مرقس في مدينة	۲
« « F17		••• ••• •••	كوة معقودة في كنيسة منتريال	٣
a a 117		*** *** ***	مدخل كايلا يلائتينا رفي بلرم بإيطاليا	ź